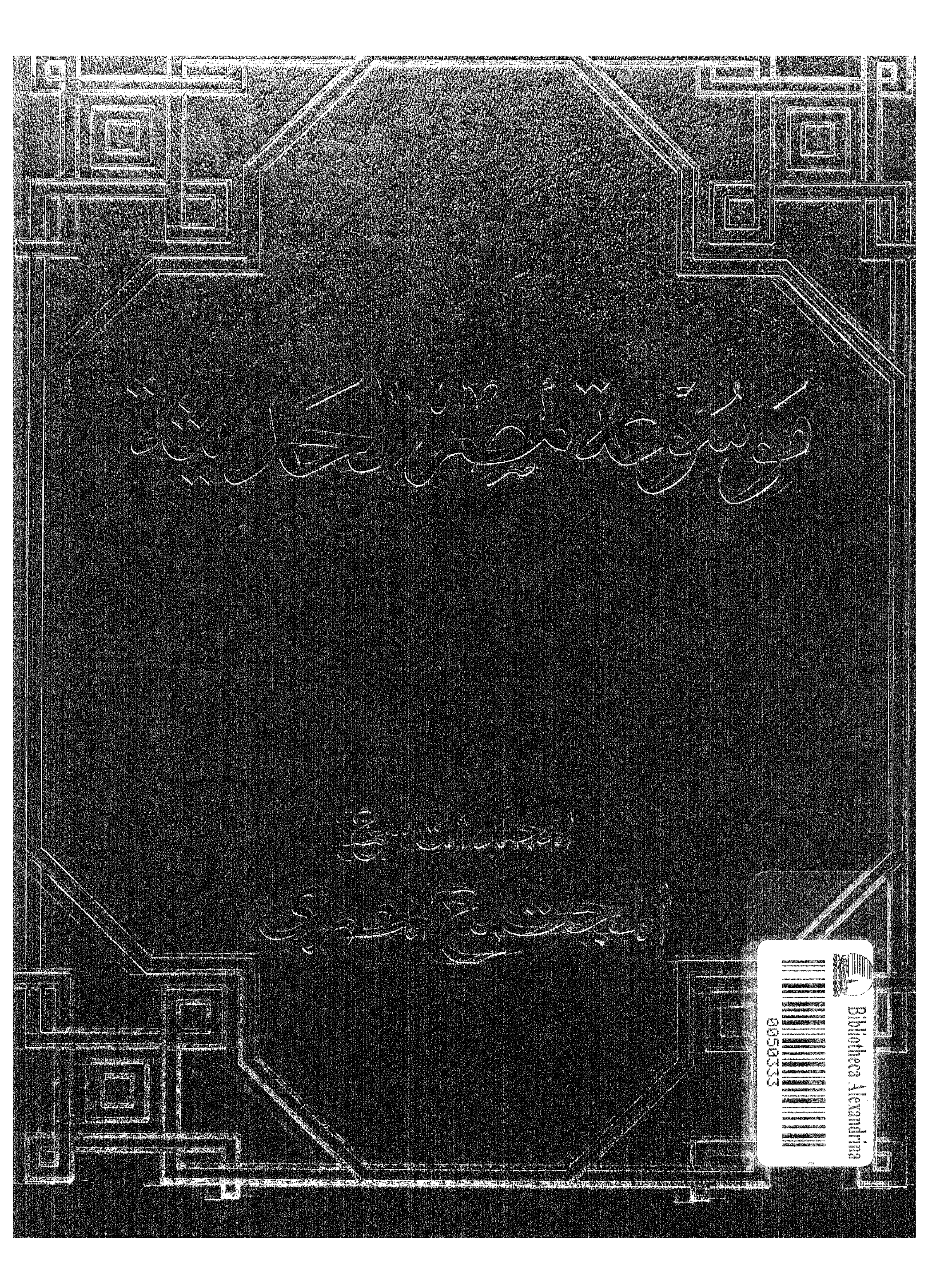

موسوعة مصر الحديثة
المجلد التاسع
المجتمع المصري
Bibliotheca Alexandrina
0050333




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



موسوعة مصر الحديثة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
وزارة الثقافة
مصـــر

بالتعاون مع

World Book Inc.
a Scott Fetzer company
Chicago London Sydney

إدارة التحرير :

رئيس التحرير :

الأستاذ الدكتور : سمير سرحان

أستاذ الأدب الأنجليزى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب

النشـــــر :

John E. Frere
President
World Book International

Michael Ross
Vice President, Publishing
World Book International

Sandy Van den Broucke
Randi Park
Printing and Post-Production

إدارة المشروع :

أنس الفقـــى

رئيس المجموعة الثقافية بالقاهرة

إدارة الإنتاج :

مستشار الإنتـــاج : **مـــودى حكـــيم**

مديـــر الإنتـــاج : **شـريف مودى حكيم**

نائب مدير الإنتاج : **مجدى نصيف حبيب**

قام بالجمع التصويرى والإخراج والتجهيزات الفنية :

M. Graphic International

١ شـارع أمريكا اللاتينية

جاردن سيتى - القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون : ٣٥٤١٨٠٠

فاكس : ٣٥٤٩٣٣٥

الاستشارات الفنية :

Jane Wightwick
Gaafar & Wightwick
Advertising Marketing and Publishing Services
47 A High Street, Chinnor, Oxfordshire, OX9 4DJ,
England.
Tel.: 1844-352513 / 354462
Fax.: 354329

World book Inc.
525 West Monroe
Chicago, IL, 60661
U.S.A
ISBN 0-7166-9950-8
Printed in Singapore

World Book Inc.
525 West Monroe
Chicago
U.S.A
ISBN O-7166-9950-8

حقوق التوزيع بجمهورية مصر العربية

المجموعة الثقافية بالقاهرة

٦ شارع سمير مختار - أرض الجولف

مصر الجديدة - القاهرة

تليفون : ٤١٨٣٢٩٧

فاكس : ٦٧٧٣٧٢

موسوعة مصر الحديثة

المجلد التاسع

المجتمع المصرى

المحرر
أ.د. أحمد على مرسى
أستاذ الأدب العربى والأدب الشعبى
رئيس قسم اللغة العربية سابقا
كلية الآداب جامعة القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شكر وعرفان

يتقدم كلاً من

الهيئة المصرية العامة للكتاب

والناشر

ورلد بوك إنك

بجزيل الشكر والتقدير والعرفان

للسيدة الفاضلة

سوزان مبارك

على ماتفضلت به من

رعاية لمشروع موسوعة مصر الحديثة

والتي لولا جهودها الخلاقة

وإشرافها الدقيق واهتمامها العميق

لماكتب لهذا المشروع العملاق أن يرى النور



على سبيل التقديم

انطلاقا من أهمية المعرفة الواعية بحركة التاريخ وتواتر أحداثه وما يرتبط بها من تسجيل للتطور الحضاري للأمم، أقدمنا على إعداد هذه الموسوعة الكبرى عن مصر الحديثة والمعاصرة (١٩٥٢-١٩٩٦) والتي طوّفنا فيها بين مختلف جنبات التاريخ المصري، وتشتمل على كل نواحي الأنشطة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاستثمارية والتعليمية والصناعية والاجتماعية والسياحية . . الخ فضلا عما تزخر به مصر من نهضة ذات ثقل دولي في الفترة الآنيّة والحضارية معا . . وجميعها جديرة بالملاحظة والتحليل التأملي لتكون بمثابة رؤية بانورامية أمام مختلف الأجيال في مصر والعالم العربي والخارجي على السواء .

وهذا العمل الموسوعي الضخم يستمد روحه من نبض التحضر المصري ويتسق مع الفلسفة الرائدة في حركة التأليف والنشر لدى الهيئات والمؤسسات العريقة في العالم وتدعمها الحكومات وتتضافر من أجلها مختلف الجهود والتخصصات، ومن هذا المنطلق نضطلع بدورنا هذا، يشاركنا في هذا الإنجاز نخبة من كبار المتخصصين والمفكرين والعلماء في شتى المجالات .

وهذا المشروع الذي تنفذه الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع مؤسسة World Book Inc. العالمية، يترجم رؤيتنا لرسالة المعرفة والثقافة حيث أنه يمثل مبادرة حضارية لمشروع كبير أخذناه على عاتقنا، لا نزعم له الكمال شأن أي جهد بشري ولكن نأمل أن يلبي كل الاحتياجات خاصة في ضوء أهدافنا بأن تمثل هذه الموسوعة رافدا أساسيا في التأصيل العلمي والتوثيقي والتحليلي في ضوء ما توافر لها من كم معرفي هائل .

ولما كانت هذه الموسوعة ضمن ما تهدف إليه أن تقدم البنية الأساسية المعلوماتيّة عن مصر في تحركها النشط وثقلها السياسي والاقتصادي والحضاري والثقافي في هذه الفترة المزدهرة التي نعيشها فأننا نأمل أن تكون هذه الموسوعة خيطا متماسكا في نسيج الحضارة الإنسانية، وأن تعتبر جسرا بنّاءً في حوارنا الثقافي مع الحضارات الأخرى .

سوزان مبارك



مقدمة تاريخية

ارتبطت نشأة المجتمع المصرى ارتباطا وثيقا بعوامل البيئة، مما مهّد الطريق أمام قيام حضارة من أقدم الحضارات الإنسانية على ضفتى نهر النيل، والذى لاشك فيه أن بناء الحياة وتكوين المجتمع فى مصر هما ثمرة التفاعل الإنسانى مع بيئته وتأثيره فيها وتأثره بها.

وقد أرسيت قواعد المجتمع المصرى، ومن ثم، الحضارةُ المصريةُ حين استطاع المصرى أن يكشف الطرق التى يستطيع التعامل بها مع نهر النيل، هذا النهر الذى كان، ومايزال، عميق الأثر فى حياة المصريين. وكان من نتيجة اكتشافه ذاك أن عرف الزراعة، ومايرتبط بها من عمران واستقرار، منذ مايسمى بالعصر الحجرى الحديث عندما بدأ الإنسان المصرى يمهد أرض الوادى، ويقيم قراه ومدنه الصغيرة بالقرب من شريان الحياة الرئيسى بالنسبة له، وهو نهر النيل. ولأنه قد قرر الإقامة قريبا من ضفتى النهر، فكر فى أن يبحث عن حل للمشكلات التى تواجه استيطانه وتهدد حياته، إذا ماطغى النهر عليه، وهدم بفيضانه السنوى مابناه وأجهد نفسه فى إقامته والحفاظ عليه.

اكتشف المصرى - نتيجة ظروف البيئة، وخصائص النهر - أنه لايمكنه أن يبنى حياة أو أن يقيم مجتمعا إلا إذا تمكن من السيطرة على النيل - الذى ألّهَهُ وعبده - بتنظيم الاستفادة من مائه، حتى يتمكن من الزراعة، ومن ثم بدأ يبنى الأسور ليحمى نفسه وممتلكاته، ويشق الترع والقنوات، لكى يستطيع أن يستخدم ماء النيل الاستخدام الأمثل، وأن يوسع المساحة التى يستطيع أن يزرعها، فى المواعيد المناسبة له ولحاجاته.

واكتشف المصرى أيضًا أنه لايستطيع أن يحقق ذلك أو بعضًا منه وحده، أو بجهد فردى أو جماعى محدود، أو يترك الأمور للصدفة، ومن ثم أدرك أنه يحتاج أن ينظم جهده مع جهود الآخرين ممن يشاركونه الحياة، وأنه لابد من أن يضع يده فى يد غيره من أجل حماية هذه الحياة، واستمرارها. وهكذا بدأ يعرف ماذا يَعنى المجتمع بالنسبة له، المجتمع الذى يقوم على التعاون؛ لأنه دون هذا التعاون لن يتمكن من الانتصار على البيئة وإخضاعها لإرادته، كما أدرك أن هذا التعاون لابد أن يخضع لقواعد تنظمه، وتوجهه، بل قد تُفرض عليه إذا استلزم الأمر ذلك، فكان أن توصل إلى ضرورة وجود من يقوم على رعاية ذلك وصيانته، ومن ثَمَّ، عرف ما يمكن أن نسميه بمصطلحاتنا الحديثة: «الحكومة» التى تنهض بهذا العبء فى التنظيم والضبط وتحقق العدل، لكى تستقيم الحياة، ويزدهر المجتمع.

عرف المصريون، إذن، الاستقرار، منذ عرفوا الزراعة - حوالى ٥٠٠٠ ق. م - وكان هذا إيذانا بترك حياة الاعتماد على جمع الغذاء، والتحوُّل إلى أن يكونوا منتجين له يعيشون فى مجتمع الجميع، وهو ماجعل المصريين يتمكنون من بناء تلك الحضارة التى مازالت آثارها باقية إلى الآن تشهد عليها.

ولايمكن لنا ونحن نتحدث عن الإنسان المصرى والبيئة التى عاشها، ومايزال يعيش فيها أن نغفل أهمية الموقع الجغرافى، وما أتاحه للمصرى من اتصال بالعالم المحيط به وأثر ذلك فى وجوه عامة، إيجابًا وسلبًا.

إن صلة الإنسان المصرى بمن حوله، وبما حوله، قريبًا منه، لم تنقطع منذ أقدم العصور، وقد حددت الصحارى والبحار التى تحيط بمصر طبيعة هذه الاتصالات، وأتاحت الفرصة لمصر أن تحافظ على طابعها الحضارى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن موقع مصر الفريد قد أتاح للمصريين أيضًا أن يكونوا على صلة بالشرق والغرب، وتجارة الجنوب والشمال، ولكن هذا الموقع الفريد فى قلب العالم القديم جعل مصر مطمعًا لقوى كثيرة قديمًا وحديثًا، ومن ثم تعرضت لكثير من الغزوات والهجرات وهو ما أتاح للمصريين شكلا آخر من أشكال الاتصال بغيرهم من الشعوب التى وفَدَتْ إلى مصر، لهذا السبب أو ذاك، لقد تعاقب على مصر طَوَالَ تاريخها كثير من الثقافات والأجناس والشعوب من فرس وإغريق ورومان وعرب وأتراك وغيرهم.

ولعله مما يميز المصريين أنهم استطاعوا دائما أن يستوعبوا من يأتى إليهم، وأن يصبغوهم بصبغتهم، بنفس القدر الذى تمثلوا به ثقافتهم وتأثروا بها مماجعلهم فى بعض الأحيان يتحدثون بلغة من جاءوا إليهم، ويدينون بدينهم، ومما يميزهم أيضًا احتفاظهم بمظاهر حياتهم المادية وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم التى ترتبط بالمجتمع الزراعى والحياة الزراعية التى لم تتغير كثيرا طوال العصور التى مرت على مصر.

وكما توصل المصريون إلى ضبط النيل، واكتشاف الزراعة، ومن ثَمَّ، الاستقرار فى وادى النيل، استطاعوا أيضًا أن يتوصلوا إلى الكتابة، ذلك الاختراع المهم الذى بدأ به العصر التاريخى فى حياة الإنسان خلال الألف الرابعة قبل الميلاد، وقد أتاح هذا للمصريين أن يضعوا أسس حضاراتهم وفنونهم، كما توصلوا أيضًا بعد تجارب طويلة إلى تفسير المظاهر الكونية، وإلى فكرة الدين، وأن يقيموا الأسس التى بنوا عليها نظام الدولة، ومركز الملك - الإله - وأن يتقدموا فى مجالات علمية كثيرة كالطب والفلك.. إلخ.

ويمكننا فى ختام هذا التمهيد السريع أن نحدد الأسس التى قام عليها المجتمع المصرى منذ العصور القديمة وهى:

١ - أن علاقة الإنسان - الفلاح - المصرى بالأرض هى التى شكَّلَتْ حياة المصريين.

٢ - أن المجتمع المصرى مجتمع ذو ثقافة عريقة مكَّنَتْه من إنشاء حضارة كبرى، واستيعاب حضارات وثقافات أخرى.

٣ - أن المجتمع المصرى استطاع أن يحافظ على أشكال حياته منذ قرون بعيدة، كما أنه شهد امتزاجا اجتماعيا وثقافيا بين عناصر بشرية كثيرة طوال تاريخه القديم والوسيط والحديث[1].

الحياة الاجتماعية

تحتل الأسرة مكانةً مهمة، وجليلة عند المصريين عامةً، فالحياة الاجتماعية للفرد منذ ميلاده، بما تتضمنه من تنشئة وغرس للعادات والتقاليد تتم فى معظمها داخل الأسرة. وللأسرة المصرية المعاصرة حظٌّ كبيرٌ من الصلة بماضيها البعيد وتقاليدها القديمة، من حيث تفضيل الزواج المبكر، وأوضاع الزوجين فى الأسرة، ومعانى الألفاظ التى تعبر عن الزوجة، وحب الاستقرار فى المعيشة والسكن[٢]، مما يؤكد عمق الروابط التى لابد أن تربط أعضاء الأسرة ببعضهم البعض، وينعكس بالضرورة على سلوك أعضائها واتجاهاتهم، ذلك أن الأسرة أولاً وأخيرًا هى الإطار الأساسى الذى يعيش فيه الفرد حياته الاجتماعية والاقتصادية.

علاقات القرابة

وتقوم الحياة الاجتماعية، ومايترتب عليها من علاقات، فى المجتمع المصرى باعتباره مجتمعًا زراعيًا على صلات القرابة والنَّسَب التى تحدد أسس التعاون، والعلاقات العاطفية والعقلية، فالفلاح يتعاون مع ذوى قرباه ويثق فيهم، ويفتقد ذلك فى التعامل مع الغرباء.

وكلما كانت علاقات القرابة وصلات النسب واضحةً محددة.. كان سلوك الفرد واضحًا ومحددًا أيضًا، وهو مايحتل أهمية كبيرة لدى الإنسان المصرى، إذ ينبنى عليها توثُّقُ هذه العلاقات ونموها، أو ضعفها وتدهورها، كما تتحدد أيضًا قيمتها الاجتماعية والدينية، خاصة أنها ترتبط بقضية مهمة جدا وهى «الميراث». يضاف إلى ذلك أن العلاقات القائمة على صلات القرابة والنسب كانت عاملاً أساسيًا فى تحديد وضع الفرد فى المجتمع، وكذلك علاقاته مع غيره سواء كان فرداً أو جماعة.

وقد ترتب على أن القرابة والنسب هما أساس العلاقات، ازدياد نفوذ العائلة على أعضائها، ومن ثم تقوية الشعور الجمعى وازدهاره. وعلى ذلك كان الإعلاء من شأن القيم العائلية بحيث تصبح نماذج السلوك الاجتماعى المعتبر من الجماعة، أمرًا مَرعيًا مُحَافظا عليه بشدة ويتمثل هذا الإعلاء من شأن العائلة وقيمها، فى أن المصرى لايستطيع أيا ماكان شأنه أو مركزه الاجتماعى أو الاقتصادى أن يتجرد من صلة الرحم، أو أن يتنكر لأقاربه، أو أن يخرج على تقاليد الأسرة وآدابها. والأسرة من ناحية أخرى حريصة كل الحرص على أن يربط بين اعضائها احترامُ العادات والتقاليد والقيم العائلية، من أجل تكوين شخصية نموذجية محددة المعالم اجتماعيا. والعائلة المصرية عائلة أبوية، ومن ثَمّ فالنسب والإقامة أبويان، وكان من غَيَر المقبول اجتماعيا أن يستقل الابن عند زواجه عن بيت الأسرة، وأن يقيم بعيدًا عنها، ذلك أن القاعدة كانت أن يظل المسكن واحدًا،

خاصة فى الريف، مع تحديد أقسام منفصلة منه لكل عضو فى الأسرة إذا ماتزوج. فالعائلة بالنسبة للفرد عبارة عن مجتمع صغير داخل مجتمع أكبر، ويعتمد مركز العائلة ودورها على حجمها، أى عدد الأفراد الذى يعيشون معاً فى دار واحدة، كما يعتمد على وضعها الاقتصادى الذى يرتبط بدوره بكثرة عدد أعضائها. وعلى ذلك كانت العائلة تعيش حياة جماعية، ذلك أن فلاحة الأرض على الصورة التقليدية والتى كات العمل الأساسى للأغلبية العظمى من المصريين منذ أقدم العصور، وحتى عهد قريب، اقتضت تعاون أكبر عدد ممكن من الأفراد «العائلة» كما حتَّمت أن يقيموا فى مكان واحد، التماساً للأمن، وسهولة الاتصال؛ ذلك أن الاستقرار فى المكان، وفى العلاقات التى تربط الأفراد ببعضهم البعض كانا أمرين ضروريين على مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وقد أدى هذا النمط فى الحياة إلى غلبة القيم الاجتماعية، وزيادة التماسك بين أفراد العائلة، ومن ثَمَّ، المجتمع، وتماثلت إلى حد كبير الأفكار وأنماط السلوك على الرغم من التفاوت الاجتماعى والاقتصادى واختلاف السن والجنس.

الأب والأم والأبناء

كان رب العائلة هو الحاكم بأمره، وصاحب السلطة المطلقة على أعضاء أسرته يتصرف فى أمورهم، ويدير شئونهم حسب رغبته وإرادته، ولايستطيع أحد أن يناقشه فيما يراه. فالعائلة التى تقوم على أساس القرابة، والحياة الاجتماعية لابد أن تكون بها سلطة لها الحقُّ فى الأمر والتوجيه والتنسيق. والمجتمع الزراعى يعطى هذا الحقَّ للذكور، ولكن ليس كلُّ الذكور لهم هذا الحق، فالسن لها أهمية كبرى فى هذه الحالة، ومن ثم فإن الأكبر سنًا له السلطة على من هم دونه الذين ينبغى عليهم أن يظهروا الاحترام له، والطاعة لأوامره، ولقد كانت الحياة الاجتماعية فى العائلة تقتضى تقسيما للعمل خارج البيت، وداخله، ومن ثم كانت سلطة البيت، تختلف عنها خارجه.

فالسلطة فى العائلة ارتبطت ارتباطا وثيقا بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية، وينهض بها الرجل اجتماعيا من خلال إشرافه بوجه عام على التنشئة الاجتماعية لأفرادها، وتحقيق مطالب أفرادها، وتوجيه عملهم الفردى والجمعى الذى كان يقوم أساسًا على فلاحة الأرض. أما بالنسبة للمرأة، فهى التى تشرف على كل مايتصل بشئون البيت، وتربية الأبناء الذكور حتى يصلوا إلى السن التى يستطيعون فيها المساهمة فى العمل، والإناث حتى زواجهن. ولم تكن المرأة تتدخل عادة فيما يخرج عن حدود الدَّوْر الذى حددته لها العادات والتقاليد، ونظام السلطة داخل العائلة ومن ثم، كانت علاقاتها بأبنائها أكثر قربًا. وكان الأبناء يُبدون لأبويهم أمورا يدعمها الدين، والعرف والتقاليد. كما يُعَوّدُون منذ سنى حياتهم الأولى على تقبيل يدى الأبوين فى الصباح، وقلما سلموا عليهم يدا بيد، وأن يقفوا أمام الأب باحترام وأدب عندما يتحدث إلى أى منهم، وألا ينصرفوا من أمامه إلا إذا أذن لهم بالانصراف. وكما يُعَوَّدُ الابن على احترام أبيه، يعود على احترام أمه ومن يتساوون مع الأب والأم فى المكانة الاجتماعية من الأعمام والأخوال والعمات والخالات والجدين، وكذلك أفراد العائلة كل حسب سنه ودرجة قرابته. وتختلف علاقة الأبناء بالوالدين أو العكس باختلاف عمر الأبناء، ففى السنوات الأولى من العمر، تكون العلاقة أوثق بالأم أكثر من الأب، ثم تأخذ فى الاتجاه نحو الأب أكثرمن ذى قبل، كلما نما الطفل،

وخاصة بالنسبة للأطفال الذكور الذين يبدأون فى مصاحبة الأب، والجلوس إلى كبار السن فى العائلة.. إلخ، وفى كل الأحوال يُلَقَّنون أنماط السلوك المعتبرة التى تحددها التقاليد، وفقًا لكل مرحلة سنية[٣].

الزواج

لما كان الزواج هو العامل الأساسى والوحيد فى المجتمع المصرى الذى يؤدى إلى زيادة عدد أعضاء الأسرة الذى يعد هدفًا ساميًا فى حد ذاته لاعتبارات اجتماعية ودينية واقتصادية، لذلك كان الزواج المبكر عادة محترمة، وقاعدة مرعية، يحرص عليها المجتمع، وخاصة فى القرى. فهو إلى جانب مايحققه من اعتبارات، يكون مظهراً من مظاهر اكتمال النضج - الرجولة/ الأنوثة - وإيذانًا للزوجين، والشاب خاصة، باحتلال مركز مختلف يتمتع بالاحترام والتقدير من جانب الأسرة، ومن ثم المجتمع.

ولم تكن التقاليد - من ناحية الشكل - تسمح للفتى أو للفتاة أن يلتقيا أو أن يعرف أحدهما الآخر معرفة قريبة أو حميمة، ذلك أن الزواج كان ينظر إليه باعتباره أمرًا يخص العائلين أكثر مما يخص الزوجين، نظرًا لطبيعة الوظائف التى يحققها الزواج وفقًا لما يراه المجتمع، وكان الشاب يَقْبل من تختارها له أسرته، وكذلك الفتاة.

لما كانت غالبية الشعب المصرى من الفلاحين، فقد كان الزواج يتم غالبًا بعد بيع محصول القطن الذى كان يشكل المحصول النقدى بالنسبة لهم، ومن ثم تستطيع الأسرة أن تدفع المهر وأن تجهز السكن ومايلزمه من أثاث. وكان من المعتاد أن تزوج الفتاة لابن عمها ومن ثم لم تكن هناك مغالاة فى تكلفته، وقد عبرت الأمثال الشعبية عن هذا «بنت العم لابن العم بتلاتة فضة» أى بقرش ونصف و«آخذ ابن عمى واتغطى بكمى» أى أتزوج من ابن عمى حتى ولو لم يكن يملك مايغطينى به» عندئذ سأستخدم كمى غطاء لى، و«بنت عمك تحمل همك.. إلخ، وكذلك عبرت الأغانى الشعبية عن هذه العادة نفسها:

يانا يابن عـــمى	*يانا يالغـــريب*
إن جانى ابن عمى	*لازغـــرد واغنى*
وأقول دا ابن عمى	*أبدا مش الغريب*

وفى أغنية أخرى:

خـذ بنت عمك ياكتير المـــــال
وأوعـى تروح للدون تتجوز بنته
أحسن تبقى عيبه فى حقنا ياغالى

ويرجع السبب فى تفضيل زواج ابن العم من ابنة عمه إلى الرغبة فى الحفاظ على الميراث داخل نطاق العائلة، بالإضافة إلي الحفاظ على التماسك العائلى. ويوصف الشاب الذى يتزوج من خارج العائلة بأنه «زى القرع يمد لبره» أى للخارج. ذلك لأن العائلة تشكل وحدة اجتماعية اقتصادية تقوم بدورها على أساس الارتباط الوثيق بين الأرض والإنسان.

الاهتمام بالإنجاب

كان لرب العائلة عدد كبير من الأبناء، ولم يكن شغف المصريين بالأطفال فى حقيقته نابعا عن رغبة فى إشباع غرائز الأبوة والأمومة وحدها، وإنما كانت وراءه دوافع اجتماعية واقتصادية ودينية، ذلك أن المجتمع المصرى نشأ نشأة زراعية فى جوهره. والبناء الاقتصادى للمجتمعات الزراعية يتأثر بوَفرة الأيدى العاملة أو قلتها، سواء عملت فيما تملكه العائلة من أرض، أو استؤجرت للعمل فى أرض غير أرضها، وعلى ذلك فكلما تكاثر أفرادها، - تهيأت الفرص لزيادة دخلها. ومن

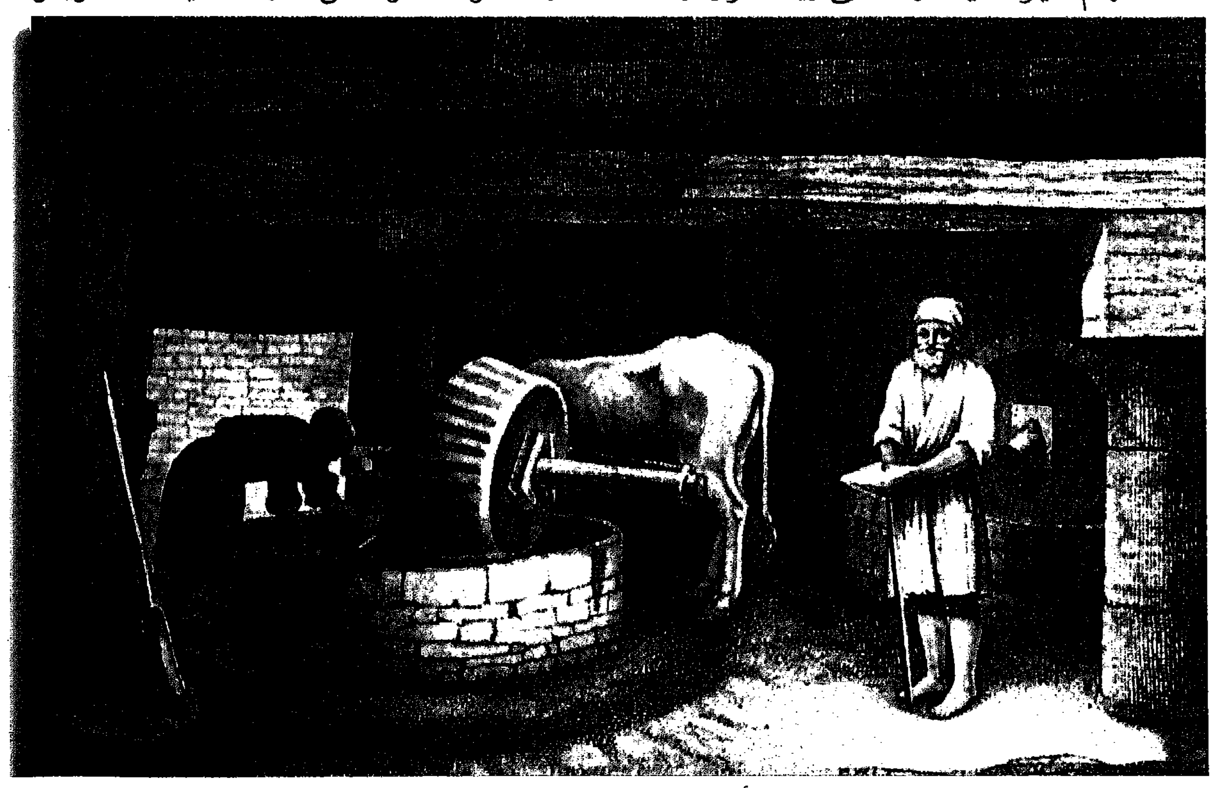
ثم كان من غير المقبول اجتماعيا واقتصاديا ودينيًّا التدخل فى موضوع الإنجاب أو الحد منه.

وكانت الأسرة عادة تتباهى بكثرة الذرية وخاصة الذكور، وتعتبر ذلك نعمة من الله تتمشى مع إرادته. وكانت المرأة الولود تحظى بحب الزوج ورعايته واحترام أفراد اسرتها وتقديرهم، وخاصة النساء من أفراد أسرتها، وكان إنجاب الأطفال مطلبًا اجتماعيا اقتصاديا فى الوقت نفسه.

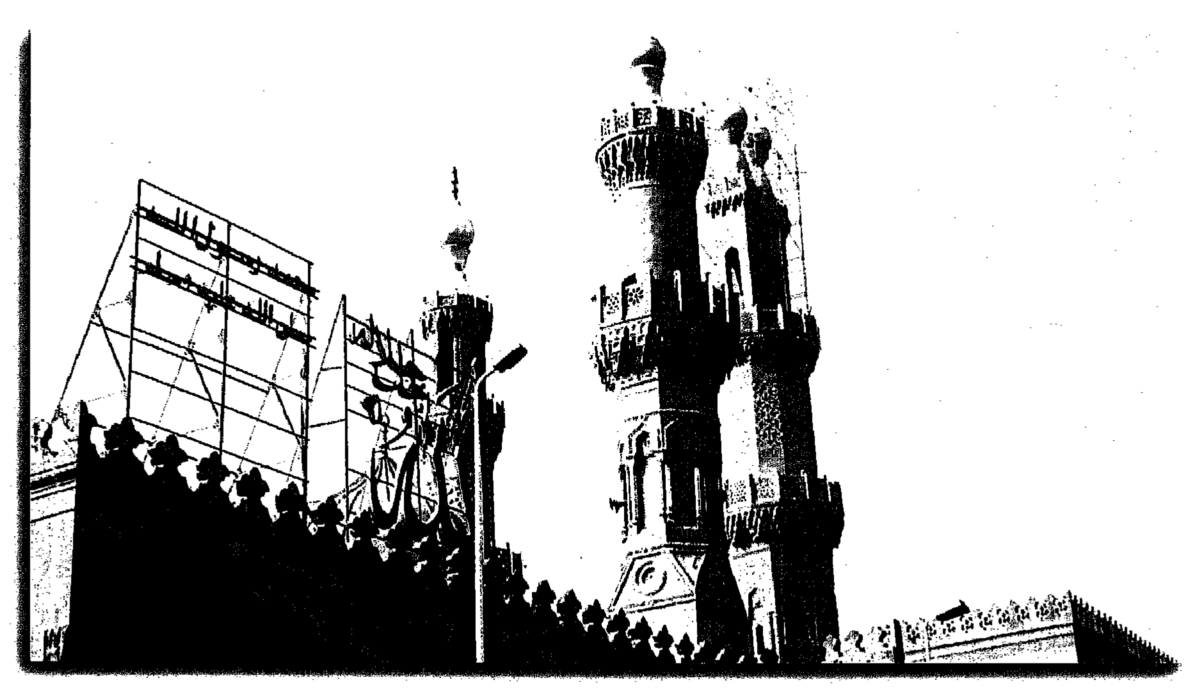
فالأولاد يعملون على كبر حجم العائلة ومايترتب على ذلك من مهابة ومركز اجتماعى مرموق يعتمد على «العزوة» فمن لا «عزوة» له لاقيمة له. كما أن كثرة الإنجاب تدل على رجولة الرجل، وأنوثة المرأة وخصوبتها، وبه تزداد قيمتها، وتكتسب الاحترام خاصة إذا أنجبت ذكورا، ومن ثم كان العقم شرا ولعنة يُبذَلُ الجهد من أجل الخلاص منه، والتغلب عليه، والأطفال نعمة كبيرة تتمناها العائلة؛ ذلك أنهم خير معين لها على زيادة ثرواتها، وهم سندها إذا تغيرت الأحوال، وتقلبت الأيام. ويتجاوز حب المصريين لإنجاب الأطفال الأسباب الدينية والاقتصادية إلى اعتقاد قديم يذهب إلى أن سعادة المرء فى حياته الآخرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يؤديه أبناؤه من طقوس الجنازة حين وفاته، ومايؤدونه من شعائر القربان بعد دفنه، ويتكفلون به لإحياء اسمه وإبقاء ذكراه. ويتحدث أحد نصوص متون التوابيت على لسان والد نَعمَ بسعادة الدارين بفضل ولده فقال: «أصبح مَقعدى فى حوزتى، ولم يكن أبى هو الذى وهبه لى، وليست أمى هى التى وهبته لى، ولكنه وريثى هذا الذى أعطانى إياه»(٤).

معتقدات

ترتب على هذه التصورات أن المصريين اعتبروا ثراء الدنيا قليلا إذا أعوزته نعمة الولد، ومن ثم كان الحرص على وقاية الأطفال من الأمراض العضوية الظاهرة، ومن الحسد، وماتوهموه من أذى العين الشريرة،



أحد مشاهد الحياة المصرية قديما



الأزهر الشريف

والشياطين، وكل مايعتقدون أنه يوقع الأذى أو يسبب الضرر للطفل، فشاع بينهم استخدام عقاقير ووصفات شعبية لمعالجة الأمراض المختلفة، وتمائم وأحجبة، فضلا عن دعوات دينية ورُقى وتعاويذ يدرأون بها الحسد، ويتقون بها شر الأفعال الضارة التى توقعها قوى الشر على أبنائهم. وقد اشتهر عن بعض الأفراد - ولايزال هذا قائمًا إلى الآن - أنهم قادرون على عمل الأحجبة، والتمائم للشفاء من مرض، أو لقضاء حاجة متعسرة، أو للعلاج من العقم، أو إنجاب الذكور.. إلخ(٥).

كما يقصد المصريون أضرحة الأولياء التماسًا لتحقيق الأغراض السابقة، وكانت الأسر تنفق جزءاً من دخلها أحيانا على إيقاد الشموع والوفاء بالنذور للأولياء مقابل قضاء حاجات أفرادها، وهى أمور لها جذورها فى المعتقدات المصرية القديمة، وقد ذكر «العقاد»(٦) أن المصريين أتقياء إلى حد الحماسة، ويؤمنون بقضاء الله المطلق فى الخير وفى الشر، وأن تَدَيُّنهم أدى بهم إلى الإيمان الكامل بالقَدَرية والقدر وانتظار الغيب وقلة استعجال المقاديرَ. وهذا الإيمان وتلك التقوى يتجليان فى أوضح الدينية؛ فالإنسان الصالح هو الذى يؤدى الصلاة فى مواقيتها، راضيا قانعا بما وهبه الله من صحة ورزق وذرية طيبة، مقيمًا شعائر الدين ساعياً فى الخير. وهذا الإيمان المطلق فى جوهره محصلة لعملية التنشئة الاجتماعية فى مرحلة الطفولة فالأطفال؛ يشبون على الإيمان بأن كل شىء بيد الله، وأنه يراقب الإنسان فى كل تصرفاته، وأن إرادته هى العليا، وأنه الرحمن الرحيم الذى تسع رحمته كل شىء وأنه المعطى الوهاب الذى يعلم كل شىء، ولذلك كان إظهار الصلاح والتدين مسألة مهمة يحرص الناس عليها، بصرف النظر عن كون هذا التدين حقيقة أم إدعاء.

والحقيقة أن النظرة إلى التدين لم تكن روحية تماما بل تشوبها نظرة نفعية، ذلك أن التدين عامة أحد طرق النجاح فى الحياة التى حُدِّدَتْ مقوماتها باعتبار أن المجتمع المصرى مجتمع زراعى أساسًا، ترتبط قيمه الأساسية بالأرض وماتنتجه. وبالطبع لن يكون مقياس الصلاح والتدين إقامة الشعائر الدينية فحسب، ولكن المشاركة أيضًا فى إحياء المناسبات الدينية المتعددة التى يحتفل بها المجتمع.

الهجرة والاغتراب

وكان من المعروف الشائع عن المصريين أنهم يصعب عليهم أن يهجروا أرضهم وديارهم حتى داخل حدود وطنهم، وكان من المستحيل تقريبًا أن تتزوج الفتاة بعيدًا عن أهلها حتى أنهم عبروا عن ذلك - فى أحد الأمثال الشعبية - بقولهم «جوزها بديك، وناديها تجيك» «أى زوجها قريبا منك، إذا ناديتها تأتى إليك مسرعة، حتى لو كان المهر المقدم لها لايزيد عن ديك «أى ثمن ديك» فالارتباط بين المصرى وأرضه وثيق عميق الأثر فى نفسه وسلوكه، ماجعله يكره الغربة، ويخشى الاغتراب، ويُنظر إلى ذلك إذا أُجبرَ على فعله على أنه نظير الموت «فالغربة تربة» - أى قبر، ومن ثَمَّ كان يشعر بالحزن الشديد عند سفره، والبعد عن أهله، ولو إلى مسافات قصيرة، فهو يعشق مسقط رأسه، ويكره البعد عنه، ويقسم بغربته، كما يقسم بروح أبيه أو أمه.

ولايعنى ذلك أن المصرى لم يهجر مكانه أو قريته، ولكن كانت هناك هجرات داخلية من الريف الفقير وخاصة من الصعيد إلى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية والسويس وبورسعيد لم تسفر فى الحقيقة عن تغيير كبير فى مكونات المجتمع، ولم يترتب عليها انقطاع للعلاقة بين المصرى وأهله. ويرى جمال حمدان[7] أن مصر لم تصدر أبداً الرجال خارج حدودها وإن صدرت أعمالهم، وأنها لم تكن أبداً منطقة طرد. وكانت حالات الهجرة - قديما بالطبع - خارج الحدود إلى الشام وبرقة مؤقتة فى أوقات الأزمات، وأما فى الأوقات العادية فقد قَبَعَ المصريون فى بلدهم، ولم ينتشروا إلى الخارج، فالرحلة إلى خارج الوطن والإقامة خارج الحدود كانت ضعيفة، نادرة الحدوث، ذلك أن المصرى كان مخلوقا نهريا يعشق النهر ويرتبط به، ومهما شقى فى الوادى يشق عليه أن يهجره، ووُصف المصرى بأنه نبات نهرى يضرب بجذوره بعمق فى طينة الوادى. وهذا التمسك بالأرض ظاهرة قديمة، هى فى حقيقتها، محصلة تفاعل عوامل طبيعية وعوامل اجتماعية، فمصر كانت بيئة غنية فى ذاتها بل شديدة الثراء إذا ماقورنت بالبلدان المجاورة، فلم يهجرها أولادها. كما ساهمت الصحراء الشرقية والغربية والشاطئ الساحلى فى عدم تشجيع الهجرة واستقرار المواطنين، وتمسكهم بمصيرهم. لكن ظروف الحياة أخذت فى التغير خلال العقود الثلاثة الأخيرة، فعدد السكان فى تزايد مستمر، وهذا أمر طبيعى فى مجتمع كالمجتمع المصرى، كما أن العائلة القديمة تغيرت، وتغيرت وظائفها، فلم تعد قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى لأعضائها، ومن ثم افتقدوا إحساسهم بالانتماء إلى جماعة تقوم على أمرهم، قادرة على تحقيق مطالبهم المادية وفق التقاليد والأعراف القديمة، والوفاء بمطالبهم الاجتماعية كالزواج ومايترتب عليه من رعاية الأولاد وتربيتهم.. إلخ. كل ذلك خلق حالة من عدم التوازن بين مطالب الفرد، وقدرات العائلة - المجتمع - مما دفع إلى تغير نظرة المصريين إلى الهجرة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن تفتت الأرض الزراعية وبطء تطور وسائل الإنتاج، بالإضافة إلى عدم قدرة مستوى الدخل على الوفاء بالمتطلبات الجديدة، وزيادة الاتصال بالعالم الخارجى، سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، واطلاع المصريين على نماذج أخرى للحياة، وثقافات مختلفة، كل ذلك وغيره دفعهم إلى أن يغيروا كثيرا من عاداتهم وقيمهم بالنسبة للهجرة، ومن ثم أقبل عليها كثيرون سعيا - فى المقام الأول - لتحسين أوضاعهم المعيشية، ورفع مستواها، وموضوع الهجرة سواء أكانت مؤقتة أو دائمة موضوع يثار فى كل بيت ويشغل أفراد المجتمع مابين مؤيد ورافض، ولقد كتب د. حسين خلاف فى جريدة الأهرام

يقول «إن الشباب عندنا يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع أن يغادر فيه مصر فترة يحقق بعض مدخرات تمكنه من تحسين مستوى معيشته»[8].

وتكشف اتجاهات الهجرة حاليا عن تغير كبير فى نظرة المصريين منذ أصبحت قوة العمل المصرية، تشكل قطاعا مهما من قوة العمل فى الدول العربية النفطية، كالسعودية ودول الخليج وليبيا، إذ تصل إلى عدة ملايين من مختلف المهن والحرف. وأيا كان الأمر فى تفسير ظاهرة الهجرة للعمل خارج مصر خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧، ثم بعد ارتفاع أسعار البترول خلال عقد السبعينيات بعد نصر ١٩٧٣، فإن الذى لاشك فيه أن خروج المصريين للعمل فى الدول المجاورة، وغيرها أخذ يشكل ظاهرة ملحوظة[9]، لاتقتصر فقط على العاملين الذكور، ولكنها أيضا تمتد لتشمل الإناث، وخاصة المدرسات فى مراحل التعليم المختلفة. ولاشك أن هذا الاتجاه الجديد، الذى ظهر خلال العقود الثلاثة الأخيرة خاصة إنما يكشف عن حقيقة مهمة ترتبط بتغير نظرة المصريين إلى الأرض والعمل، خاصة بين الطبقات الدنيا، فكلما زادت نسبة الذين لايملكون شيئا وخاصة الفلاحين، كلما زادت نسبة الهجرة، ولعل هذا مايفسر اتجاه كثير من المصريين إلى استثمار أموالهم، ومدخراتهم، فى شراء الأراضى الزراعية، وبناء المنازل.

فالأرض للمصرى هى مصدر الحياة، وكانت رعايته لها والتفانى فى زراعتها مصدر سعادة كبيرة له، وهدفاً يفخر بتحقيقه والتباهى به. وهو على الرغم من انتقاله للحياة فى المدينة، أو هجرته للعمل خارج مصر، لايستطيع أن يقطع صلته بالأرض، سواء على الصعيد المادى أو المعنوى، ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان الاعتداء على الأرض بالنسبة للمصرى اعتداء مباشرا عليه، وتحقيرا من شأنه، وإهدارا لقيمته، وكان لهذا الارتباط نتائج مهمة، على المستوى الاجتماعى، منها أن الفلاح لم يكن يميل إلى الهجرة أو الانفصال عن الأرض؛ ذلك أن ترك الأرض لأى سبب، حتى ولو كان من أجل التجنيد، أمر مكروه بغيض أشبه بالموت لديه؛ لأنه يفصله عن مصدر حياته.. الأرض.

الزراعة والزمن

هذه العلاقة بين المصرى والأرض، أثرت على كثير من مفاهيمه وأنماط سلوكه، ونظرته إلى المكان، وإلى الزمان؛ فالزمان بالنسبة له من ناحية العمل مرتبط بالفصول، ومن ثم استخدم التقويم القبطى لأنه يتفق مع دورة الزراعة، وهو أمر ظل ملازما له منذ العصور القديمة، فهذا التقويم فى حقيقته، امتداد للتقويم المصرى القديم عندما أطلق المصريون أسماء آلهتهم على الشهور، وأقاموا الاحتفالات، فى كل شهر، للمعبود الذى يسمى الشهر باسمه، فى الهيكل المخصص لعبادته، وأسماء هذه الشهور كما جاء فى تقاويمهم هى:

١ـ **توت**: بالهيروغليفية «نهوب» إله الحكمة، وسماه المتأخرون إله العلم، وكانوا يحتفلون به فى جميع أنحاء القطر، لمدة أسبوع، ولايزال الأقباط يحتفلون به ويسمونه «عيد النيروز».

٢ـ **بابه**: بالهيروغليفية «بى ـ ثب ـ وت» وهو إله الزراعة حيث كانت الأرض تغطى بالمحاصيل الزراعية.

٣ـ **هاتور**: اسم الزهرة ـ إله الجمال؛ لأن المزروعات فى أثنائه تزين وجه الأرض.

٤ـ **كيهك**: بالهيروغليفية «كا ها كا» إله الخير أو الثور المقدس.

٥ـ **طوبه**: بالهيروغليفية «طوبيا» أى الأعلى، أو الأسمى، وكان يطلق على إله المطر، ومن اسمه اشتق اسم مدينة طيبة.

٦ ـ **امشير** : لم توضح الكتابات القديمة سبب تسميته .

٧ ـ **برمهات** : بالهيروغليفية «بامونت» إله الحرارة ، إذ تنضج فيه الزراعة بسبب ارتفاع درجة الحرارة .

٨ ـ **برموده** : بالهيروغليفية «باراحاموت» إله الموتى والفناء ؛ لأن فيه تنتهى المزروعات .

٩ ـ **بشنس**: بالهيروغليفية «باخنسو» أى إله الظلام ، لاعتقادهم أنه يساعد على إزالة الظلام ، ولهذا يكون النهار فى شهره أطول من الليل .

١٠ ـ **بؤونه** : بالهيروغليفية «با أونى» إله المعادن ، لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ولذلك يسمونه بؤونه الحجر .

١١ ـ **أبيب** : بالهيروغليفية «هوبا» أى فرح السماء ؛ لأن قدماء المصريين كانوا يفرحون فيه لزعمهم أن حورس إله الشمس انتقم فيه لأبيه أوزوريس أى النيل من عدوه إيفون أى التحاريق .

١٢ ـ **مسرى** : بالهيروغليفية « ميت رع » أى إله الشمس[١٠] .

ولم تختلف نظرة المصريين المعاصريين إلى هذه الشهور ، عن نظرة أسلافهم إليها ، بل صاغوا علاقتهم بها فى شكل أمثال شعبية ، سائرة بينهم ، خاصة الفلاحين ، لأنها ثابتة ، تتبع الشمس ، ومن ثم يمكن أن يرتبوا عليهم أوقات زراعتهم ، وحصد محاصيلهم ، ويتقوا مايصيب حقولهم ، وحيواناتهم ، فيقولون :

١ ـ **توت** : «الكتكوت ياكل ويموت» لملاحظتهم أن صغار الدجاج كثيراً ماتصاب بالأمراض فى هذا الشهر .

٢ ـ **بابه**: «ادخل واقفل البوابة» ، لأن المحاصيل تم تخزينها ، ومن ثم يخشى عليها من اللصوص ، كما يقولون «زرع بابه يغلب النهابه» أى اللصوص وذلك لكثرته ، ومن ثم مهما سرق اللصوص منه فسيبقى الكثير .

٣ ـ **هاتور** : «أبو الدهب منتور» (منثور) ويعنون بالذهب حبوب الذرة التى نضجت .



٤ ـ كياك : «صباحك مساك، تقوم من النوم تحضر عشاك»، ذلك أن النهار يكون فيه قصيراً جدا(١١).

٥ ـ طوبة : تخلى (تجعل) الصبية كركوبه (عجوزا)» لشدة برده، حتى أن الصبية/ الفتاة القوية، لاتنهض بما هو منتظر منها لشعورها بالبرد الشديد، فتبدو وكأنها عجوز غير قادرة على العمل، ويسمون



الريح الشديدة التى تأتى فى أواخر هذا الشهر «زفة أمشير».

٦ ـ أمشير : «أبو الزعابيب الكثير، يقول للزرع سير»، ولهم فى تفسيره أكثر من رأى، فهو شهر متقلب بين البرودة والحرارة وشدة الرياح، مما قد يؤدى إلى سقوط الثمار التى لم تنضج بعد، وهو فى رأى، آخر الشهر الذى تسخن فيه بطن الأرض فيسرع الزرع فى النمو.

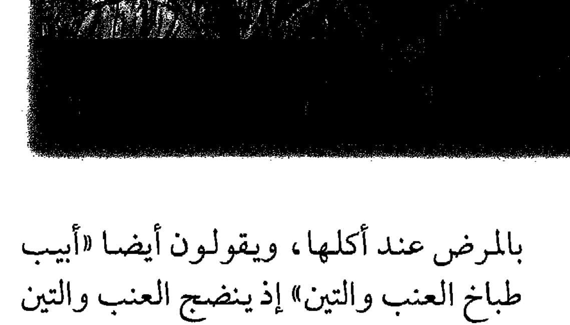
٧ ـ برمهات : «روح (أذهب) الغيط وهات»، ذلك أن المحاصيل تكون قد قاربت على النضج الكامل ومن ثم يمكن للفلاح أن يستفيد مما اكتمل نضجه.

٨ ـ برموده : «دقوا القمح (أو الشعير) بالعمودة، ولايبقى فى الغيط ولا عوده»، لأن القمح والشعير يكونان قد نضجا تماما، واستحقا الحصد.

٩ ـ بشنس: «يكنس (الغيط ـ البيت) كنس» لخلو الحقول من المزروعات، استعدادا لزراعة المحاصيل الجديدة، أو لخلو البيت من المخزون من المحاصيل القديمة، وانتظارا للمحصول الجديد الذى خلا الحقل منه.

١٠ ـ بؤونه : ويسمونه «بؤونه الحجر»، لأن الحرارة تشتد فيه جدا، حتى أنها تؤثر فى الحجر، أو يصبح ثقيلاً على النفس كثقل الحجر الضخم على حامله.

١١ ـ أبيب : «اللى يأكل ملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب» إذ يصعب التميز بين نبات الملوخية فى هذا الشهر، وغيرها من النباتات التى تشبهها، ومن ثم ربما اختلطت أعوادها بغيرها من النباتات الضارة التى تصيب الإنسان



بالمرض عند أكلها، ويقولون أيضا «أبيب طباخ العنب والتين» إذ ينضج العنب والتين فى هذا الشهر.

١٢ ـ مسرى: «فى مسرى تجرى كل ترعة عسرة» أى جافة لأن الفيضان يصل مصر خلال هذا الشهر، فتجرى المياه فى كل ترعة جافة أو قليلة الماء(١٢).

هذه التصورات المرتبطة بالزمان هى فى حقيقتها انعكاس لعلاقة الإنسان المصرى بالبيئة

والعمل، وترتبط بالتغيرات التى تحدث فيهما، واستجابته لهذه التغيرات، وتعبيره عنها. كما أن هناك تصورات مرتبطة بالزمان، لا ترتبط بالبيئة أو العمل، وإنما ترتبط بالدين، ومن ثم يعتمد المصرى فى إقامته للشعائر الدينية الأساسية على التقويم الهجرى. ويضاف إلى ذلك تصور ثالث للزمن، يعكس العلاقات داخل المجتمع الصغير، ويرتبط بالأحداث المهمة فى حياة الفرد والجماعة «قبل الثورة - بعد الثورة»، «يوم ماحصلت الحرب»، «بعد هوجة عرابى»، «قبل فتح المدارس»، «سنة أبويا ماراح يحج»، «دا حصل فى السنة اللى اتجوزت "تزوجت" فيها».. إلخ.

هذه الرؤية للزمن، لابد أن تنعكس بالضرورة على صياغة القيم المتعلقة به، وترتبط بالأحداث التى وقعت فيها، أو بمظاهر أو نوع العمل الذى يمارسه الإنسان، فتجعل الزمن دورة قصيرة لاتتجاوز حدود الحاجة إليها.

علاقات وقيم جديدة

ولقد طرأت تغيرات كثيرة على المجتمع المصرى الحديث، بتأثير عوامل عدة اقتصادية واجتماعية وسياسية، وثقافية. فمن الناحية الاقتصادية، تغيرت علاقة الإنسان المصرى بالأرض عدة مرات، خلال القرن التاسع عشر، ذلك أن الظروف التى مرت بها ملكية الأرض منذ عهد محمد على، كان من شأنها ألا تجعل المصرى يرتبط بالأرض كثيرا، فهى تارة تُنزَعُ منه ثم توزع بلا قاعدة، وتارة تترك له ليمتلكها ثم تُنزَعُ بعد ذلك.

وفى كل حالة، كانت ملكية الأرض عبئا ثقيلاً فى ظل نظام الملتزمين، حتى ان الدولة كانت تعرض ملكية أرض شاسعة على الناس، فلا يقبلونها، خوفا من الالتزامات الثقيلة التى ستترتب على هذه الملكية.

وما إن استقرت الأمور، مع نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، حتى بدأ موقف المصريين المحدثين، يتغير تجاه الأرض، ويعود الارتباط العاطفى القديم بالأرض حيا متوهجا. ولم يحدث تغير جذرى فى علاقة المصرى بالأرض، خلال هذا القرن، ذلك أن قوانين الاصلاح الزراعى، التى أصدرتها ثورة يوليو ١٩٥٢ وسَّعَتْ من دائرة الذين يملكون، بتحديدها الحد الأقصى للملكية، وتوزيعها مازاد عن هذا الحد، على الفلاحين الذين لم يكونوا يملكون شيئا. وبينما زاد عدد الذين يملكون، تغير مفهوم الملكية بتأثير التطور، الذى حدث فى المجتمع المصرى، خلال النصف الأول من هذا القرن، فلم يعد امتلاك الأرض هو المظهر الوحيد للملكية، ولم يعد العمل الزراعى هو أشرف الأعمال وأكثرها مدعاة للاحترام والتقدير، ومن ثم ارتفع عدد أصحاب المهن والحرف، وتغيرت نظرة المجتمع إليهم[١٣].

نماذج للتغير

ونماذج التغير فى المجتمع المصرى كثيرة، من الصعب أن تحصى، يمكن رؤيتها عن طريق المشاهدة، والمقارنة، بين ماكان وماهو كائن. كما أن التعرف على خصائص المجتمع يعد ناقصا مالم تدعمه دراسة لعقلية الناس، كما تظهر فى الأساطير، والأمثال، والحكايات، والأغانى الشعبية، وعادات المجتمع وتقاليده، ومعتقداته كما تبدو من خلال ممارستهم للحياة. وهناك دلائل كثيرة، تبين أن المجتمع المصرى الحديث قد مر، ومازال يمر، بتحولات أساسية، يمكن إجمالها: فى أن التأكيد القديم على المكانة المتوازنة للشخص والتى قد يستمدها من انتسابه إلى عائلة كبيرة، أومن كونه ذكراً أو أنثى، أو بسبب السن، ونوع العمل الذى يمارسه، هذه المكانة قد تتغير تدريجيا من حين إلى آخر.

كما فقدت العائلة القديمة أهميتها ومكانتها فى المجتمع الحضرى، وترك التغير من القروية إلى الحضرية كطريقة حياة، آثارا واضحة على حجم الأسرة، التى أصبحت تتكون دائماً من الأبوين وأولادهما، وتقوم على جهد الأبوين وحدهما، وقدرتهما على تحقيق مطالب الأسرة المادية والمعنوية، وهما المسئولان عن التنشئة الاجتماعية للأبناء، وعن سلوكهم وحياتهم الاجتماعية.

كما أصبحت علاقات القرابة شكلية فى مظهرها ذلك أن العائلة الكبيرة لم تعد هى وحدة الحياة الجمعية الاجتماعية والاقتصادية. وأُعليَتْ مكانة المرأة داخل البيت وخارجه. وتغيرت الأسس التى يقوم عليها الزواج، إذ أصبح مسألة شخصية بحتة، تهم الزوجين وحدهما. وأصبح الاهتمام واضحا بفترة الخطوبة كعملية اجتماعية، تهدف إلى التعارف والتقارب، وارتفعت سن الزواج، وتزايد أعداد الذين لم يتزوجوا، وتتغير كثير من العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج، فلم يعد الفلاح الذى يملك أرضا هو النموذج للزواج، وقد عبرت الأغنية الشعبية عن هذا التغير أيضاً:

المغنية: بتنادى لى ليه يامه والحليوه بره
ـ المرددات: بينادى لك أنتى وعايز يخطبك انتى
صنعته إيه يامه
ـ صنعته فلاح
إخيه.. إخيه
ـ جلابيته مقطعه
إخيه.. إخيه
ـ جزمته مرقعه
إخيه.. إخيه..
بتنادى لى ليه يامه والحليوه بره
ـ بتنادى لك انتى يا بنتى.. وعايز يخطبك أنتى
صنعته إيه يامه
ـ صنعته أفندى
الله.. الله
ـ جلابيته مزهره
الله.. الله
جزمته ملمعه
الله.. الله..
تلاتة خدامين يفرشوا له المندره.

وعلى ذلك لم تعد الأرض ـ أو العمل فيها ـ هى المقياس لعلو المركز الاجتماعى والثروة، كما لم يعد الانتساب لعائلة كبيرة ذات نفوذ معيارا للتفضيل بنفس القدر الذى كان هذا العامل يحتله من قبل.

ثوابت مستمرة

ولكن رغم تغيير بعض مكونات البناء الاجتماعى، وظهور أنماط سلوك جديدة، وأن اتجاه القيم والنظرة إلى الحياة، يتغير الآن من الجمعية إلى الفردية، وإبراز قيم الفرد فى مقابل الاتجاه القديم الذى كان يؤكد على أهمية القيم الجمعية، فلازالت هناك قيم عميقة الجذور، وعناصر يصعب التحلل منها، أو الخروج عليها بمكانة الأسرة وأهميتها.

لم تتغير العلاقات الاجتماعية بين الكبير والصغير، فالأبناء مطالبون بطاعة آبائهم، وهؤلاء مسئولون عن تربيتهم، و الإنفاق عليهم إلى حد التضحية وإنكار الذات، ويتوقع المجتمع من الزوجة احترام زوجها وطاعته، كما يتوقع من الزوج احترام زوجته وإشراكها فى كل مايتعلق بحياتهما وحياة أولادهما. ويتوقع المجتمع من الفرد، ألا تغلبه أنانيته وفرديته بحيث يتنكر لأبويه أو لأقاربه، فذلك مرفوض، وسلوك يدينه المجتمع ويوصف صاحبه بأنه «قليل الأصل»، «ناكر للجميل».

اتجاهات جديدة

كذلك كان من أهم مظاهر التغير فى المجتمع المصرى ظهور اتجاه إلى «تعقيل» الحياة، وتحرير العقل من قيود الاتباع والتقليد، ودفعه إلى الانطلاق فى حرية، فى مقابل اتجاهات سلفية كانت تتعارض مع حرية الفكر، وإعمال العقل. وقد هز الاتجاه الأول، الذى دعا إلى إعمال العقل، المجتمع من جذوره، وغيَّر كثيرا من الأفكار والنظرات، التى كانت سائدة خلال القرون السابقة، وظلت مؤثرة حتى بدايات هذا القرن، وأصبحت أفكار المجددين ونظراتُهم، مثار نقاش وجدل مُفْعَم بالحياة، مما أوجد قدرا كبيرا من الحيوية، فى مختلف أوجه الحياة فى مصر، سواء على الصعيد السياسى والاقتصادى، أو على الصعيد الاجتماعى والثقافى.

لقد أثر عالم مابعد الحرب العالمية الأولى، على المجتمع المصرى، كما أثرت الحركات الوطنية، فى زيادة الوعى. كما أن الأزمة الاقتصادية العالمية، فى أوائل الثلاثينيات وماأعقبها من انكماش اقتصادى، بعد فترة الرواج التى أعقبت الحرب الأولى، وماترتب على ذلك كله من نتائج أثرت على اقتصاديات البلاد التى تعتمد أساسا على الزراعة. وكان للحرب العالمية الثانية، أيضا تأثيرات ضخمة على المجتمع اقتصاديا، واجتماعيا وثقافيا. لقد شهدت الثلاثينيات والأربعينيات تغيرات مهمة، منها على المستوى الاقتصادى إنشاء بنوك التسليف، وبنك مصر، والجمعيات التعاونية فى الريف، كما شهدت على المستوى الاجتماعى القوانين الإصلاحية فى التعليم، والصحة، وشهدت الخمسينيات ثورة يوليو ١٩٥٢ وانهيار النظام الملكى، وقوانين الإصلاح الزراعى والاتجاه إلى تمصير الاقتصاد، وأعقب ذلك فى الستينيات قوانين التأميم، ثم ماحدث فى السبعينيات، من اتجاه إلى الانفتاح الاقتصادى والسياسى.



فئات مختلفة من المجتمع تمثل اتجاهات جديدة

مؤثرات جديدة

ومما لاشك فيه أن سرعة التغير فى المجتمع المصرى، على كل المستويات، أخذت تسير بعجلة متزايدة السرعة، خلال العقود الأخيرة، نتيجة انتشار التعليم، وثورة الاتصالات، والهجرة إلى الخارج للعمل، وغير ذلك من عوامل مما أدى إلى أن يأخذ المجتمع بكثير من

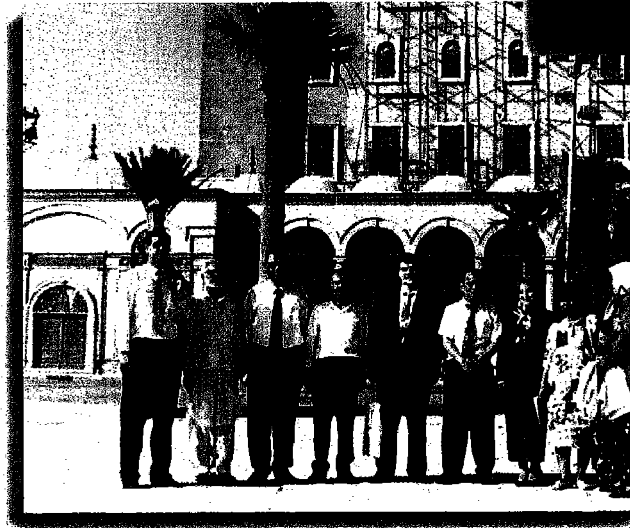
نماذج من المجتمع المصرى المثقف

مظاهر التجديد، والتحديث فى الفكر، والسلوك التى أثرت فى مختلف أوجه الحياة فى مصر.

لكن الملاحظ أيضا أن هذه الأنماط الجديدة من أساليب التفكير والسلوك، توجد جنبا إلى جنب مع أساليب تقليدية، وعادات مأثورة، مازالت مؤثرة فى رؤية الفرد، والجماعة للحياة عامة، ولأسلوب مواجهتها خاصة، وقد ينتج عن هذا التجاور أحيانا، صراع بين القديم والجديد، كما قد ينتج عنه أيضا نوع من التوافق بينهما ربما إلى حين، فالعمل على سبيل المثال «عبادة»، و«الإيد البطالة نجسة» و«الإيد التعبانه شبعانه» وهكذا مما يشيع فى الأمثال الشعبية، ويزيد من تدعيمه القيم الحديثة التى تربط بين العمل وتحقيق إنسانية الإنسان، وإكسابه المكانة الاجتماعية التى تعود إلى العمل - لا النسب أو الأسرة أو الثروة - السبب فى الوصول إليها.

ولكننا سنجد إلى جانب ذلك - فيما يرتبط بالعمل كقيمة إنسانية، أن «السعد وعد»، وأن «قيراط حظ ولا فدان شطاره» و«تجرى ياابن آدم جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش» وأن «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»، وهذا مما يدعم الاتجاه إلى التواكل والرضا بما هو قائم، لأنه «مكتوب» ولأن تحقيق السعادة ليس عملا دؤوبا يسعى الإنسان من خلاله، إلى أن يُسعدَ نفسه، وأن يسعد غيره، وإنما السعادة «وَعد» مقدر.. لاحيلة للإنسان فيه، وشأن الرزق شأن الموت، لايستطيع الإنسان إزاءهما شيئا.

وعلى الصعيد الاقتصادى، نجد أيضا مَنْ يتحمسون للرأسمالية وعلاقاتها، ومن يتحمسون للاشتراكية ومبادئها، وهناك من يرى أنه لا الرأسمالية ولا الاشتراكية



نماذج من المتعلمين والمثقفين

تستطيعان حل المشكلات الاقتصادية، التى عانى منها المجتمع، ويقدمون طريقاً آخر للحل فيما يسمى بالاقتصاد الإسلامى، كجزء من حل يتمثل فى شعار، يرفعونه ملخصا لوجهة نظرهم وهى أن «الإسلام هو الحل» أى أنه الحل لكل المشكلات التى يعانى المجتمع منها على أى مستوى، وفى أى مجال من مجالات الحياة.

اتجاهات متصارعة

على أية حال، هناك اتجاهان رئيسيان يتصارعان، أولهما يتهم الثانى بأنه لايطبق الإسلام، من منظور أن الإسلام دين ودولة، ويرى الثانى أن أصحاب الاتجاه الأول يستخدمون الدين تحقيقا لأهداف سياسية لا علاقة لها بالإسلام، ويعوقون بما يطرحونه من شعارات، اتجاه المجتمع إلى التحديث والتقدم واللحاق بالعالم المتقدم، وتدارك ماكان من أسباب التخلف والقصور نتيجة الظروف التى مرت بها مصر، منذ بداية هذا القرن، من كفاح من أجل الاستقلال، وحروب، وعدم استقرار، مما أبطأ إلى حد كبير من سعى المجتمع المصرى إلى تحقيق التنمية المنشودة وبناء المجتمع العصرى.

ويكشف تحليل الظواهر الاجتماعية والثقافية، التى سادت خلال العقود الثلاثة، الأخيرة «١٩٦٠ - ١٩٩٠» عن كثير من مظاهر الحيرة والشك، بين أعضاء المجتمع عامة والشباب خاصة حول أصلح الطرق وأنسبها، فهناك حيرة بين المذاهب والنظريات الاقتصادية والسياسية، والمذاهب الاجتماعية سواء أكانت تدعى أنها تسير وفق النظام الذى أراده الله للإنسان، أم كانت تبحث عن حلول معاصرة معتمدة على العلم والاستفادة من تجارب مجتمعات أخرى، سبقت فى طريق النهضة، وتحقيق مستوى معيشة مرتفع لأبنائها. وهذه الحيرة والشك، تعكس الصراع القائم بين القيم الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، كما تكشف عن وجود فجوة هائلة، بين الداعين إلى التحديث والتنوير وتعقيل الحياة، وبين الداعين إلى العودة إلى المنابع الأولى للدين، باعتبارها الطريق الوحيد للخلاص!

ويموج المجتمع المصرى الآن بكثير من التيارات والاتجاهات، فقد كشفت دراسات ميدانية أجريت على اتجاهات طلاب الجامعة فيما يتعلق برؤاهم لبعض المجالات، وموقفهم منها، خاصة مجالات التعليم والسياسة والعمل[١٤] أن جيل الشباب أكثر تقدمية من جيل الآباء وأن البنات أكثر تحررا من الأمهات فيما يتعلق بالاتجاهات نحو المساواة فى العمل والتعليم.

وأظهرت البيانات المتاحة أن الشباب أكثر ميلا إلى العمل الحر، فلم يعد المثل الشعبى «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» مقبولا عند الشباب كما كان مقبولا عند جيل الآباء، ولكنهم مع هذا يقفون مترددين بين التمرد على القيم القديمة التى تعلى من شأن التراث بكل جوانبه، وتقدس الماضى، وتحاول البحث فيه عن حلول لمشاكل معاصرة، أو مستقبلية، وبين القيم الجديدة التى أنتجتها المدنية الحالية، وتحاول من خلالها التأكيد على قيمة العلم والعقل.

ولاتزال هناك - على سبيل المثال - رواسب تتعلق بمكانة الرجل والمرأة، فهناك من يرى أن يقتصر عمل المرأة على مهن بعينها، إلى جانب من يرون أن تمارس المرأة العمل الذى تختاره وترتضيه، دون قسر أو قهر، شأنها فى ذلك شأن الرجل سواء بسواء.

وضع المرأة

ومهما يكن من أمر ذلك الاتجاه الذى أخذ ينمو مؤخرا، والذى يحاول التأكيد على تبعية المرأة للرجل تبعية كاملة، إلا أن واقع الأمر أن المرأة لم تعد لعبة يتسلى بها الرجل، أو مجرد أداة للإنجاب، ذلك أنها أصبحت تشارك فى كل مجالات الحياة والعمل تقريبا، وتتقاضى نفس الأجر كالرجل، ولم تعد الفتاة تُمنَعُ من إكمال تعليمها مادامت قادرة على الاستمرار فيه.

وتكشف البيانات الإحصائية عن انخفاض نسبة الأمية بين الأعمار الصغيرة من الإناث، كما ارتفعت نسبة الفتيات فى التعليم الجامعى

المرأة المصرية قديما

خلال الخمسين سنةً الماضية من ٤ , ٠٪ لتصل إلى حوالى ٣٥٪ من نسبة طلاب الجامعات.

وكما زادت نسبة الفتيات فى مراحل التعليم المختلفة، زادت نسبة مشاركة النساء فى العمل خارج البيت، وتقهقرت مكانة العمل الزراعى، وهو مجال العمل الرئيسى الذى كُنَّ يمارسنه - وخاصة القرويات - ليحل محله أنواع أخرى من الأعمال التى بدأت تسهم فيها المرأة بدور ملحوظ، وقد أدى هذا بالضرورة إلى عدة آثار اجتماعية مهمة، منها أنها استشعرت قدرا أكبر من الحرية، وزادت مشاركتها فى اتخاذ القرارات المتعلقة بشئون الأسرة اجتماعيا واقتصاديا، بل إنها فى بعض الأحيان أصبحت هى المسئولة عن شئون أسرتها من جميع النواحى، عند وفاة الزوج، أو سفره للعمل خارج البلاد.

ولقد كان لهذا التغير فى النظر إلى عمل المرأة، وإلى ممارستها للعمل ذاته، آثاره التى أبرزتها إحدى الدراسات عن صورة المرأة(١٥) من أن النساء العاملات بدأن يعانين من صراع بين القيم التقليدية التى تعلمنها فى طفولتهن وصباهن من ضرورة التسليم بسلطة الرجل وطاعته، وبين القيم الجديدة التى تؤكد على المساواة، وحرية اتخاذ القرار، والاختيار، مما اكتسبنه فى شبابهن بتأثير التعليم، والخروج للعمل. لكن الذى لاشك فيه أن القيم التى تمثلها الأمثال الشعبية، والتى تؤكد على «ضل راجل، ولا ضل حيط»، وأن الرجل بالنسبة لها «حارس أثناء الليل، وأجير يعمل عندها أثناء النهار»، كما فى المثل «خدى لك راجل، بالليل غفير، وبالنهار أجير» قد أخذت فى الانحسار إلى حد كبير.

ولقد صورت سهير القلماوى فى «أحاديث جدتى» مدى التغير الاجتماعى الذى حدث فى عالم المرأة، ذلك التغير الذى يعكس التغير فى مكونات شخصيات الجيلين فكتبت «فتاة اليوم تعرف عن الحياة مالم تعرفه فتاة الأمس ولذلك كانت آراؤها تختلف، ونظراتها تختلف، وأعمالها تختلف والسعادة التى كانت تقنع بها فتاة الأمس تراها فتاة اليوم سعادة زائفة لاتستحق تقديرا(١٦).

وأصبحت الفتاة تقرأ وتفكر وتعرف مالم تعرفه الأمهات والجدات. كنتيجة حتمية لاتساع عالم المرأة بتأثير التعليم خاصة، لقد كان تعليم الفتاة مقصورا على الأشغال اليدوية، وإكسابها المهارة فى الشئون المنزلية، بشكل رئيسى، وحتى عندما قَبلَ المجتمع فى مرحلة تالية أن تذهب إلى المدرَسة، فقد كان ذلك لفترة محدودة، تستطيع فيها «فك الخط» أو تعلم القراءة والكتابة، ولكن الأمر اختلف الآن فلقد نال التعليم - سواء بالنسبة للفتى أو الفتاة - اهتماما أكبر، وأصبح طريقا للارتقاء، بمستوى الأبناء، ولم يعد هناك من يجادل فى أهمية التعليم أو الفرق بين تعليم الفتى وتعليم الفتاة، وهو ماانعكس على دفْعه الدولة إلى الاهتمام بتدبير الأماكن بمراحل التعليم المختلفة لأبناء الشعب تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص خاصة بعدما أصبح التعليم العام بالمجان، لقد أدى الاهتمام بالتعليم إلى تحول الناس من العمل بالزراعة ومايرتبط بها من قيم إلى العمل فى الوظائف الإدارية والفنية، مما أدى إلى تغيرات واضحة على توزيع المهن فى فترة زمنية محدودة، وهذا التغير فى النسق المهنى، نتج عنه تغير فى نسق القيم والأفكار والسلوك.

تأثير التعليم

وإذا كان التعليم فى مجتمعنا قد أدى إلى انخفاض معدلات الأمية ورفض الجهل، فإن أهم الآثار المترتبة على التعليم فى مجتمعنا هى الحراك الاجتماعى؛ فالأمى أصبح يطمح فى تعليم أولاده وييسره لهم ولو على حساب قوت يومه، وهناك نماذج وأمثلةٌ كثيرةٌ لأسر باعت ماتملكه من أجل توفير فرص التعليم للأبناء، خاصة فى الريف، وإيمانا بأن تعليم الأبناء ثروة لاتعادلها ثروة أخرى، فاكتناز المال أو الأرض لايصنع رجالاً، وإنما الرجال هم الذين يأتون بالمال ومن ثم الأرض. «الرجاله (الرجال) تجيب الفلوس، وعمر الفلوس ماتجيب راجل» كما أن «التعليم فى كل زمن له قيمة وتمن (ثمن)» و«العلم نور» وكان من النتائج التى ترتبت على انتشار التعليم، وخروج المرأة للعمل، وارتقاء مكانتها نسبيا، أن تغير كثير من المفاهيم الخاصة بالزواج والعائلة، فبعد أن كان الزواج أمرا يخص العائلة أكثر مما يخص الفرد، والاهتمام به راجع إلى الرغبة فى الإكثار من الأيدى العاملة، وزيادة حجم العائلة، ومايحققه كل ذلك من أهداف اجتماعية واقتصادية. أصبح الآن أمرا يخضع لرغبة الفرد أكثر مما يخضع لرغبة العائلة.

وأدى هذا بالضرورة إلى أن تصبح حرية الاختيار قاعدة مرعية، وازداد الاتجاه إلى الزواج من خارج العائلة أو دائرة القرابة، واختلفت مقاييس ومعايير الاختيار، وأصبح الوضع الاقتصادى للفرد من أهم العوامل التى تحكم الاختيار، وتقهقر المركز الاجتماعى قليلاً وتغيرت أيضا النظرة إلى كثرة الإنجاب، بناء على ذلك وعلى عوامل أخرى ترتبط بتغير كثير من العلاقات خاصة العلاقة بالأرض، وكثير من الأفكار خاصة مايرتبط ب- «العزوة»، والنظرة إلى دور الأبناء.. إلخ.

ولقد بينت الدراسات الميدانية، أن هناك اتجاها يتزايد باستمرار يؤكد أهمية تنظيم عملية الإنجاب، بيد أن هذه الاتجاه ليس عاما. بل تتباين درجة تقبل الأسرة بين العاملات وغير العاملات. فالمرأة العاملة أكثر استخداما لوسائل منع الحمل من المرأة غير العاملة.

كما أن عملية اتخاذ قرار تنظيم النسل بين أسر النساء العاملات عملية مشتركة بين الزوجين وغالبا ماتكتفى المرأة العاملة بطفلين أو ثلاثة أطفال، على خلاف النساء غير العاملات اللاتى يبدأن تنظيم الإنجاب بعد الطفل الثالث أو الرابع. ولقد أشارت دراسات عديدة إلى أن القيم المرتبطة بالزواج تختلف فى المدينة عن الريف، فالريفيون - مازالوا إلى حد كبير - يفضلون الزواج المبكر نظرا للظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تفرض ذلك.

كما اختلفت النظرة إلى الأبناء وإلى قيمتهم ومكانتهم ووظيفتهم فى الأسرة، فبعد ماكانوا مصدر دخل الأسرة، أصبحوا عبئا على الوالدين يتحتم إعالتهم، من ثم فكلما قل عددهم كان ذلك أفضل.

كما تغيرت مكانة الزوجة من مصدر الإنجاب إلى مُعين، ومساعد اقتصادى لزوجها، بعدماَ زادت التطلعات إلى تحسين مستوى المعيشة.

ولقد أثرت الحضرية كطريقة حياة على تغير السلوك الإنجابى والصفات المرتبطة بالزواج، فتَقَبُّلُ قيم تنظيم الأسرة والقيم الفردية المرتبطة بالزواج يبدو أكثر وضوحا وتأثيرا بين أهل المدن منه بين الريفيين(١٧).

الفئات والطبقات

يجمع الباحثون على اختلاف اتجاهاتهم وميادين دراساتهم على أن الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن الثامن عشر «١٧٩٨م» كانت إيذانا ببداية مجموعة من التغيرات العميقة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. ذلك أنها أصابت مصر والمصريين بصدمة عنيفة هزت أركان المجتمع التقليدى من ناحية، ووجهت أنظار العالم الخارجي - خاصة أوروبا - إلى مصر من ناحية أخرى، وهو ماشكل كثيراً من مجريات الأمور فى مصر بعد ذلك.

لقد أيقظ الغزو الفرنسى المصريين من سُباتهم، وفتح أعينهم على هويتهم، وكان لإنشَاء المجمع العلمى المصرى «١٧٩٩» واكتشاف حجر رشيد الذى أتاح للمصريين أن يميطوا اللثام عن حضارتهم العريقة، وأن يفهموا رموزها، ويحللوا ألغازها، أكبرُ الأثر فى أنهم بدأوا فى التعرف على أنفسهم واكتشاف ذاتهم.

ولايعنى هذا بالطبع أن ما نبَّهَ مجىء الفرنسيين المصريين إليه من ضرورة تحديث مصر - وهو ماخطا فيه محمد على عندما تولى الحكم «١٨٠٥» خطوات هائلة، ثم محاولة الخديو اسماعيل «١٨٦٣م» السير قُدما فى هذا الاتجاه - قد غير المجتمع المصرى تغييرا جذريا ليصبح كالمجتمع الفرنسى أو الإنجليزى ذلك أن ظروف مصر داخليا، وطبيعة القوى العالمية المحيطة بها أو الطامعة فيها، قد حددت إلى حد بعيد إطار التحديث ومساره.

لقد كان المجتمع المصرى وقت غزو الفرنسيين لمصر، ووفقا لما ذكره علماء الحملة الفرنسية والرحالون الذين جاءوا إلى مصر خلال القرن التاسع عشر، مكونا من عدة فئات أو طوائف أو طبقات يمكن تصنيفها على النحو التالى[١٨]:

١ـ الاتراك:

كانت هذه الفئة هى قمة الهرم الاجتماعى، كما كانت هى الطبقة الحاكمة، ويرجع تاريخها إلى أيام الفتح العثمانى، ومنها كانت الفرق العسكرية المختلفة، وتمثل هذه السلالة الطبقة الارستقراطية فى البلاد، رغم أصولهم الاجتماعية المتواضعة، وكانوا يتمتعون بالإعفاء من الفردة ومن الضرائب، ولهم كل الحقوق، فلم يُسمَعْ عن ضرب أو معاقبة أحد من الأتراك بالعصى أو وضعه على الخازوق، فحتى فى العقوبات كانت هناك تفرقة بين التركى والمصرى، فالأول يشنق إذا ارتكب جرما أما الثانى فمكانه الخازوق. وكانت أعداد الأتراك كبيرة، ولايشاهدون إلا فى المدن، والإدارات الحكومية، ويمكن تمييزهم من ملابسهم الفخمة المختلفة عن ملابس المصريين المتواضعة، وهم يقضون أوقاتهم فى شرب القهوة والتدخين والتجول فوق خيولهم المغطاة بالسجاجيد الفاخرة وحولهم العبيد يصرخون فى المارة لإفساح الطريق لهم «اوعى رجلك»، «حاسب»، «ظهرك».

كما أُعتُبرَ الأرناءوط أو الألبان من الطبقات العليا فى البلاد، وينتمى محمد على لهذه الطبقة إذ كان رئيسا للأرناءوط، وقد فسر البعض تناقص أعداد هذه الفئة بسبب اشتراكهم فى الحرب الوهابية خاصة أن «محمد على» أراد إقامة جيش على النظام الجديد، فأحل السودانيين ثم المصريين محل الجنود الأرنأوط، وقد وصف الأرناءوط «الألبان» بأنهم كانوا موجودين فى القرى، ولهم شوارب طويلة ويرتدون أحزمة عريضة مرصعة بالمسدسات وخناجر منقوشة، ويبدو للناظر إليهم وكأنهم ترسانة متنقلة من الأسلحة، وكان الأرناءوط فرقا غير نظامية وقد أثاروا الاضطرابات فى البلاد، وكثرت شكاوى السكان منهم، ولذلك تخلص منهم محمد على بإرسال أعداد كبيرة منهم إلى الجزيرة العربية وإلى سنار وكردفان «لكى يلتهمهم مناخ سنار» فقضى عليهم مناخ البحر الأحمر.

ويتفق ماذكره الرحالة عما أحدثته هذه الفرقة من النهب والاعتداء على الأسواق مع ماذكره الجبرتى عنها وعن حوادث الشغب التى ارتكبوها.

٢ ـ المماليك :

ظلت هذه الفئة مميزة حتى عام ١٨١١ عندما حدثت مذبحة القلعة وتخلص منها محمد على ولذلك نلاحظ قلة الكتابات عن هذه الفئة باستثناء حادثة المذبحة. وتركزت الكتابات عن مراد بك وإبراهيم بك والألفى بك خاصة فى السنوات الأولى من حكم محمد على بعكس ما ذكر فى القرن السابق أى فى القرن الثامن عشر حيث أفاض الرحالون فى الحديث عن هذه الطبقة وأصولها الاجتماعية فقد كانت هى الطبقة الحاكمة بالفعل خاصة بعد ضعف وتقلص سلطة الباشا العثمانى، وقد وصفهم معظم رُحالى القرن الثامن عشر «بالطغيان والتعسف».

٣ ـ كبار الملاك والتجار :

وهم فئة قليلة العدد كانت تضم كبار الملاك والتجار، وصغارهم من ذوى الثروات المحدودة، وقد رفع من شأن هذه الفئة ما اجتازته مصر خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر من أزمات أدت إلى أن يعهد الوالى إلى كبار هذه الطبقة ببعض المراكز القيادية، خاصة فى الحرس الوطنى الذى أنشأه محمد على فى مدن الوجه البحرى.

٤ ـ الحرفيون والعمال :

وهم فئة ذات طوائف عديدة كالحدادين والنجارين والنحاسين وغيرهم من أصحاب الحرف والصنائع. وكانت كل طائفة تتولى إدارة شئونها بنفسها تبعاً لنوع الحرفة التى تمتهنها، ولها أعرافها ونظمها وتقاليدها الخاصة، ورؤساؤها الذين يديرون أمورها، وينظمون علاقاتها، ويطلق على كل منهم شيخ الحرفة أو الصنعة «شيخ الحدادين - شيخ النجارين.. إلخ».

٥ ـ العلماء :

ويقصد بهم هنا رجال الدين الذين نالوا حظا من التعليم فى الأزهر خاصة، وكانوا يشكلون فئة قوية تتمتع بنفوذ كبير متوارث، وتأثيرها هائل على الناس، دينيا وسياسيا، ومن ثم اكتسبت مكانة عالية فى المجتمع، نتيجة هذا التأثير، ولما كانت تمتلكه العائلات التى ينتمون إليها من أملاك واسعة، وهو ماجعل «محمد على» يعمل على تجريدهم من هذه الأملاك، حتى يَحدَّ من تأثيرهم ويسلبهم نفوذهم وسلطتهم. وقد قابل الرحالة الأجانب مجموعة كبيرة من العلماء، فأثنوا عليهم الرحالون وسجلوا بأنهم كانوا وسيلة الاتصال بين محمد على والشعب. وأكدوا بأن علماء الأزهر لايقودون مصر فحسب وإنما لهم دور

واضح ومتميز فى العالم الإسلامى كله . وجاء ذكر أسماء بعض من العلماء مقترنا بالاحترام والتقدير خاصة «الشيخ عمر مكرم» و«الشيخ سليمان الفيومى» و«الشيخ العروسى» و«الشيخ السادات»، و«الشيخ الشرقاوى» و«الشيخ البكرى» و«عبدالرحمن الجبرتى» ويتفق ماذكره رحالو القرن التاسع عشر مع ماذكره الرحالون فى القرن الثامن عشر عن العلماء ودورهم ومكانتهم .

٦ ـ الفلاحون :

اهتم المؤرخون والرحالون الأجانب الذين عاشوا فى مصر خلال القرن التاسع عشر بالفلاحين المصريين اهتماما كبيرا ، ووصفوا الفلاح المصرى بأنه طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع ، تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتان فى محجريهما ، والمرتفعتان بعض الشىء نحو الجبين ، وأنه غليظ الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة . أما فلاحو الدلتا فأنْصَعُ بشرةً بكثير . كما وُصفتْ ملابس الفلاح بأنها بسيطة ، تتكون من قَميص وسروال من الكتان عليها قميص أزرق واسع وحول خصره حزام من الجلد أو القماش ويرتدى على رأسه طاقية أو طربوشا يعرف باللبدة ، وفى الشتاء يرتدى عباءة واسعة تسمى «الزعبوط» وهو يعيش فى مساكن من الطين منخفضة مظلمة ، ولايمتلك سوى حجرة - أو حجرتين - تؤويه مع أولاده وزوجته ، وأحياناً الحيوانات التى يستخدمها أيضا .

لقد تحدث الرحالون عن حال الفلاحين كما شاهدوهم آنذاك ، ونشعر من كتاباتهم بالحزن والأسى على أحوال هؤلاء البؤساء الذين كانوا يعانون من كثرة الضرائب ويقاسون من السخرة التى كانت تستمر لمدة شهرين أو أكثر ،

والسخرة تعبير كان يطلق على نوعين من العمل : تسخير الأهالى من غير أجر فى المصالح العامة كحفر الترع وحراسة الجسور ، خصوصا أيام الفيضان ، من طغيان ماء النيل ، وتسخير الأهالى فى أراضى كبار الملاك ، كأن يؤخذ الفلاح ومحراثه ومواشيه لحرث أرض الغنى بلا مقابل ، كما تؤخذ امرأته لتساعد فى بيته ، وتؤخذ حمارته ليُحْمَل عليها التبن والعليق لمواشى الغنى ، ويؤخذ ابنه ليقف على المحراث ، وتؤخذ ابنته لتساعد أمها فى تجهيز الطعام . . إلخ .

ولهذا يهرب الفلاحون من أجل هذه السخرة ، وسموا سنة من السنين كثر فيها هذا الظلم فى التسخير بسنة «الطفنة» فكانوا يؤرخون بها . وكان من أنواع السخرة والمظالم ما ارتبط بالملح ، فقد كانت الحكومة تحتكره وتفرضه على القرى وإذا لم يأخذ رجل ملحه اتُّهم بأنه يستعمل الملح الخارج عن احتكار الحكومة ، وهى تهمة فظيعة ذات عقاب صارم ، وكان من جراء ذلك أن فر كثير من الناس من بلادهم ، وتركوا أوطانهم هربا من الضرائب المتوالية ، رسمية كانت أو غير رسمية ، أو هربا من السخرة والظلم . . ووصل بهم الأمر إلى أن يتظاهروا بالفقر ، فيرتدون الثياب القديمة ويسيرون على أقدامهم بدل الركوب خوفا من أن تلمح الحكومة فيهم الغنى فتثقل عليهم الضرائب . وقد أبطل رياض باشا أيام كان رئيساً للوزارة فى عهد توفيق باشا السخرة بأنواعها ، وعاقب من سخر الناس فى مزارعه ، ولو فى مزرعة الخديو ، ولذلك كرهه الأغنياء ونقموا عليه ، واتهموه بأنه أفسد الفلاحين .

يذكر المؤرخون والرحالون أن الفلاحين كانوا يعاملون معاملة أشبه بمعاملة العبيد ، ويكلَّفون بأكثر الأعمال مشقة كحفر الترع والقنوات ، وإذا مااحتاج محمد على إلى جنود



الفلاح المصرى

فكثيرا ماتتوقف جماعة من الألبان فى إحدى القرى وتقوم بالإغارة عليها والقبض على العدد المطلوب من الفلاحين، ثم تُوثَق أيديهم ويتم إبعادهم عن أهلهم. ولذلك حاول الفلاحون الفرار من التجنيد بقطع أصابعهم وإحداث عاهات بأجسادهم، وذكر بعض الرحالين أنهم لم يروا منظرا أكثر بؤسا من قيام الفلاح بحفر القنوات بيديه، فالرجال يجمعون الطين بأيديهم، ويمكثون اليوم بأكمله فى الماء بينما يقوم الحراس بضربهم بالسياط، وينام الجميع على ضفاف القناة وفى الحقول وعلى الأرض وغذاؤهم الرئيسى من الذرة.

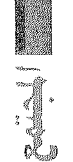
وذكر شامبيليون أنه أثناء رحلته فى مصر «كان الفلاحون الفقراء شبه العرايا يفرون لمرآنا مثل قطيع من الغزلان، لاعتقادهم فى بادئ الأمر أننا من جباة الضرائب، ولكن سرعان مايأتون إلينا عندما يدركون أننا قوم مسالمون»

وقد تأثر شامبيليون من بؤس ومعاناة الفلاح فكتب، إن «محمد على» كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين، كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة ولذلك فهو لايتورع عن حلبها وإنهاكها ليلاً ونهارا[١٩].

وعندما فر الفلاحون إلى سورية بسبب عجزهم عن دفع الضرائب، وضع محمد على عقوبات صارمة وخصص للبدو مبلغ ٦٥,٠٠٠ فرنك سنوياً لمراقبة الطرق وإلقاء القبض على الفارين، وفى عهده هجرت قرى بأكملها وأصبحت خاوية وتناقص عدد السكان بصورة واضحة، وقد شاهد فلوبير أسراً مصرية بأكملها تسكن فى سراديب المقابر ومعها أطفالها العراة فرارا من الضرائب، وقد اتخذ البعض منهم من أخشاب التوابيت المنقوشة أبوابا لمأواهم[٢٠].

وقد ظل حال الغالبية العظمى من الفلاحين





القرية المصرية

على هذا النحو تقريبا حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو مادفع الثوار إلى إصدار قانون الإصلاح الزراعى فى سبتمبر من نفس العام، والذى حدد الملكية الزراعية للأفراد والأسر، ونزع مازاد عن هذا الحد، وتم توزيع ماتم نزعه من أراضى كبار الملاك على الفلاحين المعدمين، كما طبقت الحراسة كإجراء قانونى بين عامى ١٩٦١، و١٩٦٦ على ٤٠٠ أسرة أجنبية ومصرية وسلم للإصلاح الزراعى من الأراضى التى تناولتها الحراسة حوالى ١٠٠ ألف فدان[٢١].

٧ـ الأعراب «البدو»:

وهم فئة من البدو الذين يعيشون على تخوم الأرض الزراعية فى مصر، وخاصة التخوم الغربية، من الإسكندرية حتى الصعيد الأعلى، والبعض منهم يعيش على الجانب الشرقى للدلتا. وقد ذكر الذين وصفوا حياة المصريين خلال القرن التاسع عَشَرَ شيئا عن هؤلاء الأعراب، والقبائل التى ينتمون إليها، من أنهم يعيشون حياة أفضل من حياة الفلاحين، فهم يمتلكون أعدادا كبيرة من الجمال والحيوانات وأن قبائل مصر تشبه قبائل فلسطين، فلهم نفس العادات والتقاليد، وهم يعشقون الحرية، ولايشربون الدخان وأنهم مغرمون بالصيد ويرتحلون فى الصحراء وراء العشب والماء، وغذاؤهم الرئيسى من البلح. وهم يفخرون بأنهم بدو وليسوا فلاحين، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى الفلاحين باعتبارهم أقل شأنا ومرتبة منهم، مما انعكس على علاقتهم بهم فى شتى مظاهر الحياة، فعلى سبيل المثال لايمكن أن يُسمَحَ لبدوية بالزواج من فلاح، وإلا نبذتها القبيلة. وإذا حدث ووافقت القبيلة على هذه الزيجة، وهو نادرا مايحدث فينبغى علي الفلاح المسكين دفعُ كل مايملك لإرضاء القبيلة.

وتفخر القبائل بأنسابها، ولديهم عزة نفس ويسكنون الخيام، وهى تُصنَعُ من الأوبار السوداء أو السمراء أو من جلود الماعز، وتمتاز خيمة الرئيس ببياضها، ويقسمون الخيام عادة إلى قسمين، قسم للنساء وقسم للرجال، ويسمى العرب الذين يعيشون فى العراء عرب





إمرءة بدوية

الخيش، ويفخرون بأنهم أولاد إسماعيل، أما العرب الذين تركوا الصحراء وسكنوا المدن فيطلقون عليهم عرب الجيط، وقد حاول محمد على إخضاع القبائل وإجبارهم على التوطين وتملك الأراضى وذلك لكى تتخلص مصر من إغاراتهم وماتحدثه من اضطرابات فى البلاد. فأجبرهم على العمل، كما كلف بعض القبائل بمراقبة الطرق والحفاظ على الأمن ولكن ذلك «لم يكن أمرا هينا فقد كلف الباشا عدة سنوات من العمل الجاد».

كذلك حرص خلفاء محمد على على إخضاع البدو، والقضاء على الاضطرابات التى كانوا يثيرونها فقد أجبر سعيد باشا قبائل الصعيد على دفع الميرى عن الأراضى التى يزرعونها وكان محمد على قد أعفاهم منها لقاء خدمات أدوها له أثناء حرب الشام فلما امتنعوا عن الدفع أرسل سعيد فرقاً من الجيش هزمتهم فأذعن شيوخهم بشرط أن يؤمنهم الباشا على حياتهم، ولكنه رفض وأمر بإعدامهم، وتم ربْطُ عدد من رؤساء القبائل الثائرة فى فوهات المدافع وحكم على الباقين بالأشغال الشاقة.

ومن أشهر القبائل التى مازالت تعيش فى مصر الهوارة ُوالعبابدة والهنادى والهدندوة فى الوجه القبلى والمعازة فى مصر الوسطى والطرابين وأولاد على والقطاوية فى الوجه البحرى. ولقد ظلت العلاقة بين البدو والفلاحين يشوبها قدر كبير من سوء الظن والتوتر الذى انعكس فى الأمثال الشعبية المصرية من مثل «من عرف العرباوى بابه ياعذابه» و«ظلم الترك ولا عدل العرب» ذلك أن مالاقاه الفلاحون على يد البدو كان فى نظرهم أسوأ مما تعرضوا له على يد الأتراك. وكانت الأراضى الزراعية التى تجاور مناطق معيشة البدو رخيصة الثمن والإيجار لأن البدو كانوا ينهبون محاصيلها، وإذا استأجروها لايدفعون إيجارها، لكن الأمر لم يعد على هذا النحو الآن نتيجة لعوامل التطور والتحضر فى المجتمع.



إمرءة بدوية

٨ ـ فئات أو طوائف أخرى:

عاش كثير من الأوروبيين فى مصر، منذ القرن التاسع عشر، واندمج بعضهم فى المجتمع المصرى، وظل البعض الآخر محتفظا بهويته.

ومن أشهر الجاليات الأوروبية التى اندمجت فى الحياة المصرية، الأرمن واليونانيون وقد تزايد نفوذ الأرمن فى مصر منذ عهد محمد على الذى استعان بهم كمترجمين ومستشارين ووزراء ولمع من بين الأرمن عدة أسماء نذكر منها على سبيل المثال نوبار باشا الذى تولى رئاسة الوزراء فى مصر، وسمى باسمه أحد الشوارع الكبرى فى القاهرة، وظل الشارع يحمل اسمه حتى تم تغييره بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وقد اشتهر الأرمن بإتقانهم الصناعة ومهارتهم فى التجارة، مما أتاح لكثيرين منهم أن يكوِّنوا الثروات، ويمتلكوا الأراضى والعقارات.

أما اليونانيون ـ أو كما سماهم المصريون الأروام ـ فقد كانوا يشكلون طائفة كبيرة فى مصر، وغلب عليهم العمل بالتجارة فى الأقطان والحبوب، وامتهنوا مهنا متعددة، وخاصة مايرتبط بالمقاهى والبارات، والمطاعم، ومحلات البقالة.. إلخ. وأتاح لهم عملهم بالتجارة والمهن التى عملوا بها أن يختلطوا بكل طوائف المجتمع المصرى وفئاته سواء في المدن أو فى القرى، وأن يعيشوا فى مستوى اقتصادى أفضل من الفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة، كما كون بعضهم ثروات لابأس بها.

وإلى جانب هؤلاء عاش فرنسيون وإيطاليون وغيرهم من الأوروبيين. كما وفد إلى مصر، وعاش فيها سوريون ولبنانيون مسيحيون خاصة، هربا من اضطهاد العثمانيين، وعمل كثير منهم بالتجارة، كما كان منهم أدباء وصحفيون وفنانون أيضا.

السمات العامة للتكوين الاجتماعى

هذا عن الفئات التى كانت تكون المجتمع المصرى مع بداية القرن التاسع عشر وخلاله، وبالطبع فقد اختفت فئات كالأتراك والمماليك، وتعدل وضع فئات أخرى كالبدو أو العربان بسبب استقرارهم واندماجهم إلى حد كبير فى المجتمع. ومع انتشار التعليم وإنشاء الجامعات المدنية لم يعد لفئة العلماء بالمعنى الذى ساد خلال العقود الأولى من القرن الـ ١٩ نفسُ الدلالة، كما تغير وضع العمال والحرفيين والفلاحين خاصة خلال الخمسينيات ومابعدها.

ويمكن أن نلخص السمات العامة للتكوين الاجتماعى فى مصر خلال القرن التاسع عشر وأن نحصرها فيما يلى:

١ ـ أن هذا البناء الاجتماعى قد تشكل حول تكوين زراعى، اتسم استغلال الأرض فيه بإنتاج قيم استعمالية Use Value «الإنتاج للاستهلاك وليس للتصدير أو التبادل».

٢ ـ أن الصناعة والتجارة لم يتطورا بالقدر الذى يساهم فى إعادة انتاج هذا التكوين الزراعى، فقد اقتصرت الصناعة على صناعات محدودة كالنسيج، وماكان محمد على بعد ذلك فى حاجة إليه، أما التجارة فلم يكن حالها أفضل من حال الصناعة، وإن كانت قد أدت إلى ثراء فئة قليلة من الناس ذات علاقات قربى بالطبقة الحاكمة.

٣ ـ سيطرة العلاقات القرابية، ووضوح دورها فى بقاء الطبقة المسيطرة والحفاظ على نفوذها. وتشير معظم الكتابات التاريخية إلى سيطرة أقليات عرقية من المماليك، والأتراك، تتوارث النَفوذ على الأرض، وداخل الجيش، وتسيطر على الإدارة، وتعيش فى عزلة عن أهل مصر من الفلاحين الذين كان ينظر إليهم بازدراء واحتقار شديدين.

إن المصادر التاريخية تذكر أن «محمد على» قد تخلص من المماليك، وكسر شوكتهم، ولكنه خلق فى ذات الوقت مجالات أخرى للنفوذ والسيطرة للأتراك والألبان الذين كونوا طبقة أرستقراطية تقوم إلى جانب امتلاكها الثروى روابط الدم والنسب، وانضم إليها أو ارتبط بها، فئات أخرى ـ من الملتزمين والموظفين والجنود وعلماء الأزهر ـ كان لها دورها فى مساعدة هذه الطبقة على تأكيد سيطرتها ونفوذها من خلال خدمتها والعمل معها، والارتباط بها. ولم يُتَحْ للمصريين المشاركة فى الإدارة والجيش إلا مع التطور الرأسمالى الذى بدأ مع نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر[٢٢].

تطور الملكية الزراعية

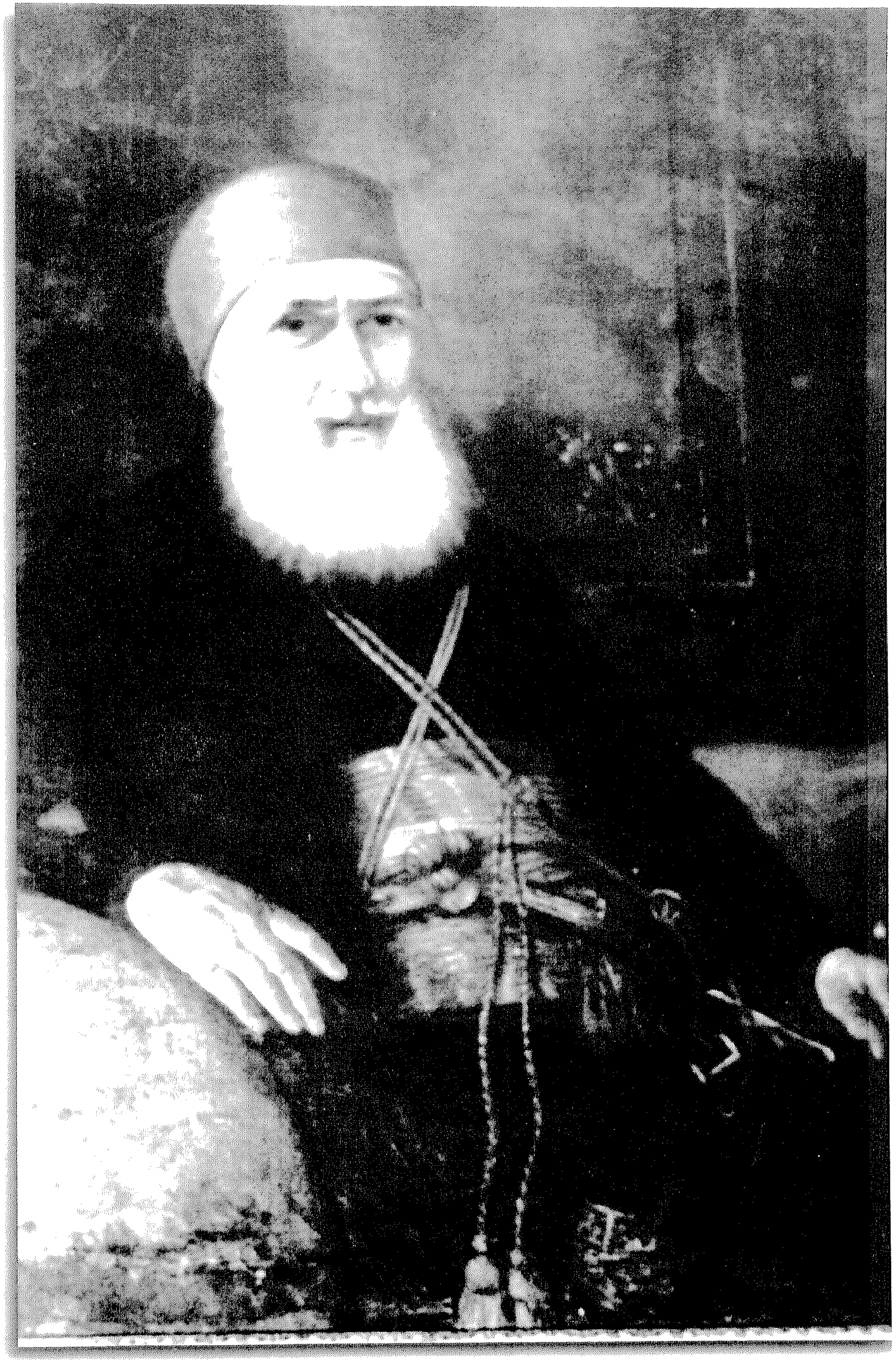
ألغى محمد على نظام الالتزام عام ١٨٠٩ واتخذ مجموعة من الإجراءات للقضاء على نفوذ الملتزمين ولتنظيم الإنتاج عام ١٨١١، فبدأ بفرض ضرائب على أراضى الوسايا وأراضى الوقف والمسموح «الأراضى التى كانت تُمنَحُ لمشايخ القرى معفاة من الضرائب» وقام بمسح شامل للأراضى، خلال خمس سنوات مابين عامى ١٨١٣ ـ ١٩١٨ وعين الحدود الفاصلة بين كل قرية ومايجاورها، ثم قسم الأراضى» الملحقة بكل قرية إلى أحواض، ووزع الأراضى على الفلاحين، وعلى فئات معينة من رجال الدولة، ونظم عملية جمع الضرائب من خلال موظفين، وذلك لكى يضمن وصول أكبر عائد نقدى إلى خزانة الدولة.

ثم صدرت فى عام ١٨٤٦ اللائحة الأولى من لوائح الأطيان التى أباحت حرية التعامل فى الأراضى التى يزرعها الفلاحون واعترفت بملكية فردية محدودة للأراضى› وفى عام ١٨٥٨ صدرت اللائحة السعيدية، وقررت أن لمستغل الأرض حقَّ تأجيرها لمدة لاتزيد على ثلاث سنوات وله أن يرهنها وأن يبيع حق استغلالها للغير.. إلخ.. وفى الوقت ذاته ألغى سعيد نظام احتكار تجارة الحاصلات الزراعية، كما أعفى الفلاحين من الضرائب المتأخرة عليهم.

وفى سنة ١٨٧١ صدر القانون المعروف بقانون «المقابلة» الذى كفل حصول المنتفع بالأرض على صك تمليك كامل، متى دفع مرة واحدة ستة أمثال الضريبة السنوية مع إعفائه من نصف الضرائب بعد ذلك بصفة دائمة، وكان الغرض من هذا القانون الذى صدر فى عهد إسماعيل إنقاذ الدولة من الإفلاس، وفى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٣ صدر القانون المدنى الأهلى الذى نصت مادته الثامنة على مايلى:

«تسمى ملكا العقارات التى يكون للناس فيها حق التملك التام، وتعتبر فى حكم ذلك الأطيان الخارجية التى دفعت عنها المقابلة» وفى عام ١٨٩١ حذف من القانون شرط دفع المقابلة.

وهكذا يمكن القول إن ملكية الأرض قد استقرت بالنسبة للفلاحين المصريين، منذ عام ١٨٩١ وظلت على حالها منذ ذلك الحين حين قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ التى أصدرت قانون الإصلاح الزراعى الذى حدد حدا أقصى لملكية الأراضى الزراعية بالنسبة للفرد وللأسرة.

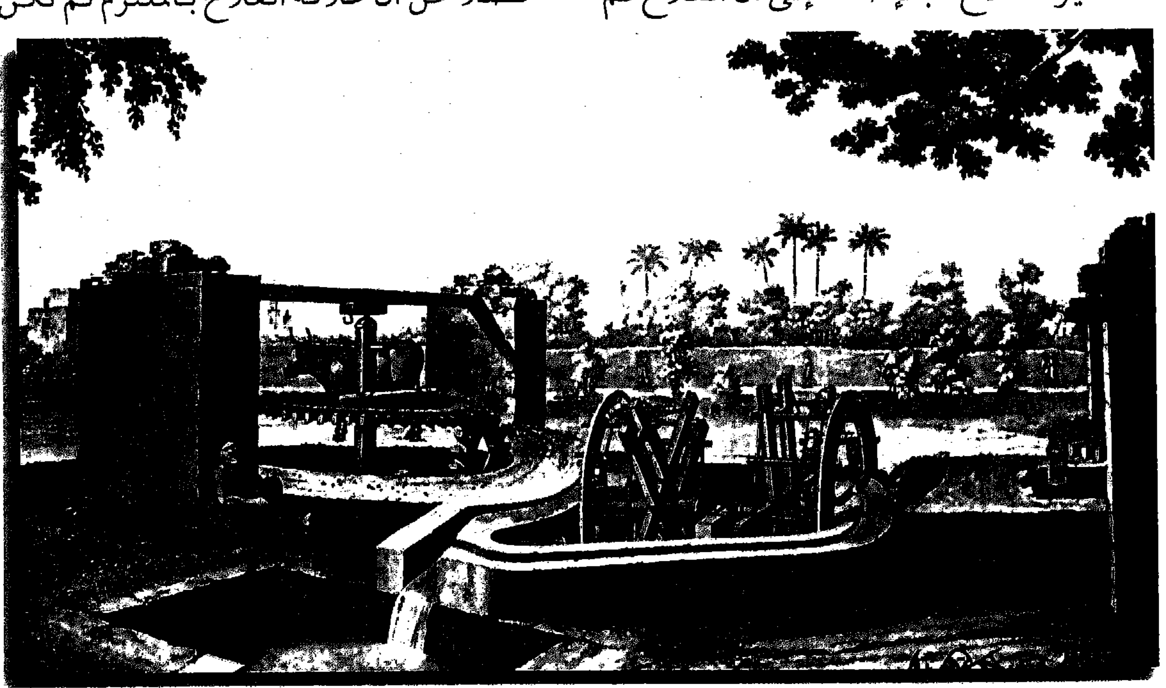


محمد على

النظام الاجتماعى الاقتصادى

ويصعب فى الحقيقة تحديد النظام الاجتماعى الاقتصادى، للمجتمع المصرى فيما قبل منتصف القرن التاسع عشر الذى يكاد الباحثون يجمعون على أنه بداية تكون المجتمع الرأسمالى، فبينما يرى جبرائيل[٢٣] بير G.Bear أن البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى تشكل من خلال سيطرة الحكومة المركزية على تنظيم أمور الرى والزراعة، يرى آخرون أن الأساس الذى قام عليه التكوين الاجتماعى فى مصر في مرحلة ماقبل الرأسمالية أساس إقطاعى، وربط البعض بين نظام الالتزام وكذلك شكل الانتفاع بالأرض، وبين النظام الاقطاعى فقد ذهب الدكتور محمد أنيس[٢٤] إلى أن نظام الالتزام، وما ارتبط به من نفوذ للملتزمين يمثل نمطا إقطاعيا خالصا بالرغم من وجود تأثير ملحوظ للدولة، فى تنظيم عملية الالتزام، ذلك أن الملتزمين كونوا بالفعل طبقة إقطاعية فنظام إقطاعى، كما كونوا طبقة عسكرية وكان لهم الحق مثلما كان للدولة فى تسخير الفلاح، بالإضافة إلى أن الفلاح لم يكن حرا فى ترك الأرض، وكان نظام الإنتاج يقوم على الإنتاج للاستهلاك وليس للتصدير، وكانت الضرائب متنوعةً يُحصِّلُ بعضها الملتزمون أنفسهم أو مساعدوهم. وكذلك سعى «ايليا حريق» إلى تأكيد فكرة أن نظام الالتزام يعد نمطا إقطاعيا نقيا طالما أنه يكشف عن الارتباط بين القوة السياسية والقوة الاقتصادية، وأن التنظيم السياسى هو الذى يشكل الإطار الذى يوجد فيه المجتمع، وطالما أن الملتزم يمتلك القوة والسلطة، بصرف النظر عن ملكيته الفعلية للأرض.

ويختلف عبدالعظيم رمضان[٢٥] مع وجهة النظر السابقة؛ إذ يرفض فكرة وجود الإقطاع أصلا، عند التعامل مع البناء الاجتماعى التاريخى للمجتمع المصرى، وذهب إلى أن الإقطاع لم يكن موجوداً فى مصر، ذلك أن أبرز معالم هذا النظام من تفتت المجتمع إلى وحدات منعزلة، تفصل بينها العوائق السياسية والاقتصادية، وتحول دون نمو الشعور القومى أو قيام دولة موحدة، لم توجد فى مصر التى كان الاتصال بين أجزائها من أسهل الأمور، فضلاً عن أن علاقة الفلاح بالملتزم لم تكن



تتخذ شكلاً سياسيا كالعلاقة بين الغنى والسيد الإقطاعى، وأن البورجوازية المصرية كانت موجودة قبل القرن التاسع عشر.

ورأى إبراهيم عامر(٢٦) ان الإجراءات التى إدخلها محمد على، والتغيرات التى حدثت فى عهده قد جعلت البناء يمر بمرحلة من ازدواجية التطور، وتتولد داخله عناصر نظام رأسمالى قائم على اقتصاد السوق يتجه نحو تحقيق الملكية الفردية للأرض، واتفق أنور عبدالملك مع إبراهيم عامر، ولكنه أكد على خصوصية البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى فيما يرتبط بمركزية السلطة وهيمنة الدولة المستمرة. وذهب، بناء على ذلك، إلى أن المركزية تعد بمثابة الخاصية الجوهرية أو النواة التى يتمركز حولها البناء الاجتماعى فهى التى تحدد شكل الإنتاج والاستغلال، وهى التى تشكل العلاقات الاجتماعية ونمط إعادة إنتاج البناء الاجتماعى(٢٧).

البناء الاجتماعى فى العصر الحديث

لقد اختلفت الآراء حول وصف البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى مع بدايات العصر الحديث الذى يُؤَرَّخُ له، كما ذكرنا من قبل، بمجىء الحملة الفرنسية إلى مصر، مع غروب القرن الثامن عشر، وهل كان هذه البناء إقطاعيا كالإقطاع الأوروبى، أو وفق نمط الإقطاع الشرقى، أو يتبع النمط الآسيوى.. إلخ.

وهناك من يرى أن القرن الثامن عشر قد شهد البدايات الأولى لنشأة الرأسمالية المصرية التى ارتبطت بفئة التجار الناشئة، لكن معظم الباحثين يؤرخون لظهور الرأسمالية المصرية بعهد محمد على، ويربطون ذلك بمحاولاته إيجاد طبقة من كبار الملاك تكون عونا له فى حكمه. وقد مَثل هؤلاء - فى حقيقة الأمر - النواة الحقيقية للرأسمالية المصرية التى بدأت تتشكل أبعادها وملامحها ابتداء من عهد سعيد ثم إسماعيل.

وعلى ذلك نستطيع القول إن واقعا اجتماعيا جديدا بدأ فى الظهور، أثناءحكم محمد على، وبدأ المجتمع المصرى يعرف تكوينات اجتماعية رأسمالية، تعتمد على مشايخ القرى، والبدو والعربان، والموظفين والكتبة وأئمة المساجد ممن تملكوا أراضى زراعية، وأصبحوا إلى حد ما امتدادا للطبقة الارستقراطية الحاكمة التى غلبت عليها العناصر التركية والأوروبية التى منحها محمد على مساحات كبيرة من الأراضى «عهد وأبعاديات وجفالك»(٢٨) خاصة أعضاء الأسرة الحاكمة وحاشيته، وكبار الموظفين، وبعض الموظفين الذين عملوا بالخدمة المدنية إلى أن أصبحوا من كبار الملاك الزراعيين.

وكان من الطبيعى أن ينتج هذا التحول بناء اجتماعيا تتسع فيه الهوة بين طبقة كبار الملاك والتجار والمرابين من ناحية، وصغار الفلاحين والحرفيين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى ظهور طبقة من أبناء الفلاحين، شكلوا فيما بعد بعض الفئات الرأسمالية المهمة عبر قنوات أهمها:

١ - الترقى فى الرتب والقطاعات الفنية.

٢ - الانتظام فى صفوف الجيش، فقد وصل عدد أبناء الفلاحين إلى مراتب مهمة مثل بكباشى «مقدم».

٣ - التعليم، ذلك أن التعليم أتاح الفرصة لبعض العناصر المصرية الخالصة كى تتبوأ مراكز مرموقة، بالإضافة إلى أن البعثات العلمية التى تم إيفادها إلى أوروبا - خاصة فرنسا - قد بلورت بعد ذلك نخبة مثقفة تؤمن بالفكر الليبرالى الغربى، وساهمت فى إيجاد طائفة من أصحاب المهن والأعمال الحرة من أطباء ومحامين وصحفيين... إلخ لأول مرة فى مصر(٢٩).

وتجدر الإشارة هنا إلى أسلوب كبار الملاك فى استخدام الأراضى الزراعية. فقد قسَّمَت العديدُ من الدراسات، كبار الملاك من ناحية استخدامهم لأراضيهم الزراعية كالآتى:

– كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين وجهوا استثماراتهم لشراء الأراضى الزراعية، والمضاربة عليها وإقامة المبانى العقارية وتبديد الفائض فى الاستهلاك الترفى والمظهرى.

ويعتبر هذا الشق من كبار ملاك الأراضى الزراعية أقل مساهمة فى التوسع الصناعى والزراعى كما كان بمثابة الغائب الحاضر عن الأرض.. ومن هنا ظهرت فكرة الملكية الغائبة.

– النمط الثانى هو نمط قام على استغلال أراضيه وفقا للأسلوب الرأسمالى على أساس المشروع الكبير نسبيا، مستخدما آلات وفنون إنتاج رأسمالية حديثة والعمل فىّ زراعة محصولات نقدية وصناعية.

وهكذا نجد أن النمط الثانى قد مثَّل القاعدة الأساسية للرأسمالية الصناعية والتجارية التى انحدرت من بين أعطاف الرأسمالية الزراعية. فقد وجه شق كبير من كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين يديرون أراضيهم بالأسلوب الرأسمالى إلى الاستثمار الصناعى والتجارى.

ومع بداية الاحتلال الإنجليزى لمصر انتشرت شركات الرهن العقارى، وشركات البنوك والأموال انتشارا واسعا الأمر الذى أفسح المجال أمام الاستثمار الربوى ذى الربح السريع، وقد أفضى هذا الأمر إلى تشكيل فئة من كبار الملاك والتجار والمرابين شكَّلَت فى مجموعها طبقة تجارية «الأرض محور تجارتها» استطاعت أن تسيطر على مساحات شاسعة من الأرض واشتغلت بالمضاربة عليها، من خلال الشركات التى تأسست لهذا الغرض. وقد ضمت هذه الطبقة مجموعتين:

المجموعة الأولى:

من الأجانب والأتراك والشراكسة والأوروبيين الذين منحهم فرمان ١٨٦٧ حق تملك الأراضى داخل الأمبراطورية العثمانية وقد ازدهر عددها بعد الاحتلال وتضخم حجمها بسبب الامتيازات التى مُنحَت لها، فقد تمتعت هذه الفئة بحماية مزدوَجة حماية كفلتها لها الدولة من ناحية، وحماية أوسع كفلها لها اندماج الدولة ذاتها فى الاقتصاد العالمى من ناحية أخرى، الأمر الذى ترتب عليه تعميق التبعية وفقدان الاستقلال.

المجموعة الثانية:

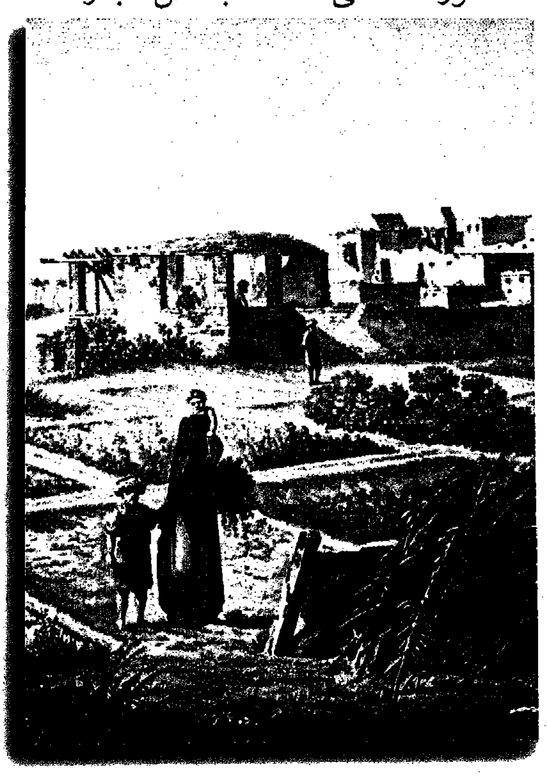
وهى التى انبثقت جذورها فى عهد محمد على، وأخذت طريقها إلى النمو والاكتمال فى عهد سعيد وإسماعيل، وكانت تضم أعيان الريف والعربان وعلماء الأزهر والموظفين ورجال الجيش. وغالبا ماكانت تختلط هذه العناصر بالأصول التركية والشركسية كما كانت تضم أيضا أصولا مصرية خالصة.

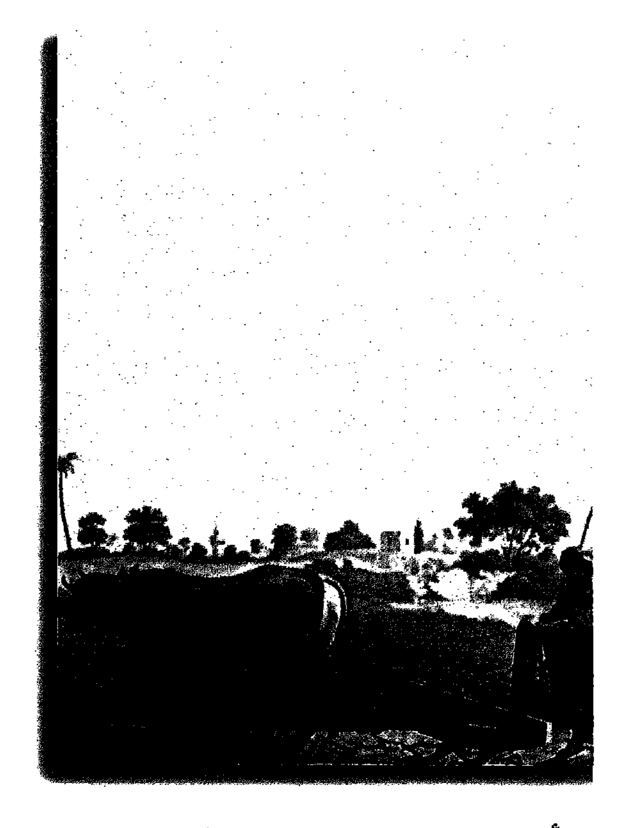
وظل نظام الملكية الزراعية فى المجتمع المصرى محافظا على التقسيم الطبقى لصالح كبار الملاك الذين تربعوا على قمة الهرم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى حين مثَّلَ سَفْحُ هذا الهرم قاعدةً واسعةً مسحوقة من صغار الملاك والمستأجرين المعدمين. واستمرت تلك الوضعية حتى عام ١٩٥٢ حيث كان ١,٠٪ من الملاك يملك ١٩,٨٪ من الأراضى المنزرعة فى حين أن ٧٢٪ من الملاك كانوا يمتلكون ١٣٪ من هذه الأراضى.

ولقد لعبت الظروف السياسية والوطنية دورا حاسما فى تأكيد الهيكلية الثنائية فى المجتمع المصرى من حيث شكل وملكية الأرض، فنجد على سبيل المثال بعد فشل الثورة العرابية أن قام الخديو توفيق، بمصادرة أملاك القيادات العسكرية والدينية المؤيدة

للثورة مثل عرابى «٨٨٧ فدانا» وعلى فهمى «٦٥٠ فدانا» ومحمود سامى البارودى، وقد مُنِحَت هذه الأراضى الزراعية مكافآت لبعض العَناصر التى وقفت ضد الثورة فضلا عن العديد من الضباط والعمد ومشايخ البلد والعربان(٣٠).

وتعددت أساليب كبار الملاك فى تضخيم ثرواتهم وممتلكاتهم مما لامجال للحديث فيه الآن، وهو ماأدى خلال النصف الأول من القرن العشرين إلى ازدياد نفوذ الرأسمالية الزراعية المصرية، وظلت الأرض هى المحور الذى تدور حوله أنشطة الرأسمالية الزراعية سواء فى مجال الزراعة أو التجارة، عازفة عن الاستثمار الصناعى الذى يقتضى قدراً من المغامرة والمخاطرة لم تكن هذه الرأسمالية مهيأة له، ذلك أن ملكية الأرض تُوفّر لها مصدرا ثابتا للثروة والسلطة والنفوذ والمكانة الاجتماعية المتميزة. ولكن الحرب العالمية الأولى ونتائجها أدت إلى حدوث مجموعة من التطورات التى دفعت بعض كبار ملاك





الأراضى الزراعية للتحول - إلى حد ما - من الاستثمار الزراعى والتجارى إلى الاستثمار الصناعى. ولعل أهم هذه التطورات حصول مصر على قدر من الاستقلال السياسى بعد عام ١٩٢٢ مما شجع العناصر الوطنية الرأسمالية الراغبة فى توجيه الاقتصاد المحلى بقصد تحقيق نهضة صناعية، وهو ماوجد مقاومة شديدة من الرأسمالية الأجنبية آنذاك.

ولما كانت الرأسمالية الصناعية والتجارية قد خرجت من بين أعطاف الرأسمالية الزراعية، فقد كان من الطبيعى أن يكون كبار الملاك وكبار المستأجرين الذين يقومون بزراعة أراضيهم على أساس الزراعة الواسعة هم أيضا كبار العاملين فى مجالات الاستثمار الصناعى والتجارى. وكانت تجربة بنك مصر هى التجربة الأولى للرأسمالية المصرية التى أثبتت تحولا جديا نحو الاستثمار الصناعى الحقيقى. وعلى ذلك يمكننا القول إنه إذا كان عصر محمد على قد شهد البذور الأولى للرأسمالية المصرية، فإن عشرينيات هذا القرن قد شهدت بزوغ رأسمالية وطنية مصرية على يد طلعت

حرب، حيث كان بنك مصر وشركاته تعبيرا عن تحول هام وأساسى، بمعنى تحول جزء من استثمارات كبار ملاك الأراضى الزراعية إلى مجالات إنتاج أخرى غير مرتبطة بالأرض.

وعلى الرغم من التطورات الداخلية والخارجية التى كان من شأنها الدفع بالرأسمالية المصرية نحو الاستثمارات الصناعية إلا أنها ظلت عازفة عن تلك الاستثمارات وآثرت التعامل فى الأنشطة قصيرة الأجل سريعة الربح. وتعكس دراسة الرأسمالية المصرية قبل الثورة درجة عالية من التحالفات والتشابكات والروابط العائلية على مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى الحد الذى أصبحت تكون فيه طبقة اجتماعية تضم أصحاب الثروات من شركات تجارية وصناعية ومبان عقارية شاهقة فى المدن وأراض زراعية فى الريف وأرصدة نقدية فى البنوك والمؤسسات المالية، فضلا عن أنها كانت تستحوذ على جانب كبير من عوائد العمل حيث كان معظم أبناء هذه الطبقة يحتكرون إلى حد كبير الوظائف العليا فى المجتمع.

وعلى ذلك يمكن القول إن الرأسمالية المصرية قد سيطرت على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أنها استحوذت على الثروة والسلطة والنفوذ فى آن واحد، وأصبحت حياتها تعبر عن حياة اجتماعية واحدة كفلتها شبكة قوية من الأصهار والنسب بين العائلات، وقد دعم تلك الشبكة من التحالفات نوع الثقافة السائد بينهم وهى ثقافة غربية ترتبط بأنماط استهلاكية مظهرية[31]. ولأن الرأسمالية المصرية رأسمالية تابعة نشأت فى ظل الوجود الأجنبى، فقد سدت كل قنوات الحراك الاجتماعى أمام الطبقات الأخرى، واستطاعت أن تفرز ثقافات لها بقاؤها واستمراريتها.

ومما هو جدير بالذكر أن حوالى ١٦ عائلةً فقط فى مصر كانت تملك السلطة السياسية قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وأن معظم رؤساء الوزارات خرجوا من هذه العائلات قبل الثورة[32]، ومن هنا يتضح أن السمة العائلية كانت هى المسيطرة على الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى المصرى، وأن الرأسمالية المصرية «العائلية» استطاعت أن تستحوذ على الثروة والسلطة معا، وأن تنتج



الضباط الأحرار

ثقافات وسياسات تحفظ بقاءها واستمرارها قبل الثورة، ونظن، بعد الثورة أيضا، ذلك أنه على الرغم من الإجراءات التى نفذتها الثورة ضد هذه الطبقة الرأسمالية، إلا أنها تمكنت بما تملكه من إمكانات ونفوذ أن تعيد تشكيل نفسها، وأن تضمن بقاءها واستمرارها داخل النظام الجديد، حتى استطاعت أن تعود مرة أخرى إلى المسرح الاجتماعى والاقتصادى السياسى المصرى مع بدء تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى.

إن التطورات التى أدخلتها الثورة على البناء الاجتماعى والاقتصادى فى مصر وهو ماظهر أثره فى التكوين الإدارى والبيروقراطى، قد صاحبها ظهور شرائح اجتماعية متعددة تشكل فى مجموعها تكوينا اجتماعيا اطلق عليه «الطبقة الجديدة» وهى طبقة تستمد أصولها من الطبقات والشرائح الموجودة بالفعل فى المجتمع، ولكنها تضيف إليها عنصرا طبقياً جديدا وقد اختلفت المسميات التى تصف هذا التكوين الاجتماعى الجديد، فالبعض أطلق عليه «الطبقة البيروقراطية» والبعض الآخر أسماه «بالرأسمالية البيروقراطية» أو «البورجوازية البيروقراطية»، ويشير هذا التعبير أو المسمى إلى تشكيلة تضم البيروقراطيين والتكنوقراطيين، والمهنيين والمثقفين والعسكريين، ممن تقلدوا مناصب ومراكز ووظائف داخل جهاز الدولة والقطاع العام، واستطاعوا الاستفادة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى حدثت فى مصر خلال الخمسينيات والستينيات على إثر تطبيق قوانين الإصلاح الزراعى والتأميم، والاتجاه إلى التصنيع، وحققوا من وراء ذلك ثروات كبيرة، إلى أن اصبحوا قوة اجتماعية ضاغطة من أجل التحول نحو فلسفة الاقتصاد الحر، والمطالبة بفتح المجال أمام رأس المال الخاص(٣٣).

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة أربعة عناصر متعددةً ساهمت فى تشكيل المؤسسة البيروقراطية، بعد الثورة، ويمكن تحديد تلك العناصر على النحو التالى:

العنصر الأول: يتمثل فى بيروقراطية ماقبل الثورة، وهى فى أغلبها عناصر تنتمى إلى الرأسمالية الزراعية. وبالرغم من قيام الثورة بتطهير هذا الجهاز، إلا أنه ظل مشتملا على العديد من شرائحه التى مثلت القاعدة الأساسية للهيكل البيروقراطى الجديد، ورغم ضآلة هذه الشرائح إلا أنها حملت فى ثناياها بعض العناصر التى شكلت الخيط الرفيع الذى ربط بين عناصر البرجوازية البيروقراطية فى المدينة «وهى عناصر بيروقراطية جديدة» والتى وفد بعضها للعمل فى الريف وبين الرأسمالية الزراعية التى ازدهرت فى الريف، فضلا عن أنها شكلت مصدرا تقليديا فى التكوين البيروقراطى الجديد حيث تمكنت العديد من العناصر البيروقراطية القديمة أن تزج بأبنائها داخل جهاز الدولة الجديد.

ففى الوقت الذى احتكرت فيه البرجوازية البيروقراطية السلطة فى المدينة تركت الريف لسلطة أغنياء الفلاحين ومتوسطيهم الذين سيطروا على مفاتيح الإدارة المحلية واحتكروا لأنفسهم غالبية الخدمات الحكومية وكانوا بمثابة القوة السياسية الفعلية الوريثة لكبار ملاك الأراضى الزراعية فى التنظيمات السياسية التى أقامتها السلطة الجديدة، هذا فضلا عن صلات القرابة والنسب والمصاهرة فيما بينهم وبين بعض عناصر النخبة العسكرية التى مارست بدورها دورا لايستهان به من خلال تدخلها فى الريف وبالذات عقب تشكيل لجنة تصفية الإقطاع فى منتصف الستينيات، وحين أيقنت الرأسمالية الزراعية الريفية حقيقة ومغزى التغيرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية ونتيجة لتزايد وزنها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى الريف فقد رفعت شعارات تأييد

للنظام الجديد كنوع من أنواع المناورة، واستغلال الموقف لصالحها، وتمكنت من أن تدفع بأبنائها إلى مراكز القيادة السياسية والإدارية داخل مجالس القرى والمدن والمحافظات والتعاونيات، فضلا عن الزج بهم فى الاتحاد الاشتراكى والتنظيمات السياسية الأخرى(٣٤).

وقد كشف الواقع العملى أن التنافس بين الجماعات المختلفة فى الحكم قد تم حسمه لصالح الرأسمالية الريفية التى نجحت فى تدعيم موقفها وفى خلق امتدادات لها من بين صفوفها عبر المؤسسة العسكرية من ناحية ومن خلال الجهاز البيروقراطى المدنى من ناحية ثانية، أى أن العلاقة بين المؤسسة البيروقراطية بشقيها المدنى والعسكرى وبين الرأسمالية الزراعية فى الريف والرأسمالية الصناعية والتجارية فى المدينة علاقة تداخل وتشابك وتفاعل.

العنصر الثانى: فى تشكيل المؤسسة البيروقراطية بعد الثورة، تمثل فى مستخدمى القطاع الخاص والشركات المؤممة، وقد ساهم هذا العنصر مساهمة فعالة فى توسيع نقاط التشكيل البيروقراطى الجديد، وصبغه بالصبغة الرأسمالية، فقد تم الاستعانة بالقائمين على إدارة القطاع الخاص الذى آلت ملكيته إلى الدولة بعد عمليات التأميم الواسعة، وكانت الصبغة المميزة لهذا العنصر هى الصبغة الرأسمالية، وسيادة لروح المشرع الخاص والإيمان بالربح السريع.

وهكذا تشكلت الرأسمالية المصرية سواء بجناحها الزراعى أو بجناحها الصناعى والتجارى داخل الهيكل البيروقراطى الجديد وأضفت عليه الصبغة الرأسمالية، بل وساهمت فى تخليق فئة بورجوازية بيروقراطية جديدة كيانها وقوامها الكادر الإدارى السياسى من أبناء الرأسمالية الوطنية المصرية، وتعكس فى مضمونها التحالف بين القطاع العام والقطاع الخاص من ناحية والتناقض الفكرى بين فكرة القطاع العام، وفكر القائمين على إدارته من ناحية أخرى.

العنصر الثالث: فى تشكيل المؤسسة البيروقراطية هو المؤسسة العسكرية التى مثلت الجناح العسكرى لها، فقد اعتمد النظام على العسكريين إلى أن أصبحوا يمثلون ركيزة النظام.

أى أن القيادة الحاكمة ارتأت تقلد العسكريين للمناصب والمراكز العليا فى المجتمع، حيث أصبح الجيش هو المورد الرئيسى لنواب الرئيس ورؤساء الوزارات والوزراء الذين سيطروا على الوزارات الرئيسية مثل قطاع التجارة الخارجية والداخلية وجهاز المخابرات ومراكز توجيه الرأى العام ومجالس إدارة الصحف(٣٥).

العنصر الرابع: فى تشكيل المؤسسة البيروقراطية بعد الثورة، يتمثل فى البيروتكنوقراط الجدد «أساتذة جامعات، مهنيين، فنيين» فمع التحولات الاقتصادية والاجتماعية الواسعة استعانت الدولة بعدد من الفنيين والتكنوقراط.

ونتيجة لأن الثورة قد أولت اهتماما لتلبية احتياجات الطبقة الوسطى الصاعدة فى المدينة والريف، فقد شهدت الفترة الناصرية نموا هائلاً للفئات المتوسطة الجديدة غير «العمالية» التى تعمل نظير أجر مثل موظفى المكاتب والمصالح والكوادر الإدارية والفنية فى الهيئات والمؤسسات والشركات والمدرسين والمهندسين والفنيين والباحثين غير المرتبطين مباشرة بالعملية الإنتاجية المادية(٣٦).

وبالرغم من تحديد وتوصيف هذه الفئات على أساس وظيفى أو مهنى، إلا أن تحديد الانتماء الطبقى النهائى لكل هذه الفئات يظل

مسألة بالغة التعقيد. وقد شكلت هذه الفئات جزءا أساسيا من القيادة الإدارية فى جهاز الدولة البيروقراطى حيث مكّن التدريب التقنى كبار البيروقراطية والتكنوقراطية هؤلاء من أن يصبحوا مؤثرين فى عملية صنع القرارات الرئيسية فى البلاد.

ونظرا لأن الثورة - رغم جهودها المستمرة - لم تتمكن من خلق كوادر سياسية، ذات ولاء لها ولمبادئها لشغل المناصب الإدارية الكبرى فكانت النتيجة أن أصبح الجهاز البيروقراطى فى مصر منذ بداية الستينيات القاعدة المؤسسية التى يعتمد عليها النظام الناصرى والتى غدت بدورها تتشكل من الروافد الأساسية التالية:

- الموظفين المدنيين من البيروقراطية القديمة.
- مستخدمى القطاع الخاص والشركات المؤممة.
- المؤسسة العسكرية.
- البيرو/ تكنوقراط الجدد.

ويلاحظ أن كلا من الرافدين الأول والثانى يعكسان العلاقة الوطيدة بين الجهاز البيروقراطى القديم والجهاز البيروقراطى الجديد الذى استوعب داخله تلك العناصر المحافظة التى تنتمى إلى الرأسمالية الزراعية والرأسمالية الصناعية والتجارية من ناحية والتى تُكنُّ عداءً للقطاع العام والحكومى من ناحية أخرى. ومن ثمَّ فإن عدم الانسجام الأيديولوجى داخل القطاع العام كان راجعا منذ البداية إلى التركيبة الاجتماعية غير المنسجمة والتى ترتب عليها استنزاف مقدرات القطاع العام لصالح القطاع الخاص.

أما الرافد العسكرى فإنه يعكس مدى سطوة الجناح البيروقراطى العسكرى، على البيروقراطية المدنية كما يعكس أيضا التلاحم بين الرأسمالية المصرية بجناحيها الزراعى/ الصناعى والتجارى داخل المؤسسة البيروقراطية بشقيها المدنى والعسكرى.

بينما يعبر الرافد الرابع عن فئات اجتماعية استطاعت أن تستفيد أقصى استفادة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية، التى شهدها المجتمع المصرى خلال الستينيات وتمكنت - شأنها شأن الروافد الأخرى - من تكوين ثروات واستطاعت أن تدعم مركزها فى المدينة كبرجوازية متوسطة وبرجوازية صغيرة، حيث أخذت الرواتب العليا من هذه الفئآت تنسلخ عن الفئات العاملة لتشكل جزءا من البرجوازية البيروقراطية - فى إطار التكوين البيروقراطى الجديد - والتى شكلت شقا لايستهان به من القاعدة الاجتماعية التى دشنت لسياسة الانفتاح الاقتصادى، ولاسيما تلك العناصر التى تمرست بالفعل فى عالم الأعمال وأصبحت تضيق بسياسات وتشريعات تلك الفترة. ومع منتصف السبعينيات يتمخض اللقاء المستتر بين البرجوازية البيروقراطية وبين عناصر الرأسمالية التقليدية داخل جهاز الدولة والقطاع العام عن لقاء مقنن فى ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى. بمعنى آخر بين عناصر الرأسمالية التقليدية وبين عناصر البيروقراطية الجدد «البرجوازية البيروقراطية» وخاصة بعد أن توطدت فيما بينهم علاقات القرابة والمصاهرة والنسب[٣٧].

يضاف إلى هذا كله أن الثقافة العلمية السائدة لدى أبناء البرجوازية البيروقراطية أو «الطبقة الجديدة» كانت وظلت ثقافة رأسمالية، بمعنى أن القيم والمناخ الرأسمالى كان مسيطرا على العلاقات الاجتماعية بحكم طبيعة تكوين وتطور الهيكل البيروقراطى، هذا فضلا عن أن الثورة قد أحدثت تغييرا فى الجوانب المادية دون أن يسبقه أو يواكبه ويسير معه تغيير فى القيم المجتمعية علما بأن التغير فى الأولى غالبا مايتم بصورة أسرع من الثانية.

عادات وتقاليد

عادات الإحتفال بالميلاد

يحب المصريون ـ وخاصة الطبقات الشعبية ـ الأسرة الكبيرة العدد، نظرا للظروف الاقتصادية، وطبيعة العمل، التى جعلت الأطفال - الذكور خاصة - إضافة إلى ثروة العائلة، بالإضافة إلى ارتباط هذا أيضا بالمكانة الاجتماعية للأسرة الكبيرة العدد، ومايعنيه ذلك من قوة ومنعة واحترام، وينعكس هذا على احتفالهم بميلاد الأطفال«٣٨»، وخاصة بعد مرور سبعة أيام على ميلادهم، فيما يعرف بالسبوع.

وليس بين أيدينا مايعطينا صورة عن هذا الاحتفال خلال القرن الماضى، إلا ماجاء فى المجلد الأول من موسوعة «وصف مصر» التى أعدها علماء الحملة الفرنسية عندما احتلت فرنسا مصر فى الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١م، وماجاء فى كتاب «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم» الذى سجل فيه مؤلفه مارآه خلال الفترة من ١٨٣٣ إلى ١٨٣٥م وينبغى أن نشير هنا، إلى أن وصف العادات فى هذين العملين المهمين، اقتصر فى الأغلب الأعم على عادات أهل المدن فحسب.

فى وصف مصر، كتب كونت دى شابرول عن السبوع قائلا: فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها وتقضى اليوم كله فى لهو معهن. وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم به العوالم وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد، ويطلق على هذا الحفل اسم السبوع، وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادمات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس وضع فوقها - وبشكل دائرى - عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال. وهذه الشموع مضاءة وألوانها متعددة، وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقاً يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرى وبخور. أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل.

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها إليها، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب. وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منه فى الحجرة، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر كل مكان.

وعند العودة إلى حجرة الحريم الرئيسية، توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، موضوع وسط الحجرة، وتأتى كل واحدة من المشتركات لتضع قبضة من البارات[٣٩] وترمى

الفتيات الصغيرات والخادمات على الشموع ليتنازعن عليها. وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية وتحصى ما بداخلها من النقود التى تجدها عليها، والتى ألقيت من أجلها.

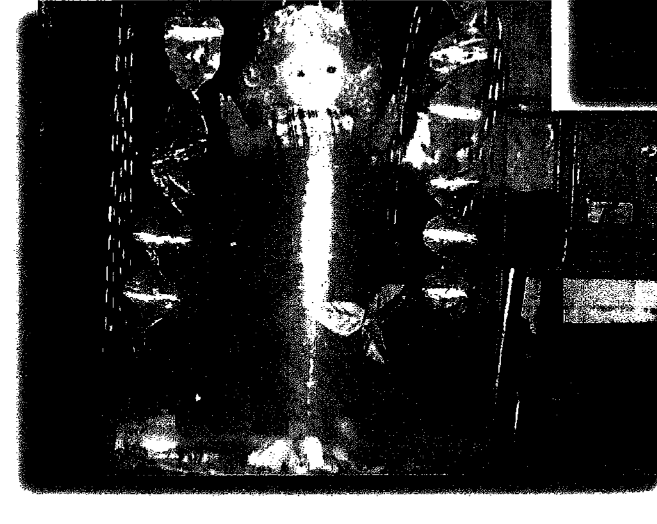
وينتهى الحفل بزيارة للطفل، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه(٤٠).



ويصف «لين» الاحتفال بالمولود فيذكر: أن اثنتين أو ثلاثا من الغوازى يقمن بالرقص فى صبيحة اليوم التالى للولادة أمام المنزل أو فى باحته. وتغدو الفرحة فرحتين عند ولادة الذكر وتحتل الاحتفالات بقدومه أهميةً أكبر من ولادة الأنثى.

تنهمك نساء المنزل بعد أيام قليلة من الولادة فى اليوم الرابع أو الخامس عامة سواء انتمين إلى الطبقة الميسورة أو المتوسطة فى إعداد أطباق المفتقة والكشك واللبابة والحلبة يرسلنها إلى الصديقات والقريبات والمفتقة عبارة عن مزيج من العسل والقليل من الزبدة المصفاة وزيت السمسم إضافة إلى المعطرات والبهارات المسحوقة معا، ومن الممكن تزيين هذا الطبق بالبندق، وتتألف اللبابة من كسر الخبز وفتاته والعسل والزبدة المصفاة مع شىء من ماء الورد، تذوب الزبدة فى المقلاة على النار ويضاف إليها الخبز المكسر والعسل، وتحضر الحلبة من الحبوب الجافة المغلية وتحلى بالعسل وهى على النار.

تقوم صديقات الأم بزيارتها وتهنئتها فى يوم «السبوع» وإن كان المولود أبصر النور فى عائلة غنية تغنى له العوالم فى الحريم، أو يعزف الآلاتيون ابتهاجا بقدومه، أو يتلو الفقهاء ختمة من القرآن فى إحدى الحجرات السفلية وتساعد الداية الأم فى الجلوس على كرسى الولادة أملا فى الجلوس عليه ثانية فى ولادة أخرى، وتعتبر الداية أن جلوسها فأل خير. تحمل الداية الطفل ملفوفا بشال أنيق غالى الثمن، وتقوم إحدى النساء بضرب الهاون النحاسى حتى يعتاد المولود - حسب الاعتقاد السائد - على الصخب فلا يخشى لاحقا الموسيقى وأصوات الفرح الأخرى.



ثم يوضع الطفل فى غربال ويهز هزا وفى تلك العملية منفعة لمعدته، وينتقلن به بعد هزه فى مختلف حجرات الحريم، يصحبه لفيف من الفتيات أو النساء تحصل الواحدة منهن عدداً من الشموع المضاءة المتعددة الألوان أحياناً مقطوعة نصفين ومثبتة فى كتل عجينة الحناء فوق صينية مستديرة، وترش الداية أو غيرها فى ذلك الوقت مزيجاً من الملح وعشبة الشمر(٤١) فوق أرض كل حجرة أو تكتفى بنشر الملح وحده بعد أن تكون قد وضعت المزيج فى

الليل فوق رأس الطفل مرددة «الملح فى عين الذى لايصلى على النبى صلى الله عليه وسلم» أو «الملح الفاسد فى عين الحاسد» وتعتبر عملية رش الملح عملية وقائية للأم وطفلها من العين الحاسدة ولابد أن يذكر كل الحاضرين الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون «اللهم بارك على سيدنا محمد»، يلف الطفل ويوضع فوق فرشة ناعمة أو فوق صينية فضية ويدور بين النساء الحاضرات اللواتى يتأملن وجهه قائلات «اللهم بارك على سيدنا محمد» و«ربنا يعطيك طول العمر» وغيرها من عبارات الدعاء، ويضعن عادة فوق رأس الطفل أو إلى جانبه منديلا مطرزا فيه قطعة ذهبية ملفوفة فى إحدى حافات هذا المنديل، وتعتبر هدية المنديل دينا مفروضا على الأم تجاه واهبته في أول فرصة سانحة› أو هورد لدين قديم مساو للقيمة الجوهرية نفسها.

تزين القطع المقدمة رأس الطفل سنوات عديدة كما تحصل الداية بدورها على هديتها بعد الانتهاء من نقوط الطفل. وتثبت فوق رأس المولود النائم خلال الليلة التى تسبق «السبوع» دورقا مملوءا بالماء إن كان الولد ذكرا أو قلة إذا كانت أنثى ويلف عنق قنينة الماء هذه بمنديل مطرز، وتحمل الداية القلة أو الدورق فوق صينية وتجوب بها بين النساء اللواتى يضعن النقوط لها «ويقتصر على المال» فيها وفى المساء يقيم الزوج حفلة لأصدقائه مشابهة للحفلات الخاصة الأخرى(٤٢).

دفعنا ذلك إلى قراءة رواية شهود آخرين عما شاهدوه فى يوم السبوع أحدهم مصرى هوالدكتور مصطفى فهمى، ويحكى مشاهداته عن الواحات الداخلة حيث زارها للعمل كطبيب عام ١٩٠٥ والثانى كان باحثا أجنبيا اسمه S.H. Leeder كتب عن أقباط مصر فى صعيدها عام ١٩١٤ والثالثة انثروبولوجية بريطانية هى الآنسة «وينفريد بلاكمان» وكتابها تحت عنوان «فلاحو الصعيد» وقد جمعت مادتها فى الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦م.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذكر الدكتور «مصطفى فهمى» ما كان يحدث عندما تلد المرأة ذكرا أو أنثى ، يقلى لها بيض فى سمن تأكله مع قابلتها ويسمى «دحى الملوك» ثم يذبح لها فرخة مباشرة تشرب خلاصتها ، وتأكلها بمفردها لتحل محل المولود فى بطنها حسب اعتقادهم . وبعد قليل تعمل لها الحلبة بالبلح أو بعسله لتطرد الدماء الفاسدة على فكرتهم . وتمضى بعد ذلك بقية أسبوعها كحياتها المعتادة فى المأكل والمشرب . وفى الليلة السابعة يحتفل بالمولود فيوضع عند رأسه أبريق من فخار مملوء بالمياه يوضع فى طست به ماء ثم يؤتى بسراج من الفخار به سبع فتائل عائمة فى الزيت ، وتشعل هذه الفتائل بعد تلقيب كل منها باسم ذكر أو أنثى حسب نوع المولود فآخر فتيلة تبقى مشتعلة يلقب الطفل باسمها ، وبعضهم يكتب سبعة أسماء فى سبع ورقات تلف ويخرج واحدة منها رجل يعتقدون فيه الصلاح ، ويسمى الطفل بالاسم الذى فيها .

وفى اليوم الثانى(٤٣) تغربل القابلة الطفل فى غربال من قمح أو أرز طارقين فى الأثناء على هون أو حلة من نحاس ، ثم بعد ذلك تأخذه وتطوف به سبعة منازل عند الأحباء راشة الأرز أو القمح فى طريقها وداخل كل منزل(٤٤) .

أما ليدر Leeder فيروى عن السبوع لدى المصريين الأقباط بالصعيد ، حيث كان هناك عام ١٩١٤م فيقول : «تعتبر الليلة السابقة هى المناسبة الأولى التى يأخذ فيها الوليد حماما ، ويحتفظ بالمياه التى استحم فيها الطفل ، فى ماجور «إناء كبير من الفخار» ويؤتى بإبريق كبير من النحاس لغسل الأيدى ، ذلك إذا كان المولود ذكرا ، وقلة من الفخار إذا كانت المولودة أنثى .

وفى كلتا الحالتين ، يزخرف الوعاء بزخارف مميزة تشير إلى جنس المولود فالإبريق يزين بطربوش أحمر أو غطاء للرأس وساعة وسلسلة . والقلة بمنديل وحلق وأى حُلى نسائية تشير إلى ثراء الأبوين . وحول حافة الإبريق أو القلة توضع ثلاث شمعات وعادة يكون عددها سبع شمعات حين يشعلن معا ، ويختار الأبوان والأصدقاء ثلاثة أسماء يطلق





على كل شمعة اسم. والشمعة التى تستمر مشتعلة بعد انطفاء الشمع الآخر، يسمى المولود بالاسم المطلق على هذه الشمعة.

وتعتبر القابلة أهم شخصية فى هذه الاحتفالات، وتُحضرُ القابلة كميات قليلةً من مختلف أنواع الحبوب كالقمح والذرة والفاصوليا والعدس وغيرها وتقسم هذه الحبوب إلى أقسام كل قسم يشتمل على كل نوع منها وتضيف إليها بعض المكسرات، وتضع قسما منها فى الإبريق أو القلة وقسما آخر تضعه فى قطعة قماش وتضعها فى وسادة أو كيس مخدة، ولابد من نوم الطفل على هذا الكيس، والقسم الثالث يُلَفُّ فى قطعة قماش ويوضع تحت المخدة التى تنام عليها الأم.

فى الصباح يؤخذ الطفل من سريره، ويوضع فى الغربال، ويهز بالضبط كما يهز القمح، حينئذ تأخذ القابلة هاونا من النحاس الأصفر وتقترب من الطفل، وتدق الهاون بأعلى صوت ممكن قائلة فى أذن الطفل: اسمع كلام أبوك، وبدقات أخرى تقول: اسمع نصائح أمك، وتخطو الأم ثلاث مرات فوق الطفل الذى ينام فى الغربال. وبعد ذلك يؤخذ الإبريق أو القلة من الإناء ويرش الماء الذى فى الإناء فوق عتبة الغرفة. ويحاول كل الضيوف خطف بعض حبات الفول من الإناء واضعين مكانها بعض النقود كهدية للقابلة، وتضع كل سيدة حبات الفول التى أخذتها فى كيسها كحجاب ضد الفقر.

كما يتجمع الأطفال معا، ويعطى كل طفل شمعة طويلة ويبدأون من الحجرة التى بها الطفل المولود، ويتغنون بأغان تقليدية للأطفال فى الشرق، وفى أغلب الحالات تكون الأم فى ملابس بيضاء حاملة طفلها فى حضنها. وأحياناً تقود القابلة الأطفال ناثرة الحبوب والملح فى الطريق، ومن وقت لآخر يوجه الأطفال الأغانى للطفل المولود مستخدمين أيديهم وأرجلهم واقفين فى دائرة. وعندما ينتهى الموكب من زيارة كل غرف المنزل، تعود الأم ومعها طفلها إلى غرفتها حيث تترك لكى تستريح.

ولهذه المناسبة أيضا يقوم أجداد الطفل من جهة الأم بعمل حلوى فى منزلهم وكيك تسمى Kumaga كماجة، ويرسلونه مع كميات من المكسرات كالجوز واللوز للأسرات التى لها علاقة بهم.

ولايسمح للأم بمغادرة المنزل قبل أربعين يوما من تاريخ الولادة، حيث تزور الحمام وعندئذ تصبح حرة من أى قيد(٤٥).

وتصف الانثروبولجية الانجليزية «وينفرد بالكمان» السبوع ضمن موضوعات كتابها «فلاحو الصعيد» والذى استمرت تجمع مادته لمدة ست سنوات تقريبا فى الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦ فتذكر أنه:

«فى اليوم السابع تحضر القابلة وتغسل الطفل وكذلك الأم. ومياه الاستحمام هذه تكون مجهزة من اليوم السابق حيث توضع فى إبريق معدنى موضوع فى طشت وكلاهما يوضع بجوار الأم ووليدها، ويطلق على هذه المياه مياه البركة.

وتذكر أن سبحة الأب تلف على الإبريق بينما يربط منديل أخت المولود على فوهة الإبريق وذلك إذا كان المولود ذكرا وإذا كان المولود أنثى تضع الأم عقدها الذهبى ومنديلا حريريا حول القلة. وقد قيل لها إن هذا التزيين، إنما هو لإرضاء الملائكة، حتى لاتؤذى الأم أو طفلها، والملائكة هنا هم قرناء الأب والأم والوليد، وبعد استحمام الطفل يشرب الماء المتبقى فى الإبريق رجل معمر حيث يعتقد أن هذا يجعل الطفل يبلغ سن الرجولة.

فى ليلة اليوم السابع يؤتى بسلتين أو ثلاث تحتوى على ملح، فاصوليا، حبوب الحلبة، عدس، قمح، نبات يشبه البرسيم وذرة وتوضع فى الحجرة التى بها الأم وطفلها، وأحياناً تملأ أحدى السلال بخبز غالبا مايكون على شكل حلقات «كعك» وفى أحد هذه السلال يوجد غربال كبير حيث ينام الطفل فيه طوال الليل. وعندما تأتى القابلة فى صباح اليوم التالى، تكون الأم قد أخذت بعض الحبوب من إحدى السلال وغسلتها ووضعتها فى الغربال حيث يوضع عليها الطفل. حينئذ تهز القابلة الغربال بالطفل. وفى نفس اللحظة تضرب الأم على حافة طشت معدنى بكوز صفيح. وأعتقد أن لاتقوم بهذا الطرق فى كل الحالات، ولكننى شاهدتها فى احتفال كنت به. ويهز الطفل فى الغربال عدة مرات. وتعاد الحبوب التى فى الغربال إلى السلة. وتأخذ القابلة الطفل حينئذ على ذراعيها وتغطيه بقماش قطن أبيض، وقطعة القماش هذه تكون موجودة فى أحدى السلال التى بها الحبوب. ثم يحمل الطفل إلى كل غرف الطابق الأرضى وأيضا خارج المنزل، وفى هذه الأثناء تنشر القابلة بعض الحبوب حيثما تسير مرددة الصلاة على النبى.

ثم يؤخذ الطفل مرة أخرى إلى حجرة الأم حيث تكحل القابلة عين الطفل بالكحل الذى أحضرته معها. ويتم تكحيل عينى الطفل بأن تغمس القابلة الريشة فى الكحل، وتفتح عين الطفل وتمرر الريشة عبر كل عين فى حركة دائرية. وتأخذ القابلة كأجر لها ملء سلة كبيرة من الذرة وبعضا من الخبز والتمر والنُّقل وأحيانا بعض النقود ويعطى غالبا للأب بعضا من الحبوب وقدرا من الملح لينشرها فى حقله كتعويذة أو رقية سحرية، حيث يعتقد أن ذلك يجعله يحصل على محصول وفير.

وفى بعض مناطق مصر العليا تضع القابلة فى اليوم السابع خليطا من عصير البصل والملح والزيت، وعادة بعض الكحل ثم تأخذ الفرشة وتغمسها فى الخليط وتفتح عين الطفل وتمر بالفرشة فيها من اليمين، اعتقاداً بأن هذا سيعطى الطفل عيونا واسعة مفتوحة مليئة بالحيوية.

وتعتبر تسمية الطفل جزءا من احتفالية السبوع؛ فإذا كان الوالدان قلقين ولايعرفان أى الأسماء أجمل وأسعد لذريتهم فهم يتبعون التالى. تحضر عادة أربع شمعات وأحيانا تكون الأربع شمعات ملونة بألوان مختلفة ويكتب على كل منها اسم وتشعل الأربع شمعات مرة واحدة وآخر شمعة تستمر مشتعلة يسمى الطفل بالاسم المطلق عليها.

والأولاد الذكور يتمتعون بمكانة عالية عن البنات، فإذا كان المولود ذكرا تتخذ احتياطات كثيرة لتقيه شر العيون الشريرة وشر الحسد وأحيانا تُرش القابلة لكى تحتفظ بجنس المولود



سرا. وإذا أعطيت مالا كثيرا فإنها تعلن للفلاحين أن المولود بنت وقد قيل لى عن حالة امرأة لم تعرف هى أو زوجها جنس وليدها، لمدة تزيد عن الثلاثين يوماً.

وكمزيد من الحماية، أو زيادة فى الاحتياط من العين الشريرة يلبس الولد غالبا ملابس بنت لمدة عامين وبذلك يرسخ فى ظل الفلاحين أن المولود بنت(٤٦).

ويلاحظ فى وصف «دى شابرول» و«لين» وربما غيرهما ذكر للعوالم والغوازى، ويبدو أن هذا وصف مبالغ فيه، لأننا كما نعرف أن السبوع احتفال منزلى عائلى يقتصر على الأحياء - وغالبا لم يفرق هؤلاء الكتاب بين العوالم والأهل فكل من غَنَّى فى أحد الأحياء الشعبية فى مدينة القاهرة كنموذج لما يحدث فى هذه المناسبة بالمدينة عُدَّ من هذه الطوائف. يبدأ الاحتفال بالسبوع فى اليوم السادس حيث توضع صينية بها ماء وفول. وكل من جاء لمباركة أهل الوليد يضع بعض النقود المعدنية فى الصينية. والداية هى التى تأخذ هذه النقود ثانى يوم «السبوع».

أيضا إذا كان المولود ذكرا أحضر إبريق، وإذا كانت أنثى أحضرت قلة - الرمز مفهوم طبعا - ويكلل الإبريق أو القلة بعقد ورد أو سلسلة أو أى أشياء أخرى وتوضع فى هذه الصينية والقلة أو الأبريق وأيضا الشمع بجوار رأس الوليد. وتقطع سرة الوليد إذا لم تكن سقطت ويتم تحميم الوليد فى الماء وتلف السكينة والمقص الذى استخدم فى قطع السرة فى قطعة القماش «غياره» التى خلعها قبل الاستحمام وتوضع تحت رأسه، وحسب اعتقادهم فإن هذا يطرد الأرواح الشريرة، وأيضا توضع سبعة أنواع من الحبوب كالعدس، الفاصوليا، القمح، الذرة، لوبيا، بسلة، وغيرها. المهم أن يكون العدد سبعة بالإضافة للملح ويوضع هذا كله بجوار رأسه.

يشعل الشمع فى المساء ويستمر مشتعلاً حتى موعد نومهم، وإذا أرادوا إطفاءه يطفئونه باليد وليس بالنفخ، لأن هذا أيضا حسب اعتقادهم حرام. سابع يوم عصرا يبدأ التسبيع للوليد، حيث يؤتى بغربال، ويوضع فيه بعض من الحبوب السابقة وتفرش قطعة قماش، ويوضع الطفل فى الغربال ومعه الغيار والسكينة لكى تطرد الأرواح الشريرة والمقص يوضع الغربال على الأرض وتقوم الأم بتخطيته سبع مرات مع ذكر بعض الأقاويل، وذلك لكى يكتسب الطفل مناعة إذا تخطته أمه أو أى شخص آخر بعد ذلك؛ لأنه يمكن أن يصاب بمكروه.

بعد ذلك يهز الغربال، ويدفع فى الأرض برفق، وفى نفس الوقت يكون هناك سيدة تدق الهاون النحاس مع ترديد بعض العبارات وذلك حتى لايخاف الوليد بعد ذلك من الصوت العالى.

بعد الانتهاء من إلقاء النصائح أثناء دق الهون وهز الغربال(٤٧) تحمل الأم وليدها وتلف البيت هى ومن معها وبرفقتهن الأطفال ممسكون بشموع مضاءة وتتقدمهم القابلة أو أية سيدة أخرى ترش الملح الذى كان بجوار الوليد فى اليوم السابق مرددة كلمات لمنع الحسد وجلب السعادة، ويرددون ايضا الاغنية الشهيرة:

برجالاتك برجالاتك
حلقة دهب فى وداناتك(٤٨)
برجالاتك برجالاتك
حلقة دهب فى وداناتك

بعد هذه الجولة يعدن مرة أخرى حيث يوجد الغربال وتلتقط إحداهن الحبوب التى فى الغربال، وتنثرها على الأطفال، ثم تدحرج الغربال حيث يجرى الأطفال خلفه.

وتلك الدحرجة حسب اعتقادهم تجعل المولود نشيطا فى قابل حياته. ويعمل للمولود عقد من سبع حبات فول بالإضافة لكيس به السرة[٤٩] وبعضٌ من الملح وعملة معدنية لاعتقادهم أن هذا سيجعله كثير الرزق، وأحيانا توضع لقمة من العيش وسبع حبات أخرى غير الفول. ويعلق هذا الكيس أو الحجاب بعد انتهاء السبوع على صدر الطفل، وجدير بالذكر أن قماش هذا الكيس أو الحجاب لايقطع بمقص ولكن باليد، وأيضا لابد من أن يخيط باليد «الكفن لايقطع بمقص» ويستمر الحجاب مع الطفل إلى أن يكبر ويبلغ من العمر عاما فيفك الحجاب، وتعطى له القطعة المعدنية ليصرفها. وتقوم القابلة بعمل عدة عقود أخرى من الفول كل عقد به سبع حبات حيث يعطى للأطفال الذين يقومون بشبكه بدبوس على الصدر.

عند انتهاء حفل السبوع، وخروج الأطفال تقف واحدة على الباب ممسكة بعضا من الحب الذى كان فى الغربال، وكل طفل يخرج يأخذ بعضا من تلك الحبوب، ويتم تفريق السبوع وهو عبارة عن ملبس ونقل وأى أشياء أخرى على المدعوين.

فى بعض الأحيان يعمل أرز باللبن، ويتم توزيعه على الجيران «عشاء الملايكة»[٥٠] أما المياه التى كان بها الفول فتلقى تحت شجرة خضراء حتى تصبح حياة الوليد مزدهرة ولاتختلف مظاهر الاحتفال بالسبوع عند المسيحيين عنه عند المسلمين كثيراً، حيث إنه فى كثير من احتفالات السبوع يقود الحفل قابلات مسلمات عند المسيحيين، والعكس أيضا، وطبيعى أن يتوسل أصحاب كل ديانة بأنبيائهم وأوليائهم وقديسيهم أثناء الدعاء للوليد.

وهذه بعض العادات التى تمارَسُ فى بعض احتفالات السبوع لدى المسيحيين، وإن كانت تُؤدى أيضا لدى المسلمين.

عند تخطية الأم للغربال تمسك إحدى السيدات بسكينة فى يدها اليمين، حيث تكون الأم على يسار القابلة والسكينة بيمينها، وعندما تخطو الأم فوق الغربال تأخذ السيدة السكينة فى شكل نصف دائرى إلى المكان الذى كانت فيه الأم، ويستمر ذلك لسبع مرات وتقوم الأم بتخطية البخور سبع مرات أيضا.

فى إحدى الحفلات كانت توجد بيضة مسلوقة أعطيت لرجل كبير فى السن ليأكلها لكى يعمر الوليد مثله.

تم تكحيل[٥١] الوليد صباح اليوم السابع. وتسمى المياه التى فى الصينية التى بها القلة أو الابريق «ميه الملايكة»[٥٢].

وتروى إحدى المغنيات أن من قام بسبوع[٥٣] أختها سيدة مسلمة. أنها كانت تستحثهم على القيام بطقوس السبوع[٥٤] قبل غروب الشمس، حيث كانوا ينتظرون القسيس لكى يقوم بصلاة الطشت. وأرسل لهم القسيس طالبا إليهم أن يحتفلوا بسبوعهم فحضوره ليس ضروريا، حيث يمكن أن يقيم صلاة الطشت بعد ذلك. كما أنه لايعمل حجاب للطفل ولكن يعلق على صدره «قونه» وهى مصغر «أيقونة» عليها صورة للسيد المسيح عليه السلام أو السيدة العذراء عليها السلام أو مارى جرجس أو أى من القديسين. وتعتبر صلاة الطشت[٥٥] هى الممارسة المضافة أو الزائدة لدى المسيحيين، وتبدأ بأن يقوم القسيس بالصلاة على المياه الموضوعة فى طشت أو بانيو ويرش المياه بأن يرسم عليها علامة الصليب دون أن يلمسها. ثم يقوم بخلع ملابس الوليد ويضعه فى الماء. ويرش الوليد أيضا بالزيت المقدس، ثم يلبسه ملابس جديدة، ويسقى أى زرع أو شجرة بمياه الطشت.

وصلاة الطشت تعتبر دليلا مؤقتا للتعميد حيث إنه من المفروض أن يتم تعميد الطفل بعد

الولادة مباشرة، ولكن لأن الأم - فى حالة من النجاسة تستمر أربعين يوما فى حالة الولد وثمانين يوما فى حالة البنت - وتريد حضور تعميد وليدها فيؤجل حتى تكون كاملة الطهارة. ويستعاض مؤقتا عن التعميد بصلاة الطشت التى تحمى المولود من الشيطان الذى يحضر للمولود فى الأيام التى قبل التعميد، وفى القرى المصرية بعد الولادة يوضع بجوار المولود ملح ورغيف أو غربال ويستمر هذا الطبق بجوار المولود إلى اليوم السابع حيث يرمى لكلب يأكله، أو يلقى فى الترعة.

ويعتبر هذا بركة تحرس المولود ويبدأ السبوع أيضا من الليلة السابعة حيث يحضر أهل المولود السبع حبوبا «كما سبق» وملحا وشبه وفاسوخة للرقوة - يعتبر الملح مبروكا - ويوضع الملح والحبوب فى ورقة والشبة والفاسوخة فى ورقة أخرى، وتقوم القابلة بعمل الرقوة للملح والحبوب فتقول:

سميت بسم الله الرحمن الرحيم
مديت إيدى واتكلت على سيدى
مديت إيدى واتكلت على ربى
مديت إيدى اليمين
واتكلت على ربى الرحمن
بسم الله الرحمن الرحيم
الأوله بسم الله والثانية بسم الله والثالثه بسم الله والرابعة بسم الله والخامسة بسم الله والسادسة بسم الله والسابعة رقوة محمد بن عبدالله.

رقى ناقته من رفقه[٥٦] حط لها العليق ماضقته، كانت تنين صبحت تشيل بقدرتك ياعظيم، كانت عسير صبحت تسير بإذن الله الكريم، رقاها واسترقاها كلت عليقها، وشربت ماها قال لها يالعنة ياملعونة، ياخرابة الدور ياعمارة القبور حيدى عن ولاد الناس لاوديكى بحر الغطاس والب عليك بالرصاص، لاينعم ولا ينداس. قالت يامحمد يابن عبدالله خد على عهد الله لاأخون والخاين يخون الله، لاكون شب[٥٧] فى محراته أو عيل فى قماطه، ياشيال الحمول ياقطب الرجال. أنا بارقيكى والرب يشفيكى، أنا بارقيكى من كل عين تأتيكى. أنا بأرقيكى والرب يشفيكى، ياشافى ياعافى ياعالم بالظاهر والمخفى يكفيى شر من كان على الأرض يدب. ويمشى بسورة الإنس والجن والآفات والوحش ياكاتب الأكتاب، ياخالق الأرزاق تكتب بينا وبين الأذى حجاب. إذا اتعسرت ينزل فرج من السما يحللها، وإذا التوت ينزل فرج من السما يحلها. إطلعى ياعين، إطلعى ياعين، حدا الله بسفين، إطلعى ياكلبة الباب مفتوح. رقيتك واسترقيتك. رقيتك من عين الشقرة ومن عين البقرة ومن عين البيضة ومن عين السمرة ومن عين الطويلة ومن عين القصيرة ومن عين الغليظة ومن عين الرفيعة، ومن عين اللى شافوكى وماصلوش على النبى، ألف ألف بسم الله الرحمن الرحيم. إطلعى ياعين رقيتك بسورة يسن نزلت من رب العالمين، رقيتم بسورة (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) رقيتك بأربعة وأربعين سورة على كتافك منثورة، النفس عنك تطير كما طار النبى عن الشعير، النفس عنك تفترق، كما افترق النبى عن الورى، نبينا مليح وخده وضيح وريقه شفا اللهم صلى على المصطفى نبينا تسير المحامل إليه، اللهم صلى وسلم وبارك عليه إطلعى ياعين حد الله بسفين، إطلعى ياكلبة الباب مفتوح شرقى، غربى، بحرى، قبلى، أنا مقتصرة وعليك متكلة، أنا مقتصرة وعليك متكلة».

وفى صباح ذلك اليوم يتم رقوة الأم ووليدها بواسطة القابلة أو أى سيدة تجيدة هذا العمل. فيتم إشعال منقد، وتجلس الأم والوليد فى حجرها و تقوم القابلة بعمل

عروسة ورق ثم تقرأ نفس الرقوة السابقة، وبعد ذلك تمسك العروسة الورق وبدبوس معها أو إبرة وتبدأ تخريمها من عيون الناس الذين تعرف إنهم حاسدون قائلة:

رقيتك من عين فلان بن فلانه
رقيتك من عين فلانة بنت فلانة
رقيتك من عين اللى شافوكى
ولا صلوش على النبى.

وبعد ان تنتهى من تخريم العروسة تلمس الأم ووليدها تلك العروسة بادئة بالرأس ثم هكذا إلى أن تمر على جميع جسم الأم والوليد. وتكون النار التى فى المنقد قد صفيت فتضع المرأة الشبه والفاسوخة على النار وأيضاً قدراً من الملح حتى تطقطق، وتقوم الأم حاملة وليدها بتخطية المنقد سبع مرات، وفى هذه الأثناء تعد القابلة قائلة:

«بالصلاة على النبى واحد، بالصلاة على النبى اثنين، وهكذا إلى يابركة النبى خمسة، الصلاة على النى ستة، اللهم صلى على النبى سبعة. وتجلس الأم بعد ذلك. يتم تحميم المولود ويكون هذا أول استحمام له وتضع بعض حبات الفول فى صينية بها ماء وتحضر ابريقا أو قلة حسب نوع المولود «كما سبق» وتضع على الإبريق ساعة والقلة غويشة أو سلسلة. وفى اليوم السابع يشرب أحد كبار السن سواء كان رجلا أو سيدة من الأبريق أو القلة اعتقادا بأن هذا يجعل عمر الوليد مديداً وايضا تكون المكسرات وغيرها من الملبس والفول السودانى جاهزة لتفريقها كهدايا على الناس، ويوضع المولود فى غربال وتحته قطعة قماش حتى لايكون الغربال خشنا على الطفل. ويغربل الطفل بواسطة إحداهن قائلة: طاوع أمك، طاوع أبوك، طاوع عمك، طاوع خالك، خلى قلبك قوى، اللى ينادى عليك قول له نعمين»(٥٨). وهكذا يلقن الطفل كثيراً من نصائح وقيم المجتمع الفاضلة. وفى نفس وقت الغربلة يكون هناك من يدق فى الهاون(٥٩).

ويغنى الأطفال:

يارب ياربنا تكبر وتبقى قدنا
وتروح المدرسة وتبقى زينا
وأيضا يغنون قائلين:
سمو المولود عبدالله
وعيون سود عبدالله

ثم تحمل الأم وليدها، وأمامها القابلة أو قائدة هذه الحفل مارين بجميع أنحاء الدار ناثرين الملح والسبع حبوب قائلة أثناء هذا:

ياملحنا زرول عكسنا
ياملح دارنا كتر عيالنا
تبات تبات صبيان وبنات
ياملحنا زرول عكسنا(٦٠)

وتتم تلك الجولة بين أنحاء الدار لمنع الحسد وإبطال العمل، إذا كان هناك عمل، ولتعريف المولود بإخواته الآخرين «الجن والعفاريت» ويعطى للأم بعضٌ من هذا الملح تحتفظ به إلى أن تُربعن «أى يمر أربعون يوما» ثم تلقيه فى الترعة حتى يستمر لبنها فى التدفق كمياه الترعة الجارية. ويُعمَل حجابٌ للمولود يوضع به سرته وبعض من الملح المرقى وقطعة من الخبز. وبعض الناس ترمى بسرة «العيل» فى محل بضائع أو دكان كبير لكى يكون موفور الرزق والبعض الآخر يلقى بالسرة فى الترعة لكى يستمر لبن الأم متدفقاً يجرى كالماء. كما تلضم حباب الفول فى عقود كل عقد به سبع حبات ويعلق واحد للمولود والعقود الباقية تعلق للأطفال. وإذا حدث وخرجت الأم وتركت الوليد بمفرده لابد من ترك سكينة وقدر من الملح أو مصحف حتى لاتمسه الجان. كذلك لابد من خروج الأم بعد السبوع لكى تملأ أى وعاء بالماء من الترعة حيث يقال لها «اخرجى هاتى رزق العيل».

وقد ذكرت إحدى القابلات أن بعض

المسيحيين استدعوها لعمل سبوع لأطفالهم، ومايتم فى سبوع طفل مسلم هو نفسه مايتم فى سبوع طفل مسيحى والفروق هى أنهم يلقون بالنقود فى الصينية التى بها الماء والفول كنقوط لتأخذها القابلة، ويدعون بأدعية تستعين برسل وقديسى المسيحية، أما خلاف ذلك فكل مظاهر السبوع واحدة.

وفى بعض مناطق الصعيد فى ليلة السابع وتسمى ليلة «التبيتية» حيث يتم فيها الذبح، كل حسب مقدرته وتحضر القابلة فى هذه الليلة وتحمم المولود وتلبسه ملابس نظيفة. وتضع السبع حبوب والملح فى طبق فوق رأس الطفل والبعض يستخدم الإبريق أو القلة حسب جنس المولود. أما قبل ذلك فلم يكن يستخدمها أحد وتتم احتفالية السبوع تقريبا بنفس الشكل السابق والاختلاف فيما يلى:

أنه فى صباح اليوم السابع يتم توزيع جزء من الذبيحة ويحتفظ بالجزء الباقى لمن سيحيون المولد حيث يتم عمل مولد للطفل فى سابع يوم من بعد صلاة العصر عبارة عن ذِكر ومدائح نبوية.

يلصق بجبهة الوليد كف ذهب بالفاسوخة فى اليوم السابع. ويكحل الوليد أيضاً فى ذلك اليوم بكحل سائل.

تحضر السيدات هدايا معهن للسيدة الوالدة أو يدفعن نقودا وهذه ترد لهن فى مناسبتهن.

توضع سكين تحت مخدة الوليد لكى تبعد عنه الأرواح الشريرة.

وهناك فى أقصى جنوب مصر حيث الارتباط أقوى بين الإنسان والنيل والعزلة أشد والتمسك بالعادات والتقاليد أكثر، واتصال الناس بتراثهم أعمق، ويوجد النوبيون حيث تختلف المظاهر الاحتفالية للسبوع عندهم عن باقى المدن والقرى المصرية، فعندما تضع الأم وليدها تستحم وتغير ملابسها وتتكحل وتلبس طرحة بيضاء يجهز لها الحاصل[٦١] لتجلس فيه ولاتغادره هى أو وليدها لمدة سبعة أيام. حيث يوضع لها البرش[٦٢] لتجلس وتنام عليه وبجوارها طشت نحاس، به رمل ويوضع به المولود عاريا على الرمل، وحوله سبع شمعات مضاءة باستمرار، وعندما تنتهى يوضع غيرها. وتبخر الغرفة بالبخور[٦٣].

ويمكنك تخيل جمال هذا المنظر للغرفة المظلمة وبها سبع شمعات ترسل لهيبا خفيفا من الضوء، إنه لمنظر يبعث الرهبة والاحساس بالجمال فى نفس الوقت يعتبر الطفل خلال هذه الفترة ملاكا يباركه أى شخص ويسمى عليه ويداعبه من بعيد.

فى خلال هذه الفترة تحضر النساء لتبارك بالزغاريد ويقدمن النقوط الذى تأخذه الوالدة لانه يكون دينا عليها، ويكون بجوار الوالدة وعاء به ذرة فشار أو ذرة عويجة تأخذ منه السيدات اللاتى قَدِمْنَ للتهنئة وتنثرنه فى الحجرة وعلى الأم والطفل[٦٤] بركة، ويحضر الرجال أيضاء للتهنئة، ويعتبر نثر الذرة أو الفشار وقاية من الحسد وبركة.

ولايدخل الحاصل هؤلاء، بل يقفون بالباب والوالدة لتتقبل التهنئة على باب الحاصل وهم - رجل قادم من جنازة أو من رأى دما يُسال من طائر يذبح أو من أى شىء آخر وعليه أن يحضر قشة مبلولة بالدم، ومن رأى عقربة فيقتلها ويعلقها فى عصا أو جريدة وذلك لأنهم يتشاءمون ويعتقدون أن الولد يتأذى من ذلك. أما الأطفال فيعتبرون ملائكة حيث يدخلون ويخرجون وقتما يشاءون لايمنعهم أحد.

وفى اليوم السابع قبل غروب الشمس يبدأ موكب الاحتفال[٦٥]، فى زفة صغيرة تتكون من الأم حاملة المولود، ومعها القابلة وثلاث أو أربع سيدات إحداهن تحمل المديد «عصيدة»[٦٦] وجمع من الأطفال متجهون إلى نهر النيل مختارين مكانا مليئا بالرهبة.

عند الوصول إلى المكان المختار يجلس الأطفال والسيدات، تأخذ القابلة الطفل من الأم وتجلس على الشاطئ بجوار النهر ترسم القابلة بمرور المكحلة صليبا[٦٧] على جبهة الطفل من طمى النيل وتغسل للولد وجهه بسبع حفنات من الماء «لابد من سبعة» مع كل حفنة ماء تدعو بدعوات للطفل بالخير والمستقبل والرزق وغيرها والأطفال يردون عليها : آمين.

بعد ذلك يعطى الطفل للأم، وتأخذ المديد وتأخذ منه سبع حفنات بيدها، وتلقيها إلى النيل[٦٨]، ومع كل حفنة تدعو أيضاً باللغة النوبية وخليط من العربية والأطفال يقولون: آمين عقب كل دعوة. بعد الفراغ من آخر السبع حفنات، تعطى الصينية للأطفال الذين يتخاطفون مابها لأنهم يعتقدون أن أكل مابقى بها من مزيد هو أكل ملائكة، اكتسب صفة ملائكية بعد اخذ هذه الحفنات منه.

بعد أن يفرغ وعاء المديد تأخذه القابلة وتملؤه بالمياه من نفس مكان غسيل وجه الطفل، ويحضرون قحفا[٦٩] من النخيل أو يفتلون من سنابل القمح شبه مركب يوضع بها بعض قطع من ملابس الطفل معتقدين أن رائحة الطفل موجودة فى تلك الملابس وشمعة واحدة مضاءة ويضعون المركبة أمام شعاع الشمس الغاربة، وتدفعها القابلة فى الماء[٧٠] قائلة : روحى برائحة الولد فى عوالم الطهر وتأخذ فى الدعاء ويرد الأطفال: آمين.

تأخذ القابلة المياه التى فى وعاء المديد وتبحث عن شجرة قوية لكى يشب الطفل قويا مثلها وترميها على سبع مرات وتدعو أيضاً فى كل مرة والأطفال يقولون: آمين. وبهذا تنتهى مراسم السبوع فى النوبة. فيعمل السبوع فى اليوم التاسع[٧١].

ويرى البعض أن السبوع بهذا التغير وماسيصادفه من تغير مستقبلا سيتحول من طقس معتقدى إلى عادة وربما يصبح ذكرى.

عادة أخرى، هى إحضار إبريق أو قلة من الفخار، يرمز كلاهما لجنس الوليد كما سبق ولكن لماذا هذه الآنية الفخارية؟ هل لأن الإنسان خلق من طين والفخار من طين؟ هل لأنه الأداة الوحيدة التى يمكن أن يعلق عليها هدايا المولود ورموزه من ذهب وأساور وسبح وطواق ومناديل حسب نوع المولود كما أن الآنية التى يوضع فيها الماء الذى يشربه كبير السن وتوضع هى نفسها فى صينية الماء.

وفى التراث المصرى القديم أن آمون أوحى إلى المعبود[٧٢] المتكفل بتشكيل البشر أن يصور بدن الجنين[٧٣] من صلصال[٧٤] وهكذا نجد كثيراً من المرويات التى يأتى ذكر الفخار داخل نسيجها كالأساطير المصرية واستخدام الآنية الفخارية فى السحر[٧٥]، ولايمكن الجزم بأن استخدام الفخار له مدلول معتقدى فى احتفالية السبوع، وأيضا لانستطيع إرجاع المعتقد إلى مصر القديمة. فعند السؤال عن سبب استخدام الإبريق أو القلة تأتى الإجابة بأنها عادة، ولكى ترمز إلى جنس المولود.

ويلاحظ أن استخدام االقلة أو الأبريق لم يظهر فى حفل السبوع إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، ولم يأت ذكر لهما قبل ذلك فيما بين أيدينا من مصادر، ومن خلال البحث الميدانى نجد أن الرواة لم يذكروا سببا لاستخدام القلة أو الإبريق إلا أن هذه للأنثى وذاك للذكر كذلك نجد أن استخدامها ليس منتشرا فى جميع أنحاء مصر.

ويلاحظ وجود أو تركز استخدام القلة والإبريق فى وادى النيل باستثناء النوبة وصحراء مطروح، وأيضا توجد بعض القرى والمدن التى يستخدم بعض أهلها القلة والإبريق ولايستخدمها البعض الآخر من أهل القرية، أو المدن. ولانجد أمامنا تفسيرا واضحا لوجود

القلة والإبريق فى مناطق، وعدم وجودهما فى مناطق أخرى.

ويبدو أن استعمال تلك الأوانى الفخارية يرجع إلى الرغبة فى التزيين وإضافة لمسة جمال إلى المكان الذى به المولود وأنها أصبحت تُلَون بعد ذلك بألوان زاهية، وخصص للشموع أماكن حول كل من الإبريق والقلة ترشق فيها. ولم يكتف الصانع الشعبى بذلك فشكلت أياديه نماذج فى الشكل والحجم وتتماشى مع رغبة الطالب وذوقه ومقدرته(٧٦)، بالإضافة إلى أنها الآنية التى تعطى شكلا جميلا والملائمة للصينية التى توضع بجوار المولود ولحفظ الماء الذى يشربه كبير السن، فضلا عن إمكان إعلان جنس المولود باستخدام أيهما.

الماء

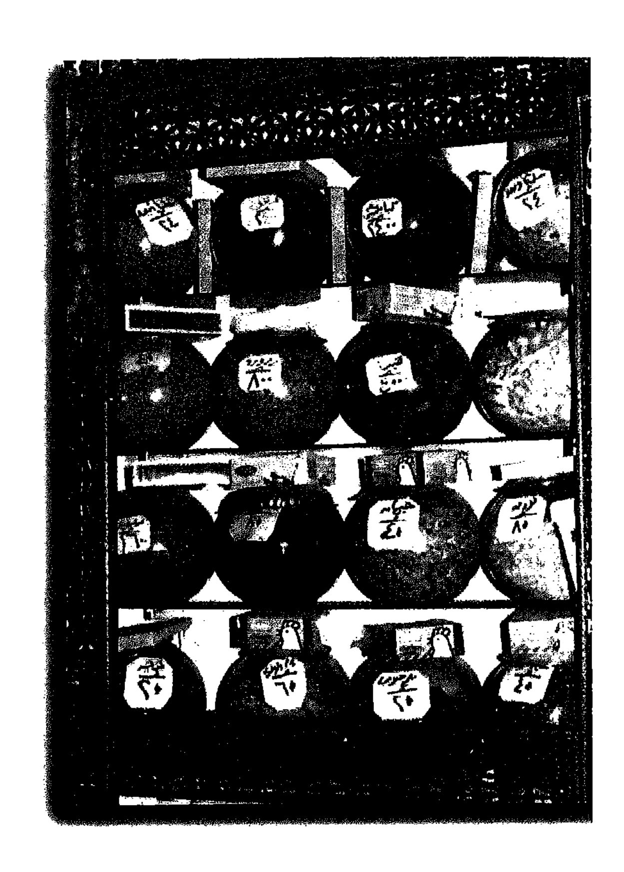
والماء عنصر أساسى فى احتفالات السبوع ففيه تلقى العملات المعدنية، وبه يسقى الزرع ويرش به داخل البيت وخارجه درءا للحسد وفيه يسبح زورق صغير جدا به قطع من ملابس المولود، كما شاهدناه فى النوبة، ولايخفى علينا ما للماء من أهمية فى حياة الإنسان. وطبيعى أن يستشعر المصرى أهمية وجود الماء بالنسبة للحياة.

وهذه الأهمية الحيوية والحياتية للماء تفسر لنا لماذا يلقى بالعملات المعدنية فى صينية الماء، لكى تكثر وتزداد، وتروى بتلك المياه شجرة أو نخلة حتى تحدث لها البركة، فتكثر ثمارها وإعلانا فى بعض المناطق بانتقال ملكية هذه النخلة إلى الوليد صاحب تلك المياه التى رويت بها. ويرش بها لمنع الحسد، فالماء الذى يتطهر به الإنسان لملاقاة ربه قادرٌ على درء شر الحسد.

الحبوب

استخدام الحبوب والملح فى ممارسات السبوع ليس بأمر مستغرب، فالمصرى الذى عاش حياته زارعا حاصدا لتلك الحبوب، التى هى غذاء له ولماشيته والتى هى مصدر الرزق والخير. ونعلم أن المصرى احتفى بتلك الحبوب فكانت تمثل مكانة مهمة لديه. ولذلك كانوا عندما تنحسر مياه الفيضان وتكون الحبوب معدة للبذر. يصنعون تماثيل صغيرة من الطين الرطب على هيئة أزوريس إله الأرض ورب الزروع، يخلط فيها الحبوب بالطين ويضعونها





على فراش فلا تمر بضعة أيام حتى تنبت البذور[٧٧]، وكانت الحبوب ومازالت إلى الآن فى بعض مناطق الريف خاصة القمح والذرة[٧٨] وسيلة نقدية للتعامل.

وقد لوحظ فى بعض حفلات السبوع تسابق الحضور للحصول على بعض من تلك الحبوب ووضعها فى جيوبهم، أو فى أكياس النقود التى معهم.

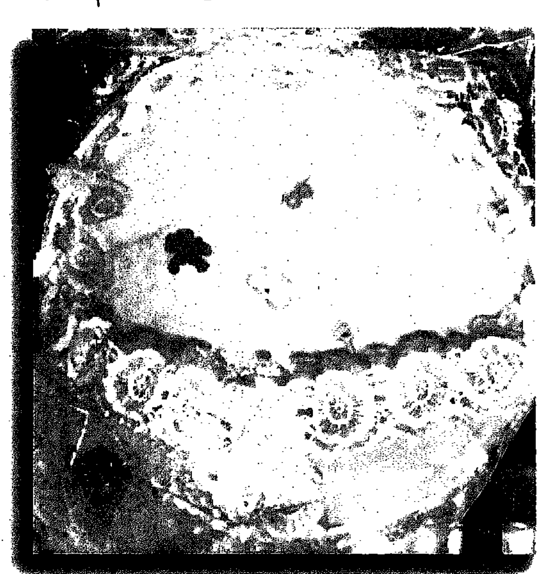
الملح

ويرتبط الملح بمناسبات كثيرة؛ إذ يعتقد المصريون أنه يطرد الأرواح الشريرة، فالملح من المواد التى يخشاها الجن، وتنفر منها؛ ولذلك توضع فى المكان الذى يراد ألا تحل فيه. أو داخل الحجاب الذى يعلق على الشخص المراد حفظه من أفعال الجن. كما يستخدم الملح أيضا وبصفة أساسية لمنع الحسد ومقاومة العيون الشريرة الحاسدة. وتكثر الأمثال الشعبية التى تشير إلى وظيفة الملح فى المعتقد الشعبى. ويبدو أن هذا المفهوم جاء من أن الملح مادة حافظة، ومن ثم فهو عندما يوضع أمام العين الحاسدة يحجب عنها الأشياء الجميلة. والملح إذا جاء فى العين فعلاً يجعلها تلتهب فيغمض الحاسد عينه فلا تقع على شىء يحسده.

الغربال

ويعتبر الغربال من الأدوات اللازمة لاحتفالية السبوع، والغربال كما فى اغلب مناطق مصر يغربل «يهز» الطفل، ويخبط فى الأرض برفق وهكذا عدة مرات، ثم يرفع الطفل من الغربال ويدحرج الغربال، وفى النوبة ينام المولود فى الغربال دون غربلة ويوضع فى الغربال تحت الطفل - خاصة فى المناطق الزراعية - قمح أو الحبوب السبعة، حيث يغربل بها الطفل وهذا يجعلنا نتساءل عن الهدف من وضع الطفل فى الغربال وهزه. لكى يصبح نشيطاً ودحرجة الغربال لكى يسعى وراء رزقه هكذا جاءت الإجابة متشابهة من الجميع.

وجدير بالذكر أن أول إشارة إلى استعمال الغربال فى تلك المناسبة ظهرت فى كتاب «لين» «المصريون المحدثون» فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولكن عمومية استخدام الغربال فى معظم أنحاء مصر من صحراوية إلى زراعية[٧٩] تجعلنا نجزم بأنه استعمل قبل ذاك بكثير.. ويبدو أن الهدف من استخدام الغربال

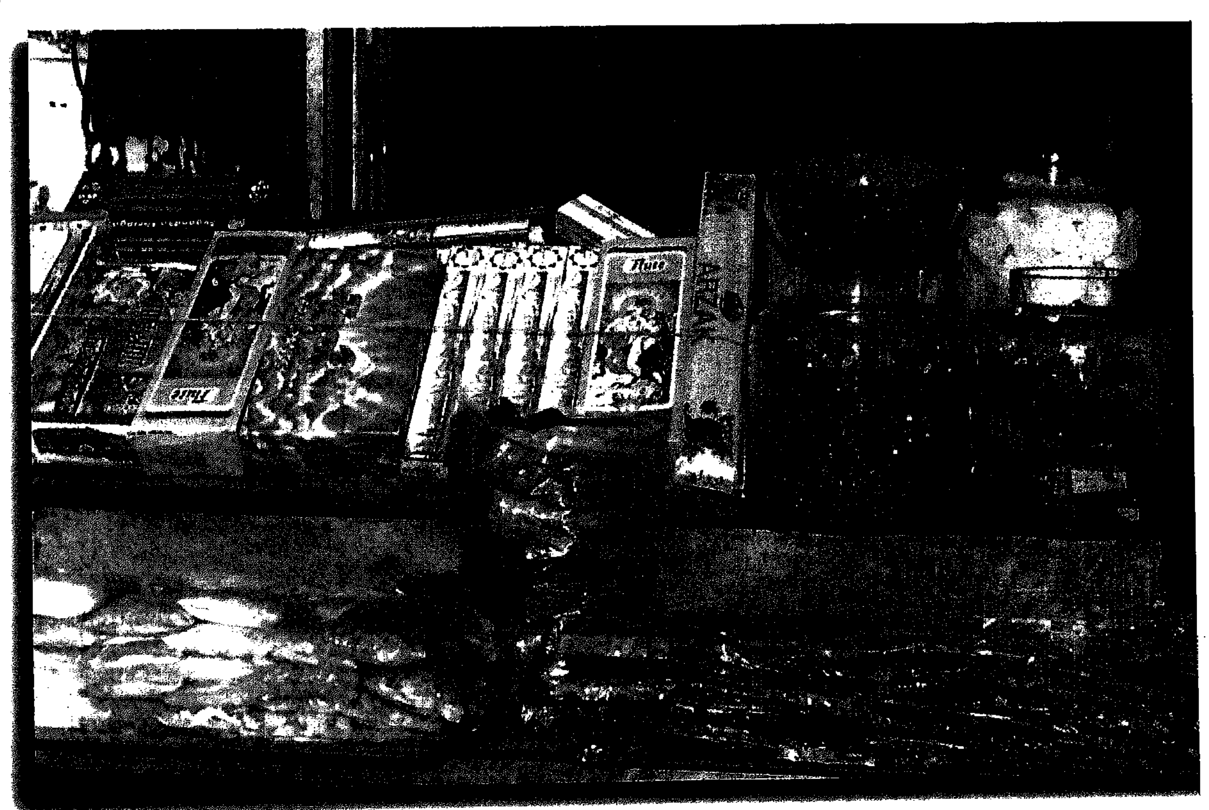




فى غربلة الطفل ينبع من وظيفة الغربال فى الحياة اليومية، فوظيفته تنقية الحبوب مما بها من مخلفات وشوائب، لكى تصبح الحبوب نظيفة، وربما كانت غربلة الطفل اعتقادا يقصد به تنقية الطفل من أى شر يحيط به، ومن أى عين حاسدة علقت به. أما وضع الحبوب فى الغربال تحت المولود، فيبدو أنها دعاء للوليد بأن يكون مالكا لخير كثير ورزق وفير أو كما يذكر «لين» أن الغربلة عملية نافعة لمعدته.

الهون

والطرْق فى الهاون أو وعاء نحاس من الممارسات المتممة لاحتفالية السبوع حيث يضرب بيد الهاون فى جوانبه أو جوانب الوعاء منبها للطفل جاذبا آذانه ليستمع إلى النصائح التى تتلى عليه. وهذا ماذكره الرواة. أم أن هذا الطرق كان يحدث لطرد الأرواح الشريرة ففى مصر القديمة كان الإله بس إله منزلى مشوه الخلقة، وكان حاميا للسيدات الحبالى، وللطفل المولود حديثا، فهو يطرد الأرواح الشريرة بعيداً عنهم. ويرى وهو يرقص أو يضرب على طبلة صغيرة مستديرة. والغرض من هذا أن يخيف الأرواح الشريرة، ويبعدها عن الطفل ووالديه، وكان يمثَّلُ على أسرّة النوم



وأدوات الزينة وغيرها، كما كانت التمائم المصنوعة على شكله تعلق حول العنق(٨٠).

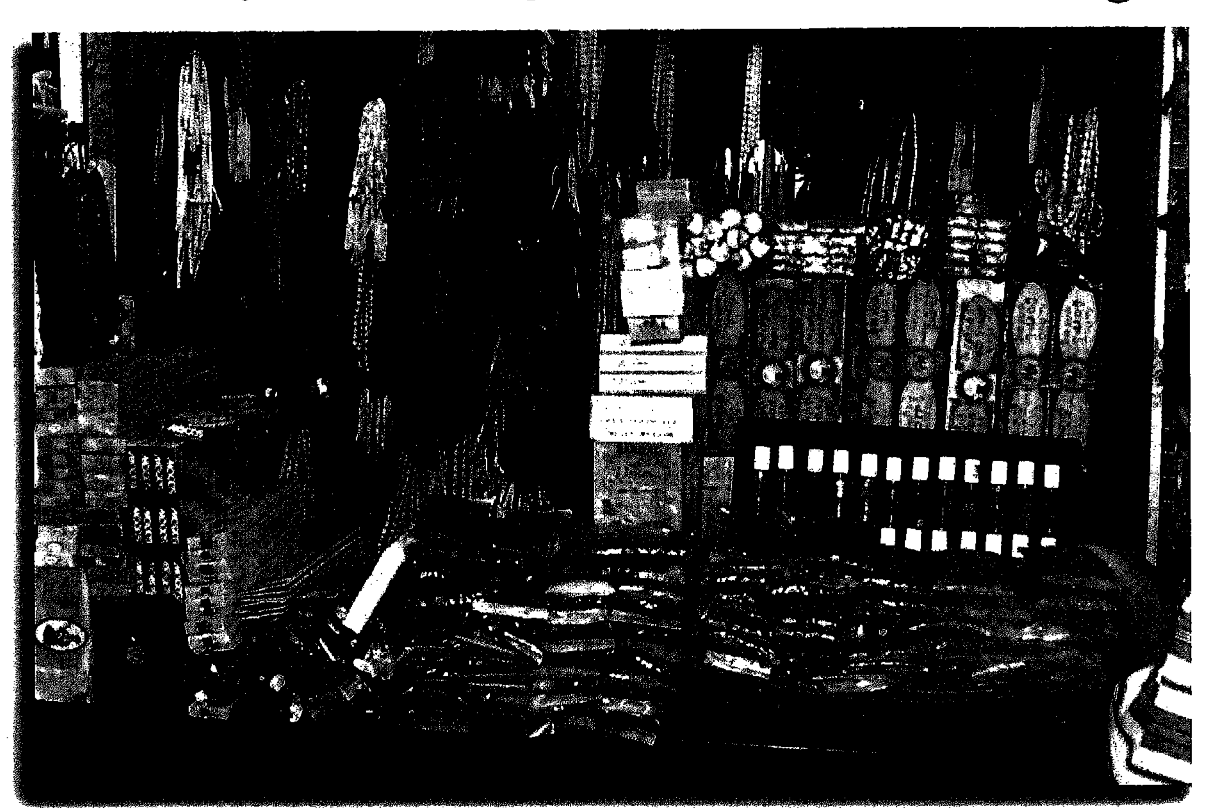
البخور

أما البخور فمعروف أنه استخدم من قديم الزمان فى المعابد المصرية القديمة وفى المساجد والكنائس والأديرة والمنازل.

والبخور أنواعه كثيرة، فمنه على سبيل المثال: اللبان الذكر - عين العفريت - الصندل - الكافور - الفاسوخة - الشبه - المستكه.

ويتعدد استخدام البخور فيستخدمه السحرة لاستحضار الجان، كما يستخدم لطرد الأرواح الشريرة وفى الأحجبة والتعاويذ وأيضا لبث رائحة جميلة فى المكان.. وأيضا فى احتفالية السبوع.

وإذا تركنا تلك المعانى والرموز والمعتقدات الكامنة خلف تلك الممارسات نجد أن السبوع يتميز بطابعه الاحتفالى، وهو الاحتفال الأول الذى يقابل به الوليد وتكون المشاركة فيه قاصرة على النساء والأطفال. وهو احتفال منزلى بمعنى أنه يقام بالمنزل وليس بأى مكان آخر عام أو خاص. وتتفاوت مظاهر الاحتفال حسب ثراء الأسرة، فالأسرة الثرية تكون احتفالاتها باذخة، فعلى سبيل المثال، بدلا من إلقاء عملات معدنية فى صينية الماء تلقى عملات ذهبية، ويزين المنزل بمختلف أنواع الزينات، وكأنه فرح عظيم. أما الأسر الفقيرة فاحتفالها فقير فى مظاهره. وإن كان فى ممارسته أقرب إلى الممارسات التقليدية الموروثة.



عادات الختان

يُجْمِعُ كلُّ مَنْ تناول الحديث عن المجتمع المصريِ وعاداته وتقاليده على مر العصور التاريخية، على أن عادة الختان عادة مصرية قديمة، وأنها من عوامل نظافة البدن التى ارتضتها الأديان السماوية(٨١)، ويذكر كلوت بك(٨٢) أن عادة الختان كانت عند قدماء المصريين إحدى الوسائل الصحية التي تقضى بها القوانين المدنية، وأنها استمرت متَّبَعَةً بعد ذلك لما ثبت عندهم من فائدة الختان من الوجهة الصحية، لأنه بقطع النظر عما يتطلبه الدين الإسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام من أنجح الوسائل لوقاية التناسل من الأمراض الكثيرة التى يكون القذر سببا لها.

ويصف عادات الختان التى رآها فى القاهرة خلال القرن التاسع عَشَرَ بقوله: وعلى الرغم من أنه لايوجد سن معينة لإجراء عملية الختان بالنسبة للأطفال، إلا أنه يجب إجراؤها قبل مناهزة الغلام سن الحُلُم، لأنه فى هذه السن يصبح مكلفا بأداء الصلاة، فإذا لم يكن قد تم ختانه، فإنه لايعد حائزا على شروط الطهارة والنظافة التى يقتضيها الشرع.

ويَذْكُر أنه كان من المألوف عند ذوى اليسار والبسطة فى المال أن يبالغوا فى تنسيق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم؛ فإنهم يؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم.

أما الغلام المراد اختتانه فيمتطى جوادًا مطهمًا بعد أن يُخْلَعَ عليه ثوب فاخر ويُعَمَّم بعمامة من الكشمير الأحمر. وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه اليلك والسلطة والكور والصوفة، ويضع على فمه بيده اليمنى منديلا مزركشا بالقصب. وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبى الحلاق الذى نيطَتْ به عملية الختان ممسكًا بيده الجَلَم وهو صندوق يحتوى عدة الحلاق وأدواته، يراد بجعله فى المقدمة الرمز إلى الغرض من الاحتفال، ثم يتلوه رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته.

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض، فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله. ولاسيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد، فإنهم فى هذه الحالة يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل. وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصة من الزمن بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه بنبيه أن يحفظ «المطاهر» ويحرسه لأهله ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الأطفال وغيرهم.

والعادة أن تتم عملية الختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل إلى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الحشفة بالموسى، ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم. ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المختون وإتحافه بالهدايا الجميلة. وبعد أسبوع من العملية يؤخذ إلى الحمام. والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختتن. فإن الناس ينظرون إليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة. ومن هذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين. وإذا كان غنيا عُنِىَ بتربيته وبتعليمه تعليما واسع النطاق. أما إذا كان فقيراً فإنه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها.

ويورد ج. دى شابرول وصفا للاحتفال بالختان لايختلف كثيرا عما ذكره كلوت بك وليس هذا غريبا على أية حال، فكلاهما ينتمى

إلى نفس الحقبة تقريبا، وإن كان دى شابرول يسبق كلوت بك فى التعرف على مصر وعاداتها[٨٣].

يقول دى شابرول: وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده، فإنه يقوده إلى المسجد وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ويصحبه فى جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية، ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده. وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة ثرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ، وعندما يعود إلى منزله، تقدم وليمة يدعى إليها كل الأهل والأصدقاء وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع القلفة بالموسى، ويوقف تدفق الدم بواسطة دواء قابض، وعندئذ يسارع المدعوون بتقديم الهدايا للمختون ولاتحضر النساء هذا الحفل، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل إلى المساجد. ويعدُون به ويُعتبرُ الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة، إذ يمكن القول إن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بحسبه فقط، لكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والزوجية، إذ يؤمر عندئذ بالصلاة، ويلقن العلوم والفنون. فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى؛ إذ يعامل بعد ذلك باعتباره رجلاً.

ويذكر أحمد أمين[٨٤] أن الختان عادة تشمل الذكور والإناث جميعا؛ فللاطفال حلاقون يتولون ذلك وللبنات «دايات» يقمن بهذه العملية، وقد يتولى الأطباء هذه العملية فى بيوت الأغنياء، كما يذكر ان العادة قد جرت على أن يكون الختان فى نحو السابعة من العمر، وأن المصريين يحتفلون به، ويؤلفون لهذا الغرض، موكبا يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون، ويركبون الغلام جوادا أو عربة بعد أن يلبسوه لباسا فخما، وأمامه الموسيقى أو الطبل والمزمار، وقد يزينون الولد بزى الفتاة الصغيرة، ويطوفون به فى الشوارع القريبة من بيتهم على هذه الحالة، وتقام مأدبة كبيرة، والعادة أن يختن الطفل عقب هذه الحفلة. والختان يفصل بين حياة الطفولة وحياة المراهقة. وكثير من الناس ينتهزفرصة زواج بنت أو شاب من الأسرة فيختن أولاده اختصارا للتكاليف، فيكون الموكب مكونا عادة من عربة للعروس وعربة للطفل المراد ختانه. وبعضهم يصحب الطفل المراد ختانه لزيارة أحد أولياء الله الصالحين، كالإمام الشافعى أو غيره، ويقام عادة احتفال كبير فى ساحة الإمام للختان العام الذى يشترك فيه عدد كبير، خاصة من أولاد الفقراء، ويكون هذا الاحتفال العام عادة عند فتح الخليج فى النصف الثانى من أغسطس أو الأول من سبتمبر، ويعتقدون أن هذا الوقت من أنسب الأوقات فقد خف الحر، ولم يهجم الشتاء بعد، وامتلأ الجو بالرطوبة مما يساعد على التئام الجرح. وقد جرت الطبقة العليا والوسطى على أن تلف القطعة التى قطعت من الولد فى منديل وتضع عليها ملحا حتى لاتعفن ويربط المنديل فى عنق الولد على شكل عقد، حتى إذا شفى من العملية، رماها فى النيل أو فى الخليج.

هذا ماراه أحمد أمين فى القاهرة خلال النصف الأول من هذا القرن. وهو ماانحسر أو اختفى إلى حد كبير الآن، إذ أصبح الختان يتم فى كثير من الأحيان على يد الطبيب، وفى سن مبكرة جدا، ربما قبل أن يكمل الطفل عامه الأول، كما اختفت هذه الظاهرة العامة للاحتفال.

أما فى القرى، فمازال لهذه المناسبة وضع خاص، وإن كان ما أصاب الاحتفال بها فى المدينة من تقلص، قد حدث مايشابهه فى القرية، وإن ظل القرويون وخاصة فى اطار العائلة يولون هذه المناسبة قدرا من الاهتمام

أكبر مما هو موجود فى المدينة الآن. وهذا وصف لما كان يتم فى القرى المصرية من مظاهر الاحتفال.

يعد الطفل ليوم الختان، فيحضر الحلاقون، وأقارب الطفل، وأصدقاء الأسرة، ويبدأون فى الإعداد للاحتفال، وكأنه حفل زفاف مصغر، فيقوم أحد الحلاقين بحلاقةشعر الطفل على أنغام المزامير، ودق الطبول والدفوف. وحلاقة الشعر فى هذه المناسبة لها شكل إذ يضع الحلاق فى أعلى رأس الطفل بعض المربعات والمستطيلات، وبعد الانتهاء من حلاقة الشعر، يستحم الطفل، ثم يلبسونه «جبة وقفطانا» أو «جلابية بيضاء جديدة» ويضعون على رأسه طربوشا مغربيا مزينا ببعض الأوراق المذهبة أو المفضضة على شكل أشرطة تحيط بالطربوش، ويسمى هذا الطربوش «طربوش المطاهر» وقد يلبسونه «عقالا عربيا» بدلا من الطربوش أو «طاقية مطرزة» ثم يضعون الطفل على ظهر فرس ذى سرج مزخرف، ويسحب الفرس كبير الحلاقين وتسير خلفهم إحدى قريبات الطفل من النساء المسنات، أو أخته الكبيرة، حاملة حلوى وكعكا، ثم يأتى بعدها الموسيقيون عازفو المزامير، وقارعو الطبول، وضاربو الدفوف.

يبدأ الموكب سيره من أمام بيت أسرة الطفل، ليدور حول البلدة مارا بشوارعها وحواريها، وكلما مر الموكب أمام بيت لأحد أقارب الطفل المحتفل به، توقف قليلاً، حيث يوزع الأقارب والأهل أكواب العصير والشربات على الموسيقيين، والحلاقين ومن يحف بالموكب من الناس ويقومون بدفع مبالغ نقدية صغيرة لكبير الحلاقين الذى يسحب الفرس «كنقوط» ويظل الموكب فى سيره بين زغاريد النساء والأغانى وصيحات التهانى، حتى ينتهى من حيث بدأ. وهناك يسحب الحلاق الفرس الذى يركب عليه الطفل، مبتعداً عن البيت متظاهرا بالغضب، لأنهم لم يكافئوه بما يستحقه، ولم يقدروه حق قدره، فيسرع فى إثره أهل الطفل وأصدقاؤهم يسترضونه، ويدفعون له بعض النقود، فيعود الطفل مرة أخرى إلى البيت، وينزله من على ظهر الفرس، ويسلمه لأهله بين غناء المغنيات من أخوات الطفل وقريباته وصديقات الأم. وتولم الولائم آنذاك للمدعوين، وتوزع الصدقات على الفقراء، وتمضى الليلة فى غناء ومرح.

ويخرج الموكب فى اليوم التالى مرة أخرى بنفس الطريقة ليدور حول القرية، مارا ببيوت الأقارب خاصة، الذين يقومون بإهداء الطفل بعض الهدايا التى قد تكون حمولة جمل من القمح والأرز، أو بعض الملابس والمأكولات، أو خروفا مثلا، وهم يزينون الجمل الذى حمل الحمولة بالمناديل الملونة التى تربط حول رقبته. ويعود الموكب مرة أخرى إلى بيت الأسرة، وهناك ينزلون الطفل من فوق ظهر الحصان، ويجلسونه على حجر أحد الحلاقين الذين كانوا يساعدون كبيرهم فى إجراء الختان. وتربط أم الطفل حول رقبتها منديلا كبيرا، يمسك كبير الحلاقين بأطرافه صائحاً «شوبش ياحبايب المطاهر» ويسمون هذه العملية «شنق أم المطاهر» وعلى أثر هذا النداء الذى يوجهه كبير الحلاقين إلى المدعوين والأقارب، يسارع هؤلاء بوضع نقود فى المنديل الذى شنقت به الأم، لفك الشنق عن رقبتها، وافتدائها ويدفع والد الطفل أو عمه أو خاله مبلغا كبيرا بالقياس إلى مايدفعه الآخرون كى يرضى كبير الحلاقين، ويطلق سراح الأم، وعندئذ يتركها ويتجه إلى الطفل الذى أمسك به حلاقان آخران ويقوم بختانه، ثم يأخذ بضع نقاط من دمه ليضعها على المنديل الذى مازال حول رقبة الأم. وتعلو زغاريد النساء مختلطة بالغناء والموسيقى، وبكاء الطفل وصراخه لتعلن إتمام

ختانه وعندئذ يصعد أحد قارعى الطبول إلى سطح البيت ليعلق عليه راية بيضاء، إعلانا عن إتمام الختان وتحققا للفرحة، واستبشارا بدوامها.

ويحدث فى أحيان كثيرة أن يقترن ختان الطفل بفُرس أحد إخوانه أو أخواته، أو أقاربه، وفى هذه الحالة تؤخذ بعض نقاط من دمه الذى سال لتوضع على حجر العروس لتبشيرها بالذرية والخلف الصالح، ومنعا لما يسمونه «بالكبسة» التى قد تحول بين العروس وبين الحمل فى اعتقادهم. وقد يقترن الاحتفال بختان الطفل فى إطار الاحتفال بذكرى مولد أحد الأولياء المحليين. ويغلب على الاحتفال فى هذه الحالة أن يكون احتفالا جماعيا يشترك فيه أكثر من طفل من الأسرة أو من القرية، كما يصبح من طقوس الاحتفال أن يذهب موكب الطفل إلى ضريح الولى التماسا للبركة، ودرءاً للحسد، وحماية من الأرواح الشريرة.

هذه الصورة للاحتفال لم تعد قائمة الآن على النحو الذى وصفناه، فلم يعد الموكب يتم على ذلك الشكل، واختفت التمثيلية التى يقوم بها الحلاق، وشنق الأم وافتداؤها، لكن الغناء والنقوط، والهدايا وما إلى ذلك، مازالت مستمرة، وتعبر الأغانى الشعبية التى تُغَنَّى فى هذه المناسبة عن كثير من هذه العادات سواء ما اختفى منها أو ما ظل مستمرا. فعلى سبيل المثال مازالت الأغانى تنسب ختان الطفل إلى «الحلاق أو المزين» رغم أن غالبية الناس يختنون أطفالهم لدى الأطباء فتقول إحدى الأغانى:

المغنية : خش الجنينة وهاته يامزينه[٨٥]
المرددات : خش الجنينه وهاته يامزينه
خش الجنينه وسمى عليه
وقلعه بدلاته يامزينه[٨٦]
خش الجنينه وهاته يامزينه
خش الجنينه وهاته . . تلاقى محمود
حلو عن رفقاته يامزينه[٨٧]
خش الجنينه وهاته يامزينه

فالحلاق هنا هو الذى سيأتى بالطفل، وهو الذى سينزع عنه ملابسه الجديدة، بعد إن يستعيذ بالله من شر الشيطان تفاؤلا وحرصا على إتمام كل شىء، كما يرجى له أن يكون وترسم أغنية أخرى صورة الختان فى خطوطها الأساسية، وأشخاصها القريبين من الطفل، وتدعو الحلاق إلى الرفق بالطفل، حتى لايمزق بكاؤه قلوب أهله:

يامطاهر ياصغير تحت السقيفه[٨٨]
- يامطاهر ياصغير تحت السقيفه
إقطع يامزين بايدك خفيفه
- يامطاهر الصبيان ياعثمانلى
طاهر محمود بشويش عليه وسمى[٨٩]
- يامطاهر الصبيان ياعثمانلى
وانقل دمه فى محارم تللى[٩٠]
- يامطاهر الصبيان ياعثمانلى
يامطاهر الصبيان يابهلول
وأبوه يقول سمى عليه هاتولى[٩١]
- يامطاهر الصبيان يابهلول

وفى كثير من الأحيان تغنى مع هذه الأغانى الخاصة بمناسبة الختان أو الطهارة، بعض الأغانى التى فى مناسبات الخطبة والزواج، خاصة تلك التى تتحدث عن العريس وزفافه، «فالمطاهر» يشبه العريس، والعلاقة وثيقة فى تصور الناس بين الختان والزواج، ومن الملاحظ أن هذه الأغانى لاتتعرض بالذكر مطلقًا لختان البنات على الإطلاق ولا تحتفل به.

عادات الزواج

وصف الرحالون الذين زاروا مصر، وعاشوا فيها خلال القرن التاسع عشر عادات الزواج والاحتفال به، خاصة فى القاهرة، فقد ذكر كلوت بك أنه[٩٢] «إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح، وللزواج فى مصر اتفاق خاص لايحتاج فيه إلى مصادقة من السلطة الدينية، ولا إلى اجراءات مامن جانب السلطة المدنية. فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين، وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغًا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك. فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله «زوجتك إياها» فيجاوب هذا: «قبلت» وكثيراً مايتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج إلى القاضى فيفوضان إليه الرضا والقبول، ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية.

وبتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر. وليست المرأة فى مصر هى الملزمة بأدائه إلى الرجل، لأن الشريعة الإسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق إلى المرأة. وهذا الإلزام غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة. ويقدر الصداق عادة بالريالات.

ومما يشترط فى عقدالزواج أن تقبض العروس من المهر عاجله أى الثلثين من مجموعة ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها، وبدون أن يحاسبها زوجها عليه. أما الثلث الباقى وهو الآجل فيبقى فى ذمته كالاحتياطى لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها.



أحد مظاهر الاحتفال بالزواج بالقرية المصرية

حفلات الزواج

وتقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضا من الخطيبين، وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لاتتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شَوَارها. وقد يقدم العريس إليها بعض الهدايا أثناء ذلك والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنين والجمعة على الأخص.

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنحصرة بين فيضان النيل وشهر رمضان.

وفى الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو ثلاث الليالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية إليه من الحى الذى يسكنه، وتقام المآدب يدعى إليها أقرباؤه وأصدقاؤه.

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهراً لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقريباتها وجاراتها. ويُعَدُّ من الأعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليومُ المعيَّنُ لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية ويزال شعر بدنها للمرة الأولى فى حياتها. ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها. ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ماتتجمل به المرأة من ضروب الزينة والبهرج ومتوجة بتاج جميل تحت ظُلَّة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال، ويتقدّمها الموسيقيون والراقصات والعالمات.

وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل. أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضًا فى مثل هذا المظهر ويقضى به يوما بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه.

وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان إلى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالأجرة فلا يغشاه أحد من جمهور الناس.

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف، سارت العروس إلى بيت عريسها فى موكب حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها إلى الحمام. وتسير فيه أيضاً جواريها بعضُهُن



حاملات أوعيةً تتضمن أدوات زينتها وبَهَرجها ومصوغاتها. والبعض الآخر يقمْنَ بإحراق البخور فى المباخر بينما بثَّثْ نساءٌ غيرهن فى الفضاء صيحات حادةً تسمى بالزغاريد..

ويوالى الموكب السّير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لإذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور فى بهجة ا حتفاله.

ولدى عودة العروس إلى الحرم المعد لإقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصفوف العديدة من شهى الطعام فتجلس إليها للأكل مع صويحباتها قريبات وجارات. أما العريس



مراسم الزواج بالكنيسة

فلا يحضر هذه المائدة بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا إلى المنزل لتناول الطعام معاً. وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها.

عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل. وهذه الآونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الإنسان. لأنه يتأكد بعينى رأسه إذا كانت الأحلام التى مافتئت تناوشه وتداعبه، منذ تحرير عقد القرآن، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق.

هذا الشكل من أشكال الاحتفال بالزواج، كما وصفه كلوت بك، ربما كان هو الشكل الشائع فى المدن المصرية، لدى الطبقات العليا من المجتمع، القادرة على استئجار المغنين والراقصات، بالإضافة إلى وجود بعض العادات التى لاتعرفها المجتمعات الشعبية القروية، مثل الذهاب إلى «الحمام العام» مثلا.

ولاحظ كلوت بك، أن المصريين يبكرون بالزواج، وأن الدافع الأساسى على هذا هو حرصهم على النسل، وأن الآباء قد يخطبون لأبنائهم عرائس وهم مازالوا أطفالاً.

وقد وصف رحالون آخرون عادات الاحتفال بالزواج التى نظروا إليها على أنها من أهم الاحتفالات القديمة العريقة بالنسبة للشرقيين، يحرص عليها الناس، ويتوارثون الاحتفال بها جيلاً بعدجيل، كما ذهبوا إلى أن الزوج لايختار زوجته عن عاطفة أو حب، وإنما من أجل المنفعة(٩٣).

وعند الزواج تقوم العروس بتخضيب قدميها ويديها بالحناء، وتذهب إلى الحمام فى موكب كبير، وينشد المغنون الأغانى، ثم يقام احتفال كبير فى الليل يستمتع فيه الناس بالغناء ورقص العوام. وكان معظم الرحالين حريصين على حضور احتفالات الزواج. فكتب «نرفا» Gerard Neral أنه وجد حشداً كبيراً وشبه الزحام وصعوبة التعرف على الشارع المقام فيه الاحتفال بقصر التيه، حيث العديد من



فرح شعبى

المصابيح المضاءة، والعروسان يسيران وسط المشاعل، والأطفال يحملون الشموع والراقصون أمامهم. هذا وقد سارت العوالم والمغنيات والغوازى يرتدين ملابسهن من الحرير المقلم، وعلى رؤوسهن طرابيش مذهبة ووجوههن مكشوفة، ويصاحب العازفين طابور طويل. ثم اصطف العبيد خلفهم والنساء فى الوسط بملابسهن الطويلة السوداء يخفين وجوههن بالنقاب، وقد أخبر المترجم المصاحب «لجيرار» بأن المصريين يحرصون على ارتداء أجمل الملابس فى الأفراح حتى الفقراء منهم. أما العروس فكان جسدها مغطًّى بالملابس الطويلة من الكشمير وحولها اثنتان من النساء تمسكان بيديها، ويسير الجميع ببطء شديد وبدت لى العروس وكأنها تخشى الانزلاق والوقوع. ثم جاءت العوالم فَرَدَّدَت الأغانى ثم شرب الحاضرون مشروباً لونه أحمر غريب محلى بالسكر، وجاء العريس الذى هلل الناس عند رؤيته وجلس مع الرجال فى الدور الأراضى، وبدأت الولائم بالأصابع، ولم يتوقف الغناء ولا الرقص، وقد أعجب «جيرار» بمجموعة من الراقصين النوبيين وعالمة ثم أخذ العبيد يرشون نقوداً صغيرة على النساء وتستمر احتفالات الزواج ثمانية أيام.

أما فلوبير Gustave Floubert فقد أضاف رأيت الطبالين فوق ظهور الحمير، والعبيد فوق صهوات الجياد، مرتدين ثياباً باذخة، والنساء محجبات بملابس سوداء يطلقن الزغاريد كما شاهد فلوبير مجموعة من المصارعين تؤدى ألعاباً وحركات غريبة ومجموعة أخرى من اللاعبين يتبارزون بالعصى، وراقصا ارتدى ثياباً نسائية مطرزة وأسدل شعره المضفر على منكبيه، وزَجَّجَ حاجبيه وألصق بظهر سترته دنانير مذهبة وشد حول وسطه حزاماً من تمائم مربعة مذهبة.

كما يوجد فى الأفراح المغنون والمنشدون الذين يمرون من مدينة لأخرى، يغنون عند تجمعات الأفراح والاحتفالات يروون قصص وروايات أبو زيد وعنتر بن شداد، وقد أطلق عليهم «الرواة».

ولم تقتصر كتابات الرحالين على احتفالات الزواج فى القاهرة والمدن المصرية المختلفة وإنما اهتموا بتسجيل تلك الاحتفالات لدى النوبيين فى أسوان خاصة لدى الدناقلة فوصف كادلفين Edward Cadalevene تلك الاحتفالات بقوله :

«يرقص النوبيون على شكل حلقات بينما يتولى المدعوون التصفيق جالسين على الأرض، ويمكن القول بأن رقص النوبة رقص جماعى ممتع . أما عن العروس فيتم دهن جسمها بنبات له رائحة نفاذة وتجدل شعرها ضفائر صغيرة ويدهن بالعنبر ويزين بالعاج ويتولى تزيين العروس سيدة متخصصة فى ذلك، ويعقد الزواج أمام القاضى، ولابد أن يحضر العريس عقداً من الذهب وأساور وحلقات ذهبية، وإذا لم تعجب العروس الهدايا فيمكنها أن تردها . وعند إتمام الزواج يتم ذبح ثلاث بقرات وعدد من الأغنام وتوزع لحومها . وتخرج العروس على رأس موكب ويرتدى العريس القفطان بينما تنطلق الزغاريد وتوزع اللحوم والبلح ثم تقوم أم العروس بقراءة الفاتحة وفى اليوم التالى يأتى المهنئون، وتستمر الاحتفالات عدة أيام ولايتوقف الرقص والغناء حولها .

ولعل مايعنينا هنا هو الإشارة إلى ماوُصفَ به اختيار الزوج لزوجته على أساس مَن المنفعة، لا على أساس من حب أو عاطفة أو توافق فى الطباع والأفكار؛ فالمنفعة هنا ترتبط برؤية المجتمع للزواج على أنه هو السبيل الوحيد لتكوين أسرة، وإنجاب أبناء على الصعيد الاجتماعى، بالإضافة إلى الوظائف الأخرى التى يؤديها تكوين أسرة على الصعيد الاقتصادى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن السن المبكرة التى يتزوج فيها كل من الفتى والفتاة، لم يكن يتيح لهما تكوين علاقات من أى نوع، ولذلك شاع لدى المصريين القول بأن «الجواز عشرة» أى أن الزواج حياة مشتركة تتوثق عُراها بين الزوجين بعد الزواج لا قبله .

اختفت فى المدن الآن كثير من تلك المظاهر



يرقص النوبيون على شكل حلقات فى رقص جماعى

الخاصة بالاحتفال بالزواج خلال القرن التاسع عشر، وإن ظل جوهر الاحتفال بما يحيط به من جو يفيض بالفرح، وما يتضمنه من غناء وموسيقى ورقص وولائم يدعى إليها الأقارب والأصدقاء دائماً.

وتختلف مظاهر الاحتفال بالزواج فى المدن عنها فى القرى، كما تختلف فى المدن ذاتها بين من ينتمون إلى الطبقة الموسرة، وبين أبناء الطبقات الوسطى الصغيرة، والدنيا فى الأحياء الشعبية. فتقيم الطبقة الموسرة، والطبقة الوسطى العليا احتفالاتها بالخطبة والزواج فى أحد الفنادق الكبرى، إذ تستأجر قاعة تسع مئات المدعوين، ويُحيى الحفل مغنون مشهورون وراقصات مشهورات أيضاً، ويقدم العشاء الفاخر للمدعوين، ويدل مستوى الطعام ودرجة شهرة المغنين والراقصات على مركز أسرتى العروسين الاجتماعى والاقتصادى. ويبدأ الاحتفال عادة بعد التاسعة مساء ليستمر حتى الساعات الأولى من الصباح. أما الأسر الأقل ثراء، خاصة فى الأحياء الشعبية، فتحتفل بالمناسبة فى منزل العروس فى حالة الخطبة وتقديم الشبكة، وفى منزل العريس أو فى سرادق يقام أمام منزله أو قريبا منه عند إتمام الزفاف. وتحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية، ونمط الحياة فى المدينة، نوعية المدعوين ومدى مشاركتهم فى الاحتفال، وكيفية هذه المشاركة. أما فى القرى والريف عامة حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً، ومن ثم فإن الصلات التى تقوم بينهم بحكم صغر المجتمع، وتجاورهم معًا فى السكن أو فى العمل فى الحقل أو أثناء الصيد - تكون وثيقة أكثر منها فى مجتمعات المدن التى تتشعب فيها العلاقات الاجتماعية، وتتعدد، نظراً لكبر حجمها، واتساع رقعتها، وتنوع الأعمال فيها، ومن ثم تبقى فى نطاق ضيق لاتتعداه، ولا تصل إلى عمق العلاقة التى تقوم بين الأفراد فى المجتمعات الريفية التى تعتمد أيضًا أكثر ماتعتمد على العصبية، وروابط الصهر والنسب.



تقيم الطبقات الموسرة احتفالاتهم بالزواج فى الفنادق الكبرى

وتتحكم هذه الظاهرة فى كثير من العادات والتقاليد المرتبطة بالحياة فى هذه المجتمعات فالفرح يعم المجتمع كله، ويشترك فيه، ويسهم كل فرد منه فى الاحتفال به حسب درجة القرابة والصداقة للمحتفلين، والحزن كذلك يخيم على المجتمع كله، وتتساند الجماعة كلها فى تعزية المصاب والتخفيف من حدة الألم، وإذا كان الفرح والحزن يقفان على الطرفين المتقابلين فى الحياة فإن الرحلة التى يقطعها الإنسان منذ ميلاده يكاد يتقاسمها هذان الشعوران، ويصدر الإنسان فى مشاعره تلك عن حقيقة إنسانية بسيطة تعترف بأنه اجتماعى بطبعه.

وإذا كان ميلاد الإنسان يشكل الحروف الأولى فى سجل حياته، فإن الزواج هو عملية تشكيل هذه الحروف وإعطاؤها المعنى والمضمون اللَّذَيْن يستمران بعد ذلك، حتى بعد أن يصيبه الحدث الثالث المهم فى حياته، وهو وفاته.

ويهتم المجتمع فى الريف بالزواج اهتماما كبيرا يتناسب مع ماله من أهمية تتناول حياة الفرد والجماعة بالتعديل والتغيير، فتؤكدرابطة، وتوثق علاقة، وتضفى من البهجة على النفوس الشىء الكثير. وتظهر هذه العناية بالزواج فى الاحتفال به احتفالا كبيراً يناسب ما يعتقده الناس من مبادئ بسيطة تحكم حياتهم، وتجعلهم يحرصون على أن يسروا أنفسهم، وأن تشيع البهجة بينهم كلما كان ذلك من استطاعتهم.. إنهم يأخذون من الفرح كل ما يستطيعون، بل أحياناً أكثر مما يستطيعون، ولا يقفون فى ذلك عند حد، وكأنما يخشون أن ينتهى الفرح بنهاية المناسبة وكأن بهجتهم وسرورهم لن يتكررا مرة أخرى، ولذلك فهم يستعدون للاحتفال بالزواج استعدادا كبيرا يبدأ منذ اللحظة التى يتعرف فيها الفتى على فتاته، أو بالدقة منذ اللحظة التى يتعرف فيها الفتى والفتاة، كل منهما، على شريك عمره ورفيق حياته.

إننا نستطيع أن نميز فى هذا الشأن بين طريقتين فى الاحتفال بالزواج، ولا نقصد بالاختلاف هنا التباين التام بين العادات والتقاليد المصاحبة لحفل الزواج بين قرية وأخرى، وإنما يعنى الاختلاف اختلاف بعض أجزاء الصورة بين منطقة وأخرى، وإن ظل الإطار العام واحدا والخطوط الرئيسية التى تحدد الملامح واحدة لاتكاد تتغير، وتتشابه الخطوات التمهيدية للزواج فى كل أنحاء الريف المصرى تقريبًا، ولكن الوسيلة التى يتعرف بها الفتيان والفتيات على بعضهما البعض تختلف اختلافاً طفيفًا بين قرى تعتمد على الزراعة وأخرى تعيش علي الصيد.

ففى المجتمعات الزراعية، تُيَسِّر الحياة ونوع العمل أمام الشباب من الجنسين أن يلتقيا وأن يعرفا بعضهما حق المعرفة، فالكل يعمل، والكل ينتج، ومالم يعمل الإنسان، ومالم يبذل أقصى جهده، فلن يتمتع باحترام أحد. وهكذا تتيح ظروف الحياة - هذه - التى تتطلب الجهد والعمل والإنتاج، أن يعمل الجميع كل بقدر مايستطيع من جهد، ومن إمكانات، ينسحب هذا على الرجال والنساء، والفتيان والفتيات؛ فالعمل فى الحقل من طبيعته أن يستوعب الفتى والفتاة معا، جنبًا إلى جنب، كما تساعد طبيعة هذه القرى الصغيرة على إتاحة الفرصة أمام الناس ليعرفوا بعضهم بعضًا. أما العمل فى الصيد، فإنه لايستوعب إلا الفتيان والرجال فحسب، ومن ثم تتضاءل الفرصة أمام الشباب من الجنسين أن يتعارفا، ويزيد هذا العامل من تضاؤل الفرص التى تيسر للناس أن تتعمق صلاتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، إلا فى مجتمع الرجال من الصيادين الذين يقضون معظم أوقاتهم فى رحلات الصيد داخل البحيرات أو فى عرض البحر.



يهتم المجتمع فى الريف بالزواج اهتماما كبيرا

ولكن الطبيعة تأبى إلا أن يتم غرضها فى لقاء الجنسين معًا، وللعمل الفضلُ الأكبر فى ذلك أيضًا، فالصيادون يبكرون عادة فى الذهاب إلى مراكبهم وقواربهم، يعدونها لرحلة الصيد المرتقبة، ويعيدون النظر فى شباكهم ليتأكدوا من صلاحيتها، وفى هذه الأثناء تكون البيوت مشغولة بإعداد الزاد الذى سوف يستعين به الصيادون أثناء رحلات صيدهم الطويلة، ومن المألوف أن يرى المرء زوجات الصيادين وبناتهم يحملن على رؤوسهن جرار الماء العذب، وأوانى الطعام، وفى أيديهن لفاف معقودة على خبز وجبن وشاى وسكر، وأشياء أخرى مما يحتاجها الصياد فى رحلته. وتتيح هذه الفرصة للشباب من الصيادين أن يروا الفتيات عن قرب، كما تتيح غيرها من الفرص التى تحدث كل يوم مثل هذا اللقاء. هذا بالإضافة إلى أن هناك عاملاً مهماً آخر يضاف إلي مايبسره العمل من سبل اللقاء، هذا العامل هو المياه العذبة التى تنتشر فى أرجاء القرى جميعا.

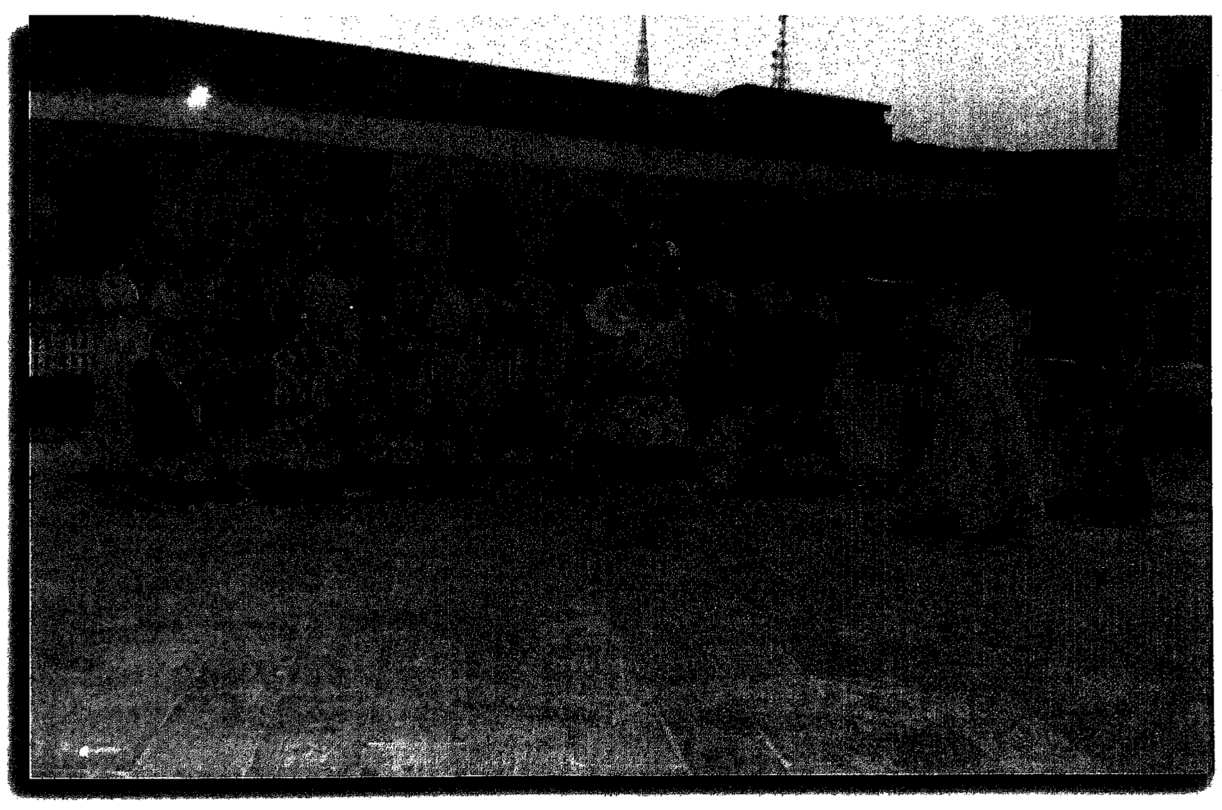
وهذه الصنابير وإن كانت قد قضت على ماكان «للموردة» القديمة على شواطىء الترع أو البحيرة من أهمية ذات قيمة كبيرة، باعتبارها مكان اللقاء الذى تتجمع فيه الفتيات كى يملأن جرار الماء أو يقضين شئونهن، ويقف الفتيان لمراقبتهن ومغازلتهن أثناء ذهابهن إليها أو عودتهن منها؛ ذلك أنها قد حلت محلها فى إتمام ماكانت تقوم به من مهام تحفظها لها قلوب العاشقين فى كل القرى. ولاتقتصر وسائل التعارف فى الحقيقة على تلك الفرص فحسب، فالعلاقات الاجتماعية التى تقوم بين الأسر، والعائلات، سواء بسبب النسب والمصاهرة أو الجوار وغير ذلك من أشكال العلاقات المختلفة التى تقوم بين أفراد المجتمع لها هى الأخرى تأثيرها الكبير والمهم فى هذا المجال.

خلاصة القول أن الفتى والفتاة، سواء تعارفا أثناء العمل، أو بحكم القرابة أو الجوار، فإن الخطوة التالية تبدأ بأن يخبر الفتى أباه برغبته فى أن يخطب فتاته، وعادة ماتكون الأم

على الطرف المقابل تعرف بما يعتمل فى قلب أبنتها، ولعلها تساعدها فى أن تنال مايهفو إليه قلبها. ومن النادر أن تقف الأم أو الأب أو العائلة فى وجه هذه العلاقة، مالم تكن هناك ظروف معاكسة، كالخصومة الكبيرة، أو عدم التكافؤ أو التنافس بين عائلتى الفتى والفتاة، ولكن هذه الظروف جميعا لاتقف حجر عثرة عادة فى سبيل السير بهذه العاطفة فى طريقها نحو نهايتها الطبيعية، فإذا توافرت النية والرغبة لدى كل من الطرفين اللذين يهمهما الأمر أى الفتى والفتاة سُرعان ماتذلل كل الصعوبات، وتُمحَى كلُّ العوائق التى تسد الطريق، فالمجتمع نفسه يكاد يتساوى أفراده فى مستواهم الاجتماعى والاقتصادى.

ومن ناحية أخرى فالبيئة فى حاجة إلى التعاون وتضافر الجهود من أجل استمرار الحياة فيها، وعلى ذلك فإن مايمكن أن ينشأ من تعقد فى العلاقات بين الناس تذيبه البيئة والعمل، وينتصرون عليها بتعاونهم وتضامنهم. ويحدث فى أحيان كثيرة أن يعرض الأب أو الأم على الابن فتاة معينة، أو العكس، ويتوقف الأمر فى النهاية على رغبة الفتى فى الزواج دون الفتاة، فهى آخر من يؤخذ رأيها فى هذا الموضوع، إذ إن الأب تبعا للنظام العائلى المستمر فى تلك المجتمعات هو السيد المطاع، الذى لاترد له كلمة ولا يعصى له أمر. وهذا الموضوع لايأخذ شكلاً حادًا، كما قد يتبادر إلى الذهن، فالفتاة غالبًا ماتكون فى سن صغيرة تتراوح بين خمسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وتسْعَ عَشْرَة سنة مما يجعل أى فتى ملائماً لها مادام قد حاز رضا الأب وقبوله، فهى فى هذه السن بلا تجارب أو خبرة تمكنها من أن تختار لنفسها.

وحتى هذه العلاقات البسيطة التى تنشأ بين الفتى والفتاة قبل الخطبة والزواج، لاتصل فى تعقُّدها وعمقها إلى درجة كبيرة، ولاتستغرق فترةَ طويلة، وإنما تظل بسيطة ساذجة فكل شاب صالحٌ مادام قويا قادرا على العمل، وعلى خلق كريم، ومن أصل طيب، وكل فتاة صالحة مادامت مقبولة الشكل ذات أصل وخلق، تستطيع القيام بواجباتها كزوجة،

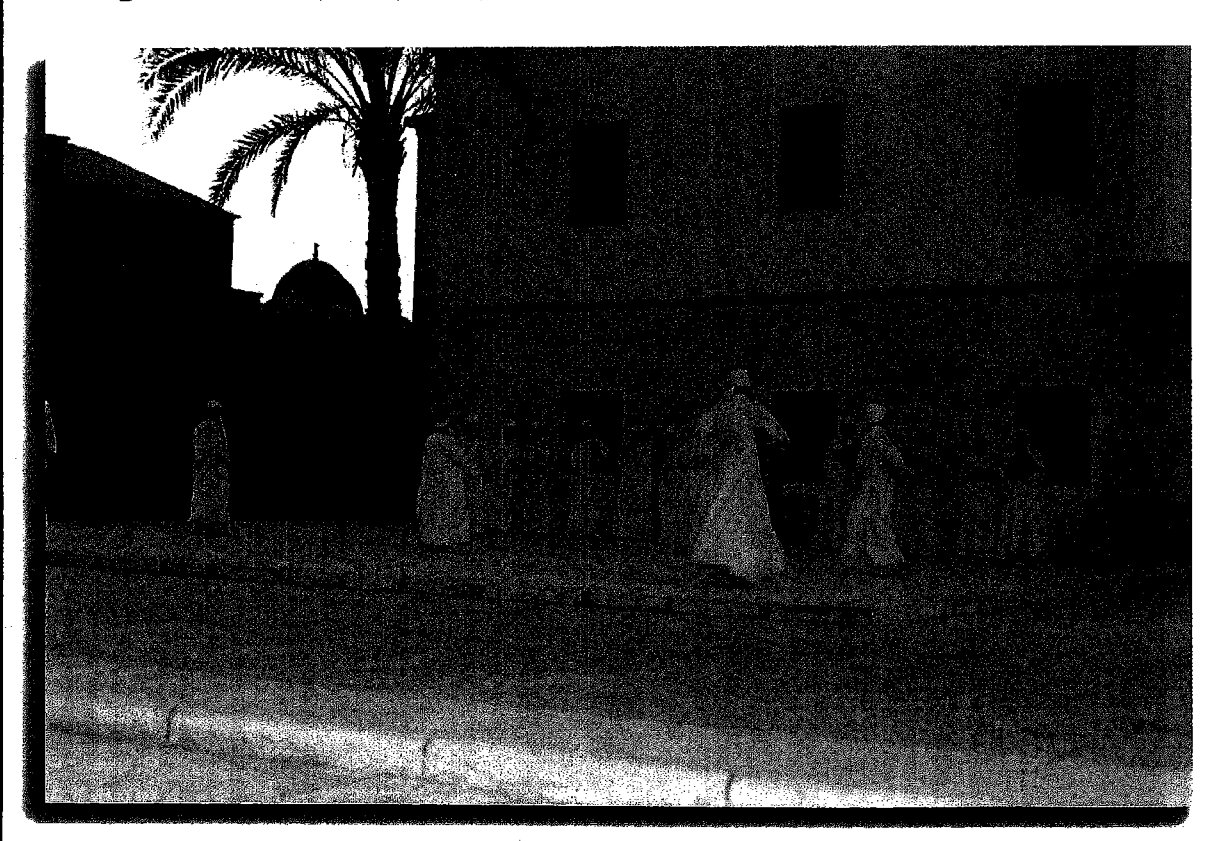


تنعكس البيئة على مظاهر الاحتفال بالزواج

ومادامت تحوز رضا والدى زوج المستقبل. ومتى استطاع الفتى الحصول على موافقة والده التى تتضمن موافقة عائلته أيضاً، فإن الخطوات التالية تصبح سهلة نسبيًا. والحقيقة أن الخطوة الأولى مهمة جداً، فهم يتزوجون صغار السن بالقياس إلى نظرائهم فى مجتمعات المدن الكبرى التى تتمتع برخاء نسبى، ويلعب العامل الاقتصادى فيها دوراً مهماً من حيث تكاليف تنشئة الأطفال، أما بالنسبة لهذه المجتمعات فالهدف الأساسى من الزواج فى نظرهم، هو إنجاب أكبر عدد من الأطفال لما سبق أن ذكرناه، وهو مايركز على أهمية العامل الاقتصادى فى التعجيل بالزواج، لحاجتهم إلى النسل. ولكن هذا العامل ليس وحده هو السبب المؤثر فى ذلك، إذ يذكر الناس وخاصة فى القرى التى تغلب عليها الضفة الزراعية، مايفهم منه أن الجنس يقف هو الآخر عاملاً مهما مؤثرا فى دفعهم إلى هذا، فالأب يخشى إلى حد كبير على عفاف ابنته، لأن ظروف البيئة تيسر للفتى والفتاة اللقاء السهل بعيدا عن الأعين، وهم يخافون مما قد ينشأ عن مثل هذا اللقاء من عواقب، فالفتى والفتاة يعملان جنباً إلى جنب فى الحقل، وهما فى تلك السن الصغيرة لايدركان عاقبة الأمور تماماً وماقد يترتب على وجود علاقة بينهما، ولذلك فهم يسرعون فى إتمام الزواج متى بلغ الفتى والفتاة السن التى تؤهلهما لذلك.

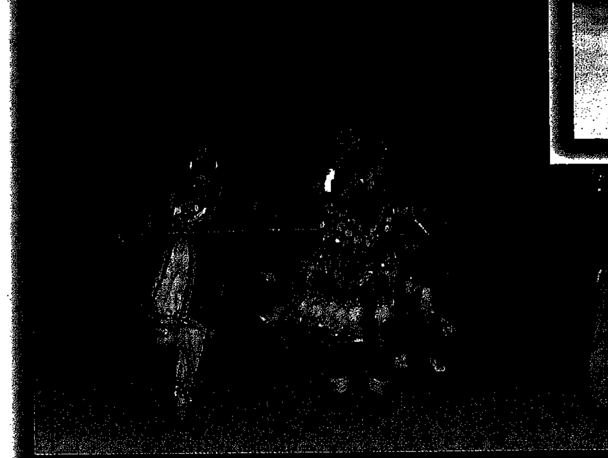
المهــر

ويتحدد المهر الذى سوف يدفع للعروس عند إتمام الخطبة فيذهب والد العريس، والعريس وكبار العائلة أو أصدقاء العائلتين إلى بيت والد العروس، بعد أن تكون أم العريس قد مهدت الطريق، ويسرت الأمور، فيقرأون جميعا «الفاتحة» وهى تعد بمثابة العقد الابتدائى فى تسجيل الزواج، إذ تعنى «الفاتحة» التزام الأطراف المعنية بإتمام الزواج حسب الاتفاق الذى تم بينهم، أمام الله، والمجتمع. ويلى



ذلك توزيع أكواب الشربات بين زغاريد النساء وغناء الفتيات، اللائى يكن قد تجمعن فى بيت العروس لتهنئتها. ويتم فى هذه الجلسة تحديد المهر وهو يعتمد على المستوى الاجتماعى، والمركز الاقتصادى لكلا الطرفين. ولاتضع هذه المجتمعات العراقيل أمام الفتى والفتاة، لتمنعهما من اللقاء بعد خطبتهما، فالفتى يستطيع أن يرى فتاته فى بيتها متى أراد تحت سمع أبيها وأمها وبصرهما. ويبدأ الاستعداد لشراء الجهاز منذ اليوم التالى لإتمام «الخطبة» ودفع المهر. وجهاز العروس فى العادة بسيط، يتكون من «سرير خشبى أو معدنى له عواميد طويلة، ولوازم السرير من وسائد وأغطية ومراتب ومفارش وملاءات، وكذلك دولاب من الخشب وبعض الكراسى والأرائك، ومرآة كبيرة بها بعض أدراج ويسمونها «تسريحة» بالإضافة إلى لوازم المطبخ من «حلل» - كانت فيما مضى من النحاس - أما الآن فقد شاع استعمال الألومنيوم خاصة لرخص ثمنه»، وصحون، وملاعق، وما إلى ذلك من لوازم.

ولايكاد الجهاز يزيد عن ذلك فى الغالب الأعم، ولكن الشىء المهم جدا فى الجهاز، ولايمكن إغفاله، هو المصاغ، إذ يحتل المصاغ والحلى الذهبية المقام الأول فى جهاز العروس وشبكتها، وبقدر ماتحمل من مصاغ يقاس قدرها، وقيمة عائلتها، وكان المصاغ الذى تعتز به المرأة، وتحرص على اقتنائه هو مايسمونه «بالمجر» الذى يعلقنه فى رقابهن، ويحرصن على الإكثار منه كلما استطعن إلى ذلك سبيلا، خاصة فى أهم مناسبات حياتهن. وفى العادة تكون الفتاة قد ادخرت عددا كبيرا من الفساتين والجلاليب والقمصان استعداداً لمناسبة زواجها، ومن ثم تصبح فى غير حاجة إلى ملابس جديدة كثيرة مما يوفر لها قدرا من النقود التى تشترى بها فى الأغلب الأعم حليا ذهبية.



الخطبة

ويحتفل الناس فى القرى احتفالا كبيرا بيوم الخطبة فلا ينقطع الغناء فى ذلك اليوم، ولا فى الأيام التى تليه، وخاصة كلما جد جديد، فيوم مجىء الجهاز يحتفل به إحتفال كبير، وليلة الحناء التى تسبق «يوم الزفاف» يحتفل به هو الأخر احتفال ضخم اكثر من باقى الأيام التى سبقته، وهكذا، كلما قطعت خطوة على الطريق، ازداد الفرح والسرور حتى يأتى اليوم المرتقب الأخير، يوم الزفاف.

يوم الحناء

وتكاد القرى تتفق جميعا فى كل الخطوات لإتمام الزواج حتى «يوم الحناء»، ويوم الزفاف، وهنا قد تختلف - إلى حد ما - العادات المصاحبة لهذين اليومين بين قرية وأخرى، وسوف نقدم هنا وصفاً لبعض العادات والتقاليد الشائعة فى بعض القرى، وتكاد تكون شائعة فى مصر كلها. تعد الليلة التى تسبق الزفاف وهى «ليلة الحنة» «الحناء» ذات مذاق خاص بالنسبة لحفل الزواج فى بعض القرى، فهى الليلة التى يدعى إليها المدعوون من أقارب عائلتى العروسين، وأصدقائهما، وتكون عادة ليلة «الأربعاء» من أسبوع الزواج، وفى هذا اليوم تقوم الأم أو من تقوم مقامها بتحنية يدى العروس، وقدميها، وكذلك يحنى العريس يديه وقدميه، وفى المساء يُقام الحفل الكبير الذى يبدأ عادة فى قرى الصيادين بعد العاشرة والنصف أو حوالى الحادية عشرة، وهم يتأخرون فى إقامة الحفل بسبب طبيعة الصيد، فالصيادون يتأخرون فى العادة إلى قراهم، إذ يعودون مساء الأربعاء من كل أسبوع حوالى الخامسة أو السادسة، وتستغرق عمليات الحساب مع صاحب القارب، ثم صلاة العشاء، والذهاب إلى البيت، لارتداء الملابس المناسبة لحضور حفل العرس بضعَ ساعات، يتوجه الجميع بعدها إلى السرادق الصغير الذى أقيم امام بيت العريس، ويتكون من بعض عروق من الخشب، أو صوارى المراكب، ويغطى الجزء العلوى منه بأشرعة المراكب، أما الجوانب فتترك بدون غطاء، ويوضع فى مقدمة السرادق أريكة طويلة يوضع فوقها بعض الكراسى التى سوف يجلس عليها أفراد الفرقة الموسيقية. وهم عادة أربعة أفراد، ويرصون بعض الكراسى والأرائك، فى جانبى السرادق كى يجلس عليهما كبار المدعوين، وتترك منطقة الوسط خالية ليجلس فيها من يشاء على الأرض. وتعلق مكبرات الصوت كى يجلجل صوت مطرب الحفل فى أرجاء القرية. ولايتناول المدعوون من أهل



الاحتفال بليلة الحنة

البلدة غالبا طعاما خاصا فى ذلك اليوم . أما المدعوون من خارج البلدة فإنهم يقدمون لهم طعامهم التقليدى المكون عادة من السمك والأرز متى قاربت الساعة على الحادية عشرة مساء حتى يكتمل الجمع ، وتبدأ عندئذ الفرقة الموسيقية ، المكونة من عازف على «الغاب» ، وآخر على «السلامية» ، وثالث على «الكمان» ورابع يضبط الإيقاع «بطبلة» أو «رق» - فى إعداد الآلات الموسيقية وضبطها ، وعندما ينتهون من ضبط آلاتهم ، يساعدهم فى ذلك المطرب الذى يقف أمامهم ، ويقوم إلى جانب غنائه بمهمة قيادتهم ، وهم يفهمون إشاراته ، وتنبيهاته ، وحركاته تماماً ، وهذا الفهم ضرورى جدا لكى تتسق الموسيقى مع الغناء ، وليستطيعوا مسايرته أثناء غنائه فلا يتخلفون عنه ، فيفسد بذلك الأداء .

ويبدأ المغنى فى أداء مواويله ، التى تلقى استحسانا ، وتشجيعا كبيرين ، وهو يغنى عادة فى البداية ، بعض المواويل القصيرة نسبيا ذوات الثلاثة عشر بيتا أو أكثر قليلا ، لتحميس الحاضرين ، حتى إذا نال استحسانهم ، وإعجابهم ، بدأوا فى دفع «النقوط» فيحييهم من جانبه بموال صغير لايتجاوز أربعة أبيات ، حتى ينتهوا من تقديم النقوط ، فيحييهم جميعاً مرة أخرى .

وبذلك ينتهى الجزء الأول من الحفل ، يستريح بعده المغنى ، وأفراد فرقته الموسيقية ، ويتناولون شرابا مرطبا ، أو شايا ، ثم يعودون مرة ثانية لإكمال الجزء الثانى من الحفل وهو عبارة عن موال طويل ، يصل طوله أحياناً إلى حوالى ٤٠٠ بيت ، تتخلله بعض الفواصل التى يقدم فيها المدعوون «النقوط» إلى المغنى ، فإذا لم يفعلوا قام هو بطريق غير مباشر بتنبيههم إلى ماقصروا فى أدائه ، ثم يعود إلى متابعة غناء مواله القصصى الذى غالبا مايكون مرتبطا بمناسبة العرس ، وبانتهاء الموال القصصى الطويل يحيى المغنى العريس وأهله ، وعروسه ، والمدعوين ، ثم ينتهى الحفل ، ويذهب الجميع إلى دورهم ، والفجر يوشك أن يبزغ فى الأفق .



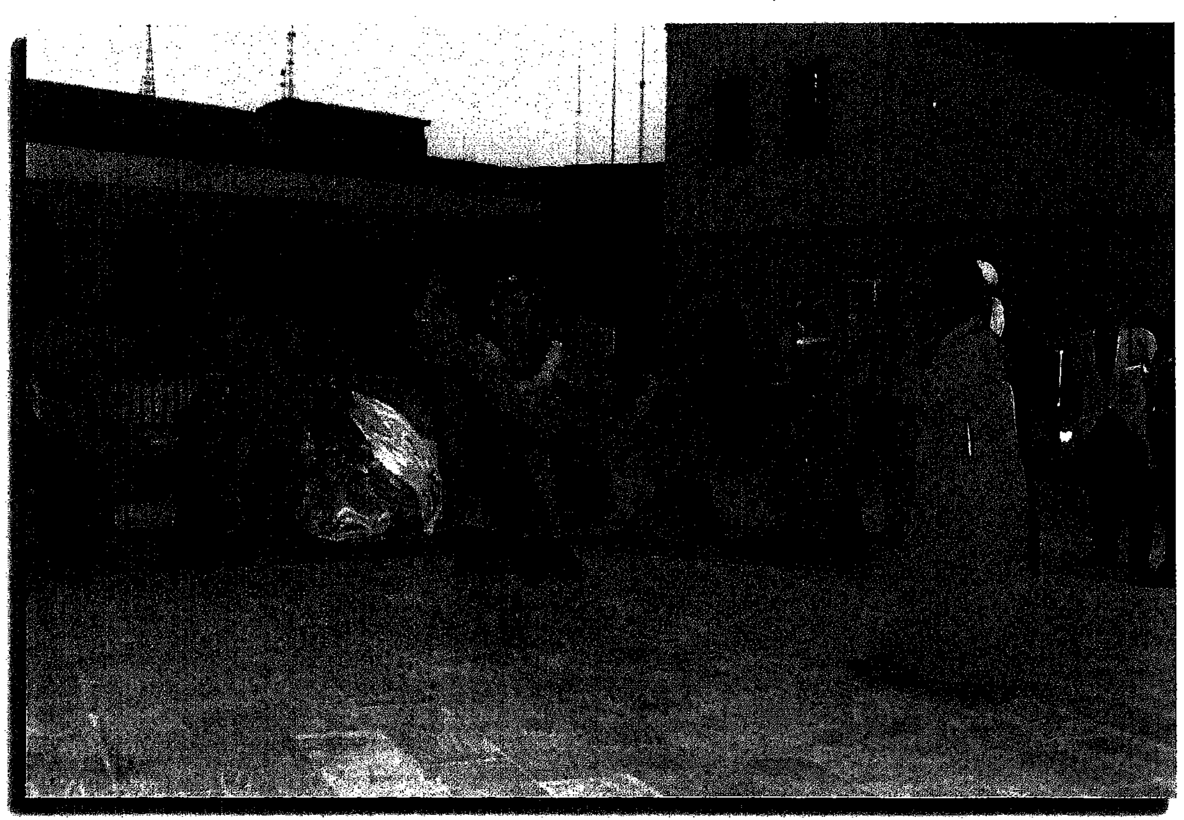
ومما هو جدير بالذكر، أن هذا الحفل مقصور على الرجال دون النساء، اللاتى يتجمعن فى بيت العروس يغنين لها، ويشاركنها فرحتها فى ليلة حنائها.

يبدأ اليوم الثانى وهو يوم الزفاف كغيره من أيام العرس بالغناء فى بيت العروس، ويبدأ نقل الجهاز إلى بيت العريس منذ الصباح، حتى إذا جاء العصر عقد القرآن فى بيت العروس، بحضور العريس ووالده وإخوته وأعمامه وأخواله وأقربائه، ووالد العروس الذى توكله عنها فى عقد قرانها، وأعمامها وأخوالها وأصدقاء الأسرتين، وبعد أن تتم مراسم عقد القرآن، يتبادلون التهنئة جميعا، وتوزع أكواب الشربات كالعادة كل يوم مصحوبة بزغاريد وغناء النسوة اللائى يملأن الدار عن آخرها.

ويزف العريس فى المساء بعد أن يستحم فى بيت أحد أصدقائه أو أعمامه أو أخواله، ثم يخرج من الحمام فى أحلى زينة، وأجمل منظر، يسير بين رفاقه الذين يزفونه فيتوقفون فى الطريق من المنزل الذى استحم فيه إلى منزله حيث تكون العروس قد انتقلت إليه فى هذه الأثناء ليصنعوا دائرة صغيرة وهم يغنون ويرقصون، وهكذا حتى يصلوا إلى بيت العريس، وهناك يتركه الأصدقاء والأقارب حيث يستكمل زفافه على عروسه.

وينتهى الحفل، بتفرق الجميع بعد التأكد من أن الفتاة عذراء، فيعلن النبأ على الملأ بين طلقات البنادق، وزغاريد النساء، وغناء الفتيات، وتصفيق الرجال، وتنهال التهانى على والد العروس وأهلها مهنئة بشرفهم وكرم أصلهم الذى بدأ فى محافظتهم على عرض ابنتهم.

هذه هى الملامح الرئيسية لصورة الاحتفال بالعرس، ومايسبقه من عادات يمارسها الناس فى بعض القرى، وفى قرى أخرى يبدأ الاحتفال النهائى بإتمام الزواج بالليلة التى تسبق الزفاف أيضا، وهى «ليلة الحناء» ويحدث فيها ماسبق وصفه مما هو شائع فى كل قرى مصر عامة. وقد يختلف الأمر فى بعض الأحيان، مابين قرية وأخرى، فبينما تعد «الليلة الحناء» هى



الليلة الرئيسية فى الاحتفال فى بعض القرى، وهى التى يأتون فيها بالمغنين والراقصات «العوالم» ويقيمون من أجل ذلك السرادق.. وما إلى ذلك، فإن «الليلة الحناء» فى قرى أخرى، تكاد تشبه غيرها من الليالى التى سبقتها كليلة الخطبة مثلا، وأكثر مايميزها هو الإعداد لليوم التالى وهو اليوم الأكثر أهمية من سابقه، يوم الزفاف، وليلته الحافلة الكبيرة التى تفصل بين حياتين، تنتهى بها واحدة، وتبدأ بها أخرى.

يوم الزفاف

وفى العادة تكون العروس فى بيت أبيها وقد يحدث أن تكون العروس فى بيت أحد أعمامها أو أخوالها، وهم يفعلون ذلك أحيانا إظهاراً لتضامن العائلة عندما يصر العم أو الخال على أن تخرج العروس من بيته إلى بيت عريسها، إمعانا فى تكريمهما وتعبيراً عن اعتزاز أسرتها كلها بها، وفى صباح يوم الزفاف يكون الاستعداد النهائى قد انتهى بالنسبة للجهاز وللمسار الذى سيأخذه حفل الزواج، فالجهاز فى بيت العروس قد تم إعداده كى يحمل إلى بيت العريس، ورائحة الطعام الذى سوف يقدم للمدعوين تفوح فى أرجاء الدار التى تقف كلها على قدم وساق، فالكل فى شغل مستمر، وحركة دائبة، يؤدى مايوكل إليه من مهام. وبعد صلاة العصر يحضر المأذون، وهو عادة إمام وخطيب المسجد لعقد القرآن فى بيت والد العروس، وبالطبع فإن العروس لاتشهد عقد قرانها، فالتقاليد تمنع ذلك، فهى فى العادة توكل هذا الأمر إلى أبيها كى يضع يده فى يد عريسها لإتمام عقد القرآن. وفى إحدى حجرات البيت يجلس المأذون والعريس ووالد العروس وبضعُ أفراد من عائلتى العروسين والأصدقاءَ المقربون وكبار المدعوين. ويبدأ المأذون فى إنجاز الإجراءات المتبعة فى تلك المناسبة، وماهى إلا دقائق حتى يبارك المدعوون والأهل للعريس ووالد العروس وتنطلق الزغاريد معلنة النهاية لقصة صغيرة، والبداية المنتظرة لحياة جديدة. ويقوم الرجال



الذين حضروا عقد القرآن، والمدعوون ايضا إلى غرفة كبيرة عادة حيث وليمة العرس، التى تتناسب مع قدر الأسرة، ومستواها، وتتكون عادة من أصناف متعددة من اللحم، بالإضافة إلى الأرز، والخبز، والحساء، والبطاطس والفاصوليا الجافة المطبوخة، وأنواع مختلفة من الحلوى التى يفضلها الريفيون عادة. وفى هذه الأثناء، تتوافد النسوة والفتيات على بيت



العروس تجلجل أصواتهن بالزغاريد والغناء، كى يحملن جهازها إلى بيت زوجها، يساعدهن فى ذلك الشباب والرجال من أقارب العروسين، ولاينقطع الغناء أثناء نقلهن الجهاز، أو يخفت بل يزداد عنفوانا كلما اقتربت الساعات الحافلة الأخيرة.

ويتجه الجميع بعد الانتهاء من تناول الطعام، لإحضار العروس من بيتها أو من بيت عمها أو خالها، وفقا للظروف، وعلى طول الطريق لاينقطع غناء النسوة وزعاريدهن التى تعلو أكثر وأكثر كلما اقترب الموكب من البيت.

وترتدى العروس آنذاك رداء أبيض اللون يغطى جسمها كله، وكذلك ذراعيها، وتضع على رأسها طرحة بيضاء من النوع الذى يسمونه «تلى» ويزين شعرها بتاج من الأوراق المذهبة والخرز المنظوم مما يطلقون عليه اسم «خرج النجف»، وكذلك «الصفا» وهو بضعة أسلاك رفيعة تشبه الأسلاك الفضية توضع على رأس العروس. وتحلى الفتاة صدرها ببعض الحلى الذهبية المستديرة «المجر» التى تعلق فى رقبتها بسلسلة ذهبية، وكذلك تضع فى أذنها قرطا كبيرا، وبالطبع لايظهر ماتلبسه فى معصميها من أساور «غوايش» لاختفائها تحت كم الفستان. وما إن يصل الموكب «الزفة» إلى بيت العريس حتى تطلق الأعيرة النارية، تعبيرا عن الفرحة والبهجة، ويمد سماط آخر فى بيت العريس لمن تخلف عن سماط العصر فى بيت العروس، و أمام بيت العريس تتجمع الفتيات والنساء، والفتيات و الأطفال، وتعلو أصوات النساء والفتيات بالغناء حتى إذا بُحَّ صوت واحدة منهن، أو احتبس من كثرة الغناء حلت محلها أخرى.. ويتناوبن جميعا الغناء وإطلاق الزغاريد والتصفيق والرقص، وكأن كلا منهن تحتفل بعرسها، فهن جميعا يعرفن أنهن بقدر مايسهمن فى المشاركة والاحتفال، فإن هذا سوف يرد لهن، فى مناسباتهن الخاصة وفى أفراحهن المقبلة، إذا لم يكن قد تزوجن بعد. ويستمر الغناء والتصفيق حتى يذهب العريس إلى بيت أحد أقاربه أو أصدقائه المقربين ليستحم استعدادا لزفافه، وينتظره جميع أصدقائه وأقاربه أمام البيت الذى يستحم فيه،

حتى إذا انتهى من الاستحمام، خرج إليهم، ويكون هذا إيذانا ببداية زفافه، فيسير ومن خلفه الفتيات والنساء وبجانبه رفقاؤه، وأصدقاؤه ليجلسوا جميعاً فى إحدى المناطق المتسعة حيث يرقص النساء على تصفيق وغناء الرجال، ويقدم الأهل والأصدقاء «النقوط» إلى العريس الذى يجلس إلى جواره أحد إخوته أو أبناء عمومته، ومعه قلم وكراسة ليسجل الهدايا التى سوف تقدم للعريس من الأصدقاء والأقارب، كى يردها لهم فى مناسباتهم القادمة، أو لعله قد قدم بعضها فى مناسبات سابقة وهاهى ترد إليه الآن. والهدايا عادة بسيطة لاتكلف كثيراً فهى إما زجاجات من شراب الورد مثلاً، أو مظروف مغلق به بعض النقود. وتقديم النقود هو السائد فى النهاية «كنقوط»، ويعتبرونه تقليدا مهما لابد من الوفاء به، والحرص عليه، إذ إنه يشكل جزءا مهما ورئيسيا فى موارد العروسين اللذين أنهكهما الاستعداد للعرس وتكاليفه. فهذه المبالغ الصغيرة التى تُجمَع لتصبح كبيرة بعد ذلك، تعين ولاشك على تحمل أعباء الحياة لفترة ليست بالقصيرة؛ بل إنها بالإضافة إلى ذلك مظهر من مظاهر تضامن هذا المجتمع، وتعاونه الواقعى البسيط للتغلب على مشكلات الحياة وتبعاتها ونفقاتها.

ويظل الرجال يغنون، والنسوة يرقصن، وأثناء هذا وذاك، يتقدم الأهل والأصدقاء بنقوطهم، ثم ينتقل الجمع مرة أخرى إلى مكان آخر وهكذا، وهم فى ذلك يقتربون فى كل مرة شيئا فشيئا من بيت العريس، وفى كل مرة يتوقفون فيها، يتكرر أيضا ماسبق أن حدث من غناء ورقص وتقديم هدايا ونقوط حتى ينتهى الجمع إلى بيت العريس حيث تنتظر العروس أهم لحظات حياتها.

يدخل العريس إلى الحجرة التى تجلس فيها عروسه، بين ضجيج الأعيرة النارية، والصياح، وعلى الرغم من الضجة العالية التى تحدث حينئذ فإن الغناء لايخفت، بل يعلو ويعلو، ويسرع الإيقاع ويزداد عنفوانا حتى



ليكاد يصبح صراخا لاتتميز مقاطعه، وما إن تطل تلك الرقعة الحمراء التى تشهد على أن الفتاة بكر على الجمع المحتشد، حتى تتخاطفها الأيدى، وكل يعرضها على من حوله ليتأكدوا أن ليس فى الأمر خدعة، وأن الفتاة بكر حقيقة، وبعد أن يتأكد الكل من أن مابين أيديهم حقيقة مؤكدة يطمئنون إليها، يبدأون فى الهدوء، وتتوالى التهانى على والد العروس وأهلها، ويستمر الغناء.

وعلى الرغم من أن عادة التأكد من عذرية الفتاة على هذا النحو قد انتهت فى كثير من المجتمعات الشعبية فى مصر نتيجة انتشار التعليم، وتغير العادات وما إلى ذلك إلا أن بعض المجتمعات مازالت تحافظ على هذه العادة، وترى فيها نوعا من الحصانة الأخلاقية التى لابد من المحافظة عليها حرصا على أعراف المجتمع وتقاليده وعاداته، نظرا لطبيعة البيئة التى يعيشون بين أرجائها.

على أية حال يستمر الاحتفال بالزوجين الجديدين على مستوى أسرتيهما بعد ذلك حتى اليوم السابع بعد الزواج، ويسمى اليوم التالى للزفاف بالصباحية «من الصباح» وفيه ترسل أسرة العروس الطعام إلى العروسين، كما يرسل الأهل طيورا وأرزا وسكرا ودقيقا.. إلخ وما تحتاجه الأسرة الجديدة من مواد غذائية. وقد يرسل الجد أو العم أو الخال فى هذا اليوم خروفا أو بقرة، وقد يفعلون هذا فى اليوم السابع. ويستقبل العروسان يوم الصباحية خاصة، وطيلة أيام الاسبوع التالى للزواج، الأهل والأصدقاء الذين يقدمون الهدايا العينية أو المادية «النقوط» وهو ماتسجله الأسرة كى تقوم برده لمن قدموه فى مناسبة قادمة مماثلة.

وتُولى المجتمعاتُ الشعبية أهميةً كبيرة لتقديم هذه الهدايا، وتحرص على أدائها، باعتبارها شكلا من أشكال التعاون والتكافل، وكلما كثرت الهدايا التى ترسلها أسرتا العروسين كان هذا دليلاً على المركز الاجتماعى والاقتصادى المتميز.

الأغانى الشعبية

وتصاحب الأغانى الشعبية التى تُغَنى فى فترة الاحتفال بإتمام الخطبة، أو تقديم الشبكة وإتمام الزفاف كل المراحل التى تمر بها خطوات الزواج، وتعبر عن عادات الناس وقيمهم، ومثلهم المرتبطة بهذا الحدث المهم فى حياة المجتمع. وهى تمثل الجانب الأكثر انتشارا بين أفراد المجتمعات الشعبية فى كل أنحاء مصر.

وذلك شىء طبيعى إذا ماوُضع فى الاعتبار أهمية مثل هذه المناسبات فى حياة الفرد بخاصة، والمجتمع بعامة، فالحب، والغزل، والزواج موضوعات لأغان عديدة ذائعة، وتشتهر فى المجتمع مرتبطة بليالى الفرح عموما، باعتبارها وثيقة الصلة بها، وأنها التعبير المادى عن تحقق تلك المضامين، والعلاقات.

إن نسبة كبيرة من الأغانى الشعبية المصرية، مما يمكن تسميته بأغانى الغزل والحب، حيث يصور الحب باعتباره علاقة جميلة. ويصور المحب إنسانا يعرف حقوق الحب وواجباته، وتكاد الأغانى الشعبية المصرية تخلو من صورة ذلك المحب الذى لاإرادة له ولا كرامة.. ذلك المحب الذليل الذى يرضى الهوان، ويستعذب الألم، ويجد فى هذا وذاك سعادته وراحته، صحيح أن بعض المواويل والأغانى توجد بها صور الحب الذليل، والمحبين المعذبين الأشقياء بحبهم، ولكن تلك الصور ليست هى السائدة، وهى تنتهى عادة بأن يأخذ المحب عبرة، وأن يتعلم درسا، وأن يعرف سبب شقائه فى هذا الحب. وأنه كان ينبغى أن يتوقع ذلك. مادام لم يعط حبه من يستحق هذا



الأغاني الشعبية من مظاهر الاحتفال بالزواج

الحب، ويستطيع أن يصونه، وأن يحميه وأن يعرف قدره. ويقوم بواجبه نحوه.

وتتحدث هذه الأغانى عادة عن الحب، والمحبين فى أسلوب بسيط وتشبيهات واضحة:

المغنية: يامه حمامى خلط ويا الحمام الواد على
المرددات: يامه حمامى خلط ويا حمام الواد على
المغنية: ونزلت له بمخده وطلعت له بمخده
لقيت حمامى بيتغده ويا حمام الواد على
المرددات: يامه حمامى خلط ويا حمام الواد على
المغنية: وطلعت له بمقشه ونزلت له بمقشه
لقيت حمامى بيتعشه ويا حمام الواد على
المرددات: يامه حمامى خلط ويا حمام الواد على(٩٤)

والحبيب - أو الحبيبة - هو «مقلة العين» و«يعيش فى داخل القلب».

المغنية: هوه حبيبى هوه حبايه العين من جوه
المرددات: هوه حبيبى هوه حباية العين من جوه
المغنية: كل ماقول ياود ياود
لاخدك واهاجر فى البلاد
اخاف احسن كلامى ينعاد وأنت حبيبى
المرددات: هوه حبيبى هوه حبايه العين من جوه(٩٥).

وتستوعب هذه الأغانى كل أشكال الأغنية الشعبية تقريبا، والموضوعات المختلفة التى تتحدث عن العروس وجمالها الذى ذهب بلب العروس، وكذلك عن صفاتها، وماتمتاز به من أصل طيب، وخلق كريم جعلها تشرِّف أهلها بمحافظتها على شرفها، بالإضافة إلى وصف جهازها، وزينتها.

تغنى إحدى الفتيات فى جزء من أغنية فتقول:

المغنية: طلع العريس فى قصر أبوها يدور
لقى العروسة على السرير بتنور
ضحك وقال باسم النبى حواليكى
سبحان من خلق الشعور وصور.. طلع..
طلع العريس فى قصر أبوها يدور(٩٦)

ويقولون فى أخرى:

ياعال العال ياعروسة ياعال العال



أحد المطربين يقدم الموال الشعبى

ياعال العال ياعروسة ياعال العال
واخوالك عال ياعروسة
ياعال العال ياعروسة ياعال العال
وسيدك عال ياعروسة
ياعال العال ياعروسة ياعال العال(٩٧)

كما تعرف الفتاة قدرها، وتعتز دائما بنفسها وجمالها، وأصلها، على أساس أن كل هذه الأمور لاتنفصل عن بعضها البعض، فالجمال مرتبط بالخلق القويم، وهما مرتبطان بالأصل الطيب، وتعبر الأغانى عن ذلك، كما يبدو من النماذج التالية:

١ ـ *المغنية: داحنا الجمالات ياوله وكلامنا ماشى*
المرددات: داحنا الجمالات ياوله وكلامنا ماشى
المغنية: وإزاى يجى المحبوب ونقبى العاصى
المرددات: داحنا الجمالات ياوله وكلامنا ماشى(٩٨)

٢ ـ *المغنية: واسأل ياوله أمك عليه*
المرددات: واسأل ياوله أمك عليه
المغنية: داكل الناس ياشاطر حبونى
المرددات: واسأل ياوله أمك عليه
المغنية: لما شلت الطرحة من على عيونى
المرددات: واسأل ياوله أمك عليه(٩٩)

وتستمر الأغانى فى وصف مايحيط بالعروس من مظاهر الفرح والاحتفال.

ياقاعده والورد حواليكى
لاطلب من الله الله يتم عليكى
ياقاعده والورد حواليكى
ياقاعده والورد زاين خدك
لاطلب من الله الله يبيض عرضك
ياقاعده والورد حواليكى(١٠٠)

وتدور أغانى هذه المناسبات فى أغلب الأحيان على ألسنة الفتيات اللاتى يحطن بالعروس يشاركنها فرحتها بأجمل أحداث حياتها، وذلك بحكم التقاليد التى تمنع وجود الرجال فى مثل هذه الاحتفالات النسائية. وتتحدث هذه الأغانى أيضا ـ إلى جانب ماسبق ذكره عن الحب الذى يربط بين الفتى والفتاة ـ عن الفراق الذى يشبع الحديث عنه فى كل الأغانى الشعبية فى مختلف أنحاء العالم؛ فالجبال، والموت، والبحر، أو الرحلات

الطويلة التى تفصل بين المحبين تصبح موضوعات لكثير من الأغانى، حيث يتمنى المحبون زوال هذه الحواجز التى تعوق إتصالهم، وتبعدهم عن بعضهم البعض، وتسبب لهم ألما ممضا، يجعلهم فى سوق عارم للقاء وتعد هذه الأغانى من بين أجمل الأغانى الشعبية عامة، وقد يبدو فيها الحزن الذى تشيعه تلك الفتاة من بعد حبيبها الذى هجرها فتشكو ذلك لأمها، وتصف لها ما أصابها نتيجة لفراقه، وانتظارها له، وماسوف تفعله ليعود إليها مرة أخرى.

ياسلام ياأمه بعد الحبيب على عينى.. مجاش(١٠١)

ياسلام ياأمه بعد الحبيب على عينى.. مجاش
ياناس أنا دوب الملح فى الفنجان
جسر القضيب اشتكى من رنة الخلخال(١٠٢)
لاعمل حجاب مغربى وأكلفه بأموال
وادعى بحرقة ع اللى كرهه فى الدار.. ولا جاش
ياسلام ياأمه بعد الحبيب على عينى ماجاش

ياناس أنا دبت دوب الملح فى الميه
جسر القضيب اشتكمى من شن رجليه
لاعمل حجاب مغربى وأكلفه بميه
وادعى بحرقه ع اللى كرهه فيه.. ولا جاشياسلام ياأمه بعد الحبيب على عينى.. مجاش.

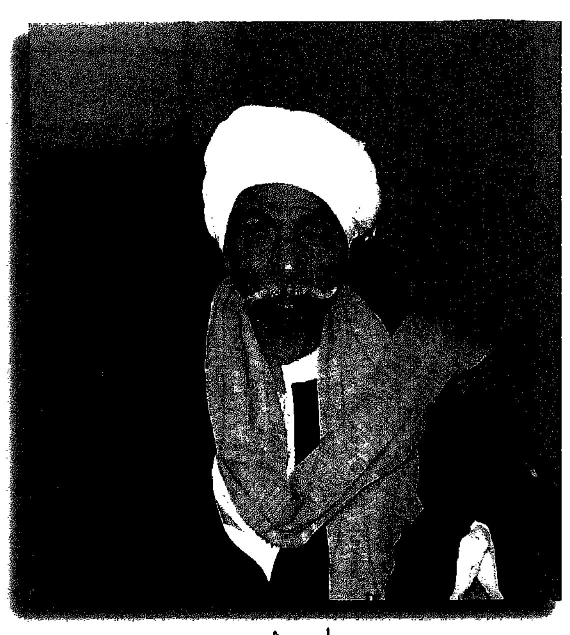
وتتميز علاقة الحب التى تعبر عنها هذه الأغانى بالإيجابية التى تجعل المحب يسعى إلى حبيبه، محافظا عليه، لاينتظره مستعطفا أو خائر العزم. باكيا، نادبا حبه، نائحا علي نفسه، تقول الفتاة فى جزء من أغنية:

المغنية: لابسين الحبر لموا هداديه
المرددات: آه..
المغنية: وإذا حبيبى غاب عنى لابد أجيبه
المرددات: آه..(١٠٣)

كما تحفل هذه الأغانى بالحديث عما يجذب أنظار الفتيات إلى الشبان من مظاهر الفتوة والرجولة والثراء، «فالخرزانة» «عود الخيزران» و«الخاتم» و«الصديرى»و«الطربوش» وما إلى



القربة إحدى الآلات الموسيقية الشعبية



مطرب شعبى

ذلك، تستخدم كلها كوسائل - فى الأغانى - لكى تجد الفتاة سببا تستطيع به أن تقنع الآخرين باختيارها، أو ستارا تتخفى وراءه مرسلة رسالة معينة إلى إنسان معين تود أن يعترف بحبها له:

المغنية : على لبسك الخاتم ياويلى منك ياجدع
المرددات: على لبسك الخاتم ياويلى من ياجدع
المغنية: على لبسك الخاتم ولا فى البلد محكمة
ولا فى البلد حاكم يحكم على دا الجدع
المرددات: على لبسك الخاتم ياويلى منك ياجدع(١٠٤)

وتصور الأغانى أيضا تمنع الفتاة، وتدللها على عريسها، كما تصور أيضاً وسائل الإغراء التى تتبعها لتوقع الفتى فى حبائلها، وتصور على الجانب الآخر عدم استجابة الفتى للإغراء تقول أغنية أخرى على لسان فتاة أيضا:

ياحلاوة على الساعة
ياحلاوة على الساعة
مديت له ودنى . . فيها الحلق يضوى
قال ابعدى عنى ماتفوريش دمى
حبك بالولاعة
ياحلاوة
على الساعة
مديت له رجلى نخلة بجمار تضوى

قال ابعدى عنى ماتفوريش دمى
حبك بالولاعة
ياحلاوة
على الساعة
مديت له صدرى . . بلاط حمام يضوى
قال ابعدى عنى ماتفوريش دمى
حبك بالولاعة ياحلاوة
على الساعة(١٠٥)

وعدم ظهور العواطف المشبوبة واضحة صريحة فى الأغنية الشعبية يرجع غالباً إلى أن العشاق فى المجتمع الشعبى لايميلون إلى إظهار عواطفهم بقوة، أو بأسلوب مباشر فى التعبير الذى يوجهونه إلى أحبائهم، وإذا كانت الأغنية المثالية تصف شوق الفتاة إلى عريسها المنتظر فإنها لاتقصد عريسا معينا توجه إليه الحديث وإنما توجهه إلى أى عريس يمثل العاطفة المجردة التى تجيش فى صدرها . . كأمنية ترجو أن تتحقق لها عندما يأتى هذا العريس ليأخذها معه:

خدنى معاك . . خدنى معاك . . خدنى معاك . . وإذا كنت مسافر . . خدنى معاك
خدنى معاك . . خدنى معاك . . خدنى معاك . . وإذا كنت مسافر خدنى معاك



مطرب شعبى

م البلكونه للشباك . . مشغولة بيك . . واقفه استناك . . ياعريسنا ماتاخدنى معاك . . وإذا كنت مسافر . . خدنى معاك . . خدنى معاك . . خدنى معاك . . وإذا كنت مسافر خدنى معاك . . (١٠٦)

حتى إذا ماأتى العريس المنتظر، فإنها لابد أن تشترط فيه شروطا معينة، ولايعنى أنها فى انتظار العريس، أن تقبل أى شخص يتقدم لها. وتصور إحدى الأغنيات حواراً لطيفا بين الفتاة، وأمها التى تناديها، لأن هناك من يريد أن يخطبها لتسألها عنه، وتجيبها أمها بأنه فلاح، فتستنكر ذلك، ولكنها ترحب بالقادم ترحيبا حارا عندما تعلم أنه أستاذ «أو أفندى»، وتطلب من أمها أن تفتح له الأبواب، وأن يُستَقبلَ استقبالا حسنا، ويعنى هذا بالطبع أنها تقبله، ومن ثم فإن على الأسرة أن تبدأ فى التفكير فيما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال. ومتى تمت الموافقة المبدئية، وفقا للعادات المرعية فإن الاستعدادات لإتمام الزواج تأخذ طريقها لتمر بمراحل إعلان الخطوبة، وتقديم الشبكة و المهر وإعداد الجهاز، حتى تنتهى إلى الليلة الأولى المهمة فى نهاية الرحلة . . إنها ليلة الحنة . . وهى الليلة التى تسبق زفاف الفتاة إلى عريسها، وفيها تصور الفتاة فرحتها بالغد الموعود، وتطلب من أمها أن تحنى لها يديها، ورجليها استعدادا للغد. ولكنها فى غمار فرحتها تلك لاتنسى أباها وأمها، وأنها سوف تفارقهما، مما سيسبب لها بعض الآلام:

حنينى ياامه حنينى وغزالى بكره هايجينى
حنينى ياامه حنينى وغزالى بكره هايجينى
حنى لى إيديه وكعوب رجليه
وغلاوتك ياامه . . هاتعز عليه . . حنينى
حنينى ياامه حنينى وغزالى بكره هايجينى
والليله الجايه دخله بصباحيه
وغلاوتك يابا . . هاتعزى عليه . . حنينى
حنينى ياامه حنينى وغزالى بكره هايجينى (١٠٧)

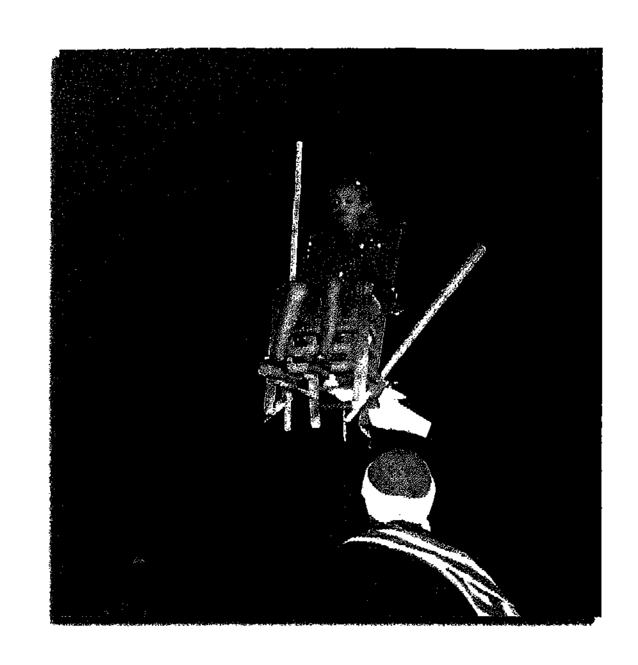
ولكن هذه الآلام تذوب وتتلاشى فى غمرة الاحتفال بليالى الفرح، وخاصة الليلة الأخيرة التى تلى ليلة الحنة، وهى ليلة الدخلة التى تزف فيها العروس إلى عريسها:

محلا ليالى الفرح نملا ونكيل بالقدح
محلا ليالى الفرح نملا ونكيل بالقدح
محلا عروستنا وقعدتها والورد مرشق فى قورتها
تعا ياعريسنا حدتها تفرح وقلبك ينشرح (١٠٨)
محلا ليالى الفرح نملا ونكيل بالقدح

وبإتمام الزفاف يبدأ العروسان فى ممارسة



رقصة التنورة



حياتهما معا، ويتأكد العريس حينئذ أن مادفعه من مهر يساوى مايشعر به من غبطة وفرح عندما يلتقى بعروسه التى تتجه إليه بينما رفيقاتها يغنين لها:

دوسى ياالعروسه ع البساط ودوسى
دوسى ياالعروسه ع البساط ودوسى
داست العروسه وشخشخت بحلقها
رد العريس وقال حلال يافلوسى
دوسى ياالعروسه ع البساط ودوسى

ومن الملاحظ أن الحب المرتبط بالجنس لا وجود له تقريبا فى أغانينا الشعبية، ويندر أن تجد أغنية تعبر عن الرغبة الجنسية، أو تشير إليها صراحة، كهدف فى حد ذاته. ولكن يأتى التعبير عن الجنس مغلفا مشارا إليه بشكل رمزى فى إطار العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة عند الزواج.

ولا تشذ المواويل فى تعبيرها عن الغزل والحب، عن هذه الأغانى، وإن كانت تتميز عنها بقدر أكبر من الفنية والتشبيهات الأكثر تعقيدا نتيجة لطبيعة المواويل الخاصة وقوالبها التعبيرية التى تميزها، يقول الموال:

فى ليحة الفجر قابلنيا لجميل بيملى
لابس قميص قصب ومكللفه جمله
أنا قلت ياامبابى ياساكن الرملة
هوه القمر فى السما واش نزله يملى[١٠٩]

وفى موال آخر يقول:

دخلت بستان بافترج على اللي فيه
ومديت إيدى آخد ورده من اللى فيه
نظرت يمينى وقالت دا الحلال أحسن
والكرم كرمك لما يستوى نقيه[١١٠]

ويطول بنا الحديث، إذا تتبعنا كل الأغانى التى ترتبط بالحب والغزل والزواج، ولكننا وقفنا عند أهم المضامين التى تميز هذه الأغانى وهناك بالطبع تفاصيل كثيرة، خاصة بالعلاقة بين المحبين، والرسائل التى يتبادلونها، بشكل مباشر، أو غير مباشر، عن طريق «الحمام» أو «الأعين» كما أن هناك «العزول» الذى يتربص بالمحبين لكى يفسد عليهم حبهم، و«الحاسدين».

وإذا كانت هذه الأغانى تصور فرحة العروس بعريسها ومشاعرها إزاء هذا الحدث المهم فى حياتها، وكل مايحيط به من مظاهر وأحاسيس حتى إتمام زفافها، فإن هناك أيضا بعض الأغانى التى تصور إعزاز الفتاة لأبيها، وأمها وإخواتها، وكل عائلتها، وأنها تتمنى أن يمنعها أبوها من الذهاب إلى بيت عريسها.

يحلف عليه الليله يارب أبويا يحلف
عليه الليله يارب أبويا يحلف
يحلف عليه الليله وأنا العزيزه
وآبات فى وسط العله.. يارب أبويا يحلف
عليه الليله يارب أبويا يحلف
عليه باتى يارب أبويا عليه يحلف
عليه باتى يارب أبويا يحلف
عليه باتى وأنا العزيزه
وأبات فى وسط اخواتى.. يارب ابويا عليه يحلف[١١١]

وهكذا تعطى الأغنية الشعبية إلى حد كبير صورة عامة واضحة لمختلف العلاقات والعادات التى تصاحب الزواج.

العادات المتعلقة بالموت

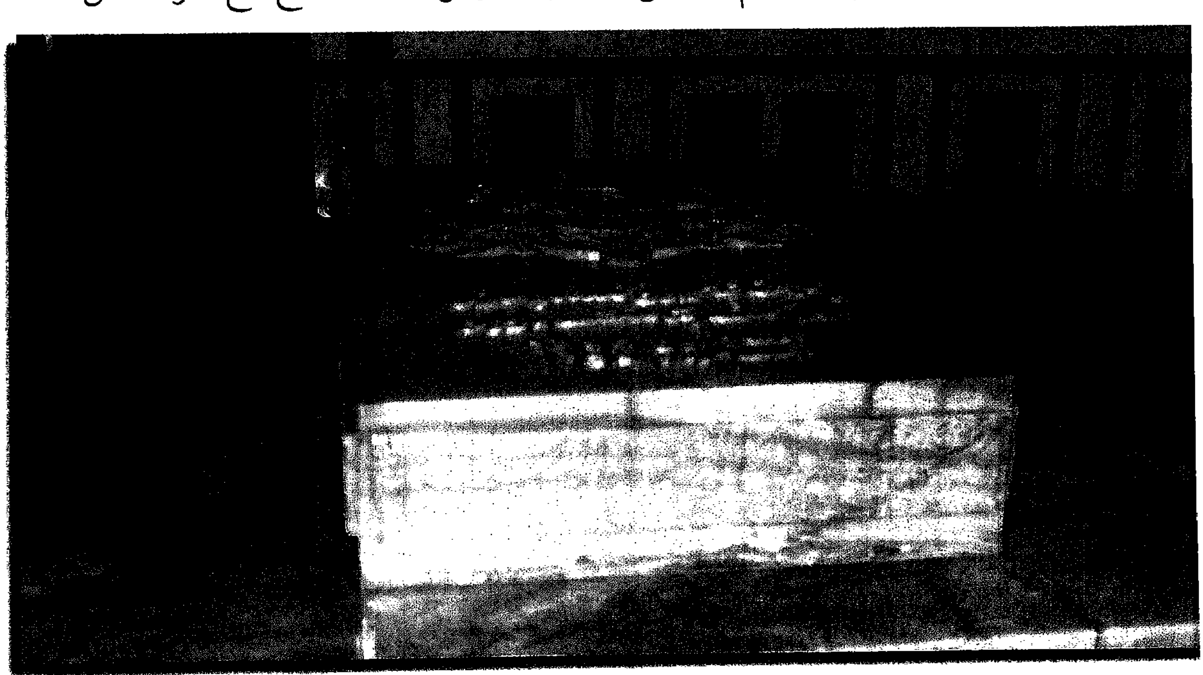
للموت فى الثقافة الشعبية المصرية خصوصيةٌ، تجعل العادات والتقاليد المرتبطة بحدوثه، تدور فى تلك الأفكار والمفاهيم التى يتبناها أفراد المجتمع حول الموت، وكان لتلك العادات والتقاليد هذه الخصوصية التى تختلف بها عن غيرها من الثقافات، ويأتى هذا التميز من خلال الفلسفة التى تأسست عليها الحضارة المصرية القديمة، حيث رأت فى الموت حادث انتقال من حياة قصيرة منتهية إلى حياة أبدية سرمدية خالدة، وليس معنى ذلك بالقطع عدم تأثر الفكر الجمعى المصرى بتعاقب الحضارات التى مرت عليه، لكن القصد يرمى إلى أن ذلك التأثير لم يتعد حدود الإضافة والمزج دون الإخلال التام لكافة عناصر العادات والتقاليد المرتبطة بالموت.

ولايجوز لنا بالطبع أن نُغفلَ اعتناق أغلب أفراد المجتمع المصرى للإسلام، وماستتبع ذلك من تطويع بعض المعتقدات القديمة لما ألزم الإسلام به. كما كان لاقتراب الفكرة الأساسية للموت بين المعتقد المصرى القديم والدين الإسلامى من حيث إن حادثة الوفاة نقطة الانتقال بين حياتين، دفع ذلك إلى عدم المساس الكلى للعادات والتقاليد المرتبطة بالموت.

إلا أن الدراسة الميدانية المتأنية تكشف عن بعض ملامح التغير التى بدأت تطرأ على الفكر الجمعى المصرى بتأثير العوامل - التى دفعت إلى التخلى عن بعض العادات - ومن أهمها التعليم والاتصال بوسائله المختلفة والتى كان لها التأثير الأكثر قوة فى العقل والوجدان المصرى بتفوق واضح من حيث سرعة التأثير، بشكل يجعلنا ندعى بلا تردد أن التعليم وتكنولوجيا الاتصال الحديثة قد زعزعت بعض أركان العادات والتقاليد المرتبطة بالموت والتى لم تجرؤ آلاف السنين أن تتعرض لها بإضافة أو إحلال(١١٢).

وتجدر الإشارة كذلك إلى أنه على الرغم مما سبق ذكره إلا أن العادات والتقاليد المرتبطة بالموت ماتزال تنفرد بخصوصية مصرية خالصة تختلف بها عن غيرها من الأمم والحضارات.

يفيد الواقع الميدانى أن معظم المصريين يحاولون التصالح مع الموت من خلال



مقابر إحدى العائلات بمصر

مايصورونه لأنفسهم بقدرتهم على التنبؤ بحدوثه من خلال رموز الأحلام التى يرونها فى نومهم، وكذلك ماقد يرمى إليه سلوك بعض الحيوانات، والطيور ودلالات ذلك السلوك فى الكشف عن وقوع الموت لشخص ما، فضلاً عن سلوك شخص المتوفى قبل وقوع الحادث.

أولاً ـ الوفاة وإعلانها

١ـ سلوك ووصايا المحتضر:

تصدر عن المحتَضَر بعض السلوك والوصايا التى يحاول من خلالهما الانفصال عن المجتمع الذى كان يعيشه، بما فيه من معاملات يومية، ومن به من الأهل والأحبة. وسنعرض فيما يلى لكليهما بادئين بتناول سلوك الميت قبل الوفاة ثم وصاياه.

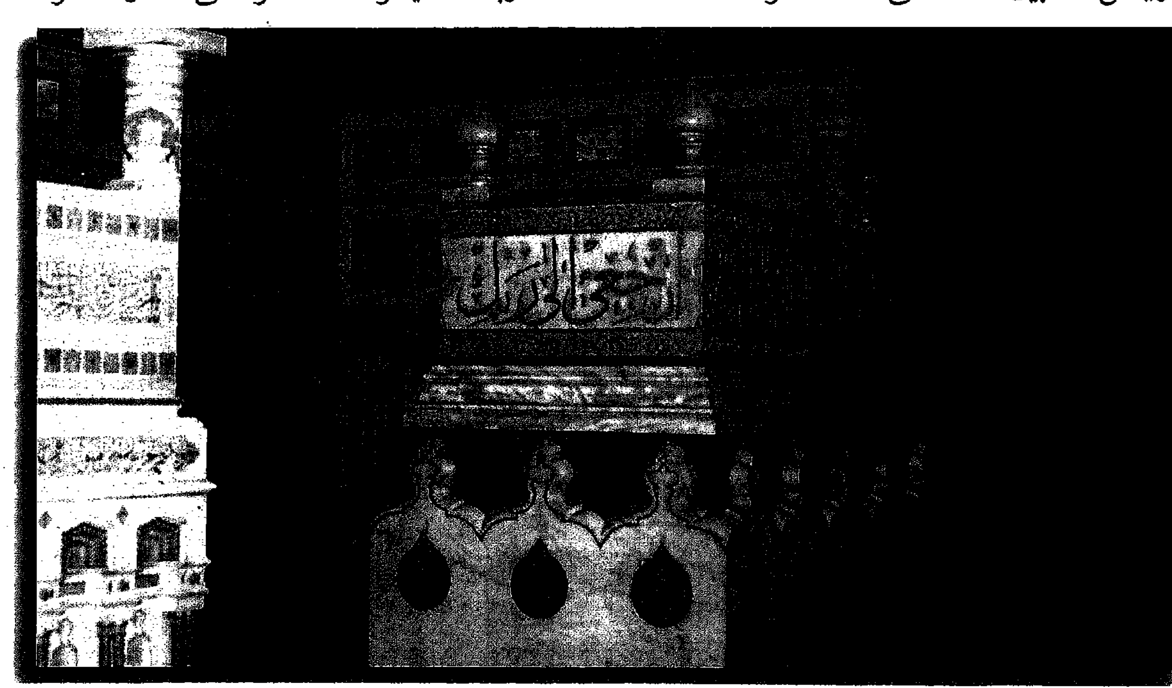
أـ سلوك الميت قبل الوفاة:

ينقسم سلوك المحتَضَر إلى سلوك يحاول به الانفصال عن الدنيا وآخر ليندمج به فى الآخرة ويمكن أن نبين ذلك على هذا النحو.

١ـ سلوك الانفصال:

يشمل هذا السلوك: تصريح المحتضر بأسرار خاصة كان قد احتفظ لنفسه بها فى حياته الأولى، وغالبا مايطلب المحتضر من يأتمنه على تلك الأسرار ليعهد بها إليه ومنها:

- الإفصاح عن مكان نقود كان خبأها فى مكان ما، أو بعض الديون السرية التى عليه سدادها لآخرين، أو ديون له عند بعض الناس، كذلك بعض الأمور السرية فى علاقاته الاجتماعية، والتى كان يلزم إخفاؤها فى حينها عن الناس.
- طلب الأحبة لوداعهم الوداع الأخير.
- النفور من الدنيا بالبصق على يساره، ويقال: «ان كل الناس الطيبين بيتفواع الدنيا قبل مايموتوا».
- الشعور بشهية غير عادية للطعام «ساعات الواحد قبل مايموت على طول، نفسه تتفتح للأكل قوى، نقوم نقول آه دا بياكل ف آخر زاده».
- صحوةُ الموت.. تحدث تلك الصحوة لبعض المحتضرين، فى بعض الأحيان، وبعد أن يكون المحتضر على مشارف الموت،



مقابر إحدى العائلات المصرية

يعود إليه فجأة الوعى، بما حوله، والانتباه لما يقولون، والسؤال عن بعضهم، ويتحدث إليهم، ويعتقد البعض أن المريض قد برأ من علته، إلا أن المجربين من الحاضرين يعرفون أن هذا الانتباه ماهو إلا صحوة الموت، والتى هى دليل على دنو أجل المريض.

٢. سلوك الاندماج :

ويشير هذا السلوك إلى محاولة المحتضر الاندماج فى حياته الآخرة بصورة حسنة ترضى الخالق وتضمن له استقبالا طيبا ومنه :

– المسامحةُ. . بعض المحتضرين قد يطلبون بعض الاشخاص، وخاصة مَنْ كان قد ظلمهم فى حياته ليطلب منهم السماح.

– الندمُ. . كما أن البعض يعلنون أمام الحاضرين ندمهم على إثم اقترفوه، أو فعلة ارتكبوها فى حق غيرهم، أو تصرف يرون أنه غير مرضى عنه بين الناس، وسيعاقبون عليه فى حياتهم الثانية، ولذا فهم يتبرأون منه طبعا فى الانفصال عنه، ورغبة وأملا فى الاندماج والاتصال بحياتهم الثانية.

– الوضوءُ. . كما يطلب بعض المحتضرين ممن حولهم تمكينهم من إتمام الوضوء، ويرى الناس فى هذا المسلك تعبيراً عن تُقى وورع المحتضر، ورضا الخالق عنه مما دفعه إلى ذلكً السلوك.

ب. وصايا المحتضر :

وتنقسم كذلك إلى وصايا ينفصل بها المحتضر عن حياته الأولى، ووصايا يتصل أو يندمج بها فى حياته الأخرى، ويتضح ذلك فيما يلى :

١. وصايا الانفصال :

يوصى بعض المحتضرين وهم على فراش الموت بوصايا تفيد أو تسهم فى انفصالهم عن الحياة الدنيا وهى :

– الوفاءُ ببعض الديون. . يحرص بعض المحتضرين على التوصية بتسديد ديونهم، لأنه بهذه الوصية يكون قد أزاح عن روحه عبء الحساب فى الآخرة عن ديونه التى لم يسددها، ويلقى بذلك على أهله عقاب عدم التنفيذ.

– وصاية بمنع المشاركة فى طقوس وفاته.

كما يوصى بعض المحتضرين بألايشارك أحد الكارهين له، أو المتخاصمين معه، فى واحدة من الطقوس الجنائزية التى يستدعى إقامتها اشتراك عدد من الناس مثل الغسل. ويكون الممنوع من المشاركة فيه أحد الأقارب المقربين حيث لايحضر الغسل سواهم.

ويمكن أن يكون المنع أيضا عن المشاركة فى الجنازة، وكذلك يمكن أن يوصى المحتضر بألا يساعد أحد الأشخاص فى حمل نعشه، كما يمكن التوصية بأن يمنع أحد أقاربه بتلقى العزاء فيه، ويمكن أن يوصى المحتضر بمنع اشتراك أحد الأشخاص أو عدد منهم من الحضور فى جميع الاحتفالات الجنائزية الخاصة به.

٢. وصايا الاندماج فى الحياة الأخرى:

ويعنى بها الوصايا التى يوصى بها المحتضرون أو المشرفون على الموت لأهلهم وذويهم، حيث يرون أنها تسهم فى اندماجهم فى حياتهم الثانية اندماجا يرضيهم، ويرضى به الخالق حتى يسهل عليهم ذلك الاندماج وهى.

– التبرؤ من النائحات.

– التوصية بالدفن مع شخص محدد، تعد التوصية بالدفن مع أفراد معينين تربطهم علاقات طيبة بالمتوفى، إشارة إلى رغبته فى الاندماج فى الحياة الأخرى بشكل يرضاه، انطلاقا من أن الشخص الذى اختاره ليكون مقامه فى مثواه الأخير معه، يستطيع ببواعث من علاقتهما القديمة، أن يعرفه على الحياة الأخرى التى ألم بها وعايشها قبله، فضلا عن تأكده من طيب المقام معه

بدافع العلاقة الحميمة التى كانت تربط بينهما فى الحياة الأولى.

- التصدق على روحهم.
- قراءة فاتحة الكتاب. وهى توصية إلي ذويهم بمداومة قراءة الفاتحة على روحهم لتكون رحمة مما يمكن أن يلاقيه من عذاب ونور لظلمة القبر الدامس.

٣ـ الواجب على الحاضرين وقت خروج الروح :

هناك واجبات يلتزم بها الحاضرون وقت خروج الروح من جسد الميت، وهى واجبات لازمة التنفيذ، لتساعد روح متوفاهم على الاندماج فى الحياة الثانية، اندماجا حسناً وتنحصر تلك الواجبات فيما يلى:

- توجيه المحتضر إلى اتجاه القبلة، حيث تكون قدماه فى اتجاهها ورأسه على العكس منها، بحيث يصبح وجه الميت إذا وقف مكانه ناحية القبلة، بعكس ما إذا كانت الرأس هى التى فى اتجاه القبلة، والجسد مسجى على الأرض.
- مساعدة المحتضر لتسهيل خروج الروح وذلك بتقطير المياه فى فم المحتضر، وقراءة القرآن. ومنع البكاء والعويل من حوله حيث يُعتَقَدُ أن ذلك البكاء يدفع بالمحتضر إلى محاولة الإفاقة ليرى مايجرى حوله، مما يتسبب فى ارتداد الروح إلى جسده، ولذا فأهم مايجب على الحاضرين وقت خروج الروح «ترويق» المكان للروح حتى تخرج فى سلام، وتستطيع الاندماج فى الحياة الثانية.
- التشهُّد على الميت بعد التأكد من انسلاخ روحه عن جسده.

٤ـ العلامات التى تدل على قرب وقوع الوفاة:

أ ـ العلامات الفيزيقية ومنها بدء حشرجة صوت المحتضر، واصفرار وجهه، ولزوجة عرق جبينه، بالإضافة إلى تغير شكل اتجاهات العين «تغريبة العين».

ب ـ بعض الأقوال التى تصدر عن المحتضر كمعرفة موعد خروج الروح، وكذلك رؤيتهم لبعض الموتى ومناداتهم كالآباء أو الأمهات أو الأصدقاء الحميمين.

٥ـ سلوك المحيطين بالميت بعد حدوث الوفاة:

يحرص أهل المتوفى على ألا يوجد بجوار المحتضر وقت طلوع الروح وبعد الموت، إلا أهله المقربون إليه. وهذه الواجبات التى يلتزم أهل الميت بإتمامها بعد وفاته، تختلف عن واجبات إدماج المحتضر فى حياته الثانية، حيث إن ذلك الإدماج يخص الروح التى هى فى المعتقد الشعبى التى ستلاقى ربها وهى حية لاتموت.

أما الجثة فهى فانية لاتتمتع ببقاء أو خلود، ولذا فقد يحرص الأهل على تهيئة الجثة للغسل بشكل مشرف حتى لايتعرضوا للنقد من جانب كل من يرى الجثة، وبهذا المنطق يتم أداء بعض الممارسات التى تهدف إلى إظهار الميت أو جثته فى صورة حسنة كتسبيل عينيه، ووضع اللثام تحت فكه السفلى حتى لايبقى الميت فاغرا فاه ويلام أهله على هذا التقصير، كذلك يجب عليهم تغيير ملابسه التى كان يرتديها وقت وفاته. وغسل جسده تحسبا لإمكان تبرز المحتضر نتيجة لصعوبة خروج الروح، ويطلق على هذا النوع من التغسيل «حماية الزنقة»، أما «الزنقة» فيطلق عليها «زنقة عزرائيل» وتشير إلى الضيق الذى يمكن أن تحدثه عملية خروج الروح بواسطة عزرائيل.

كذلك يجب عليهم ربط قدميه بعد تسجية جسده على ظهره وضم ساقيه إلى بعضهما، وتثبيتهما على هذا الوضع، عن طريق ربط الأصبع الكبير لإحدى القدمين بالأصبع الكبير للقدم الأخرى، أما الذراعان فيوضعان على صدر المتوفى بحيث تعلو اليمنى اليسرى،

والتقصير فى هذا الأداء قد يؤدى إلى ابتعاد القدمين عن بعضهما، ويصعب بعد ذلك إعادتهما. وهو ماقد يدفع إلى انتقاد الناس أهل المتوفَّى لتقصيرهم فى تهيئة الجثة بشكل لائق.

٦ـ الروح :

يعتقد المصريون بأن الروح مسار خروج فى طريقها للانفصال عن الجسد. حيث يرون أن الروح تبدأ فى الانسحاب من الأطراف «اليدين والقدمين» ثم بقية أجزاء الجسد حتى يتم لها الخروج من فم المحتضر. ويعتقدون كذلك بأن الحالة التى تخرج بها الروح من جسد الشخص تدل بشكل واضح على سلوكه فى حياته الأولى، الذى يتسبب في العذاب الذى يلاقيه المحتضر أثناء خروج الروح أو للسهولة واليسر التى يتم بها الانسحاب، وتسود المجتمع بعض المعتقدات حول الدور الذى تلعبه الروح فى شكل وجه المتوفى، حيث يعتقد أن الروح عندما تخرج من الجسد، تسرع إلى لقاء ربها، وتعرف من خلال هذا اللقاء المقام الذى ستكون عليه فى الحياة الثانية من خلال سلوك صاحبها فى حياته الأولى، ثم تعود الروح بسرعة إلى جسد المتوفى لتخبره بهذا المصير، فتظهر على وجهه علامات السعادة أو الابتئاس ويلاحظ المحيطون بالميت تلك العلامات فيقولون «فلان كانت خاتمة الخير باينه على وشه» أو «فلان كان وشه أسمر ومحروق كده وهو ميت».

كما يسرى الاعتقاد بأن الشخص لايموت موتا كليا إلا إذا خرج من جسده «طبعه» بعد «روحه» ويؤكد على أهمية بل لزوم خروج «الطبع» بعد خروج الروح ويرون أن أهمية هذا الترتيب فى الخروج تعود إلى إمكانية أن ترتد الروح إلى صاحبها فإذا الطبع قد سبقها فى الخروج فلن يتمكن من العودة إلى الجسد، ومن هنا سيتغير «طبع» الشخص وهذا أمر مستحيل كما يرى الناس، وكأن هذا الترتيب هو إشارة خفية لحكمة شعبية ترمى إلى أن «طبع» الإنسان يلازمه حتى تنتهى به الحياة. و«الطبع» كما يقصده الناس هو النفس الأمارة بالخير أو الشر، ولاتختلف طريقة خروج الاثنين حيث يتم عن طريقة «شهقه» تخص روحه تعقبها أخرى تخص طبعه.

وهناك آراء متعددة حول طبيعة الروح ومقرها بعد الموت، إلا أن تلك الآراء تُجمع على أن الروح حية لاتموت تنزل إلى رحم الأم عندما يبلغ الجنين أربعة شهور، وعند دخول الروح إلى جسد الجنين يكتب ماله وماعليه، سعادته، وشقاؤه.

وتؤكد بعض الآراء على أن الروح بعد خروجها تذهب إلى خالقها لترى منزلتها عنده ثم تعود لتستقر فى الأذن اليسرى للمتوفَّى لترى مايحدث حوله، ثم تذهب مع المتوفَّى حتى يصل قبره، وتستمر هناك حتى ينتهى من حساب القبر، ثم تتركه وتعود مرة أخرى إلى بيته وأهله وتظل معهم فى داره حتى يوم الأربعين، بعد ذلك تغادر إلى مستقرها الأخير الذى تظل فيه حتى يوم القيامة، وقد يكون ذلك الاعتقاد هو أحد الدوافع أو أهمها الذى يدفع بتحديد الحزن على الميت فى يوم الأربعين من وفاته.

كما يرى بعض الناس أنه يلزم أن تطرد روح المتوفَّى من داره لما يمكن أن تسببه لأهله الأحياء من ضرر، ويتم ذلك عن طريق قراءة القرآن فى الغرفة التى تمت بها الوفاة.

٧ـ إعلان الوفاة :

تتعدد العادات المتبعة لإعلان الوفاة فى المجتمع، وقد يرجع ذلك إلى أنها لاتتصل باعتقاد راسخ، أو واجبات تفرضها التقاليد نحو الميت. والتغير هنا ينصب على أسلوب الإعلان، وليس فى الإعلان ذاته، فالإعلان

نفسه من أهم ماتتجه إليه العادة حيث يُعَدُّ ضرورة للتعريف بحدث جلل .

ويرى الناس أنه يمكن تأجيل إعلان موتى الليل إلي الصباح حيث إن استكمال المراسم ستتم فى النهار ولايجوز لأهل المتوفى أن يحملوا الناس مشقة السهر بجوار الجثة، وفى هذه الحالة يُرسَلُ سرا فى طلب الأقارب المقربين لتحمل هذا العبء. وهذا التأجيل يمكن أن يحدث فى حالات خاصة بموت العجائز، من المرضى الذين يُتوَقَّعُ موتهم بين لحظة وأخرى، أما فى حالات موت الشباب، وكذلك حالات الموت المفاجئ فلا يتم تأجيل الإعلان عنها .

أساليب الإعلان :

١ ـ عن طريق النساء ذلك بعد حدوث الوفاة وبعد تمكن أهل الميت المقربين من تغيير ملابس المتوفى، هنا تبدأ النساء فى العويل والصراخ بصوت مرتفع يسمح بالإعلان عن حدوث الكارثة فى الدار التى تطلق منها الصيحات ليقبل عليها كل من وصل إلى مسامعه صراخ النساء ليعرف الخبر .

٢ ـ عن طريق المنادى . . وكان يلجأ أهل المتوفى إلى المنادى الذى يجوب القرية، وفى بعض الحالات القرى المجاورة ليعلن عن الوفاة بهذا النداء .

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله، توفى إلى رحمة الله «فلان الفلانى» والدوام لله، والدفنة الساعة كذا «بذكر ساعة الدفن» .

يذكر كبار السن أن الاستعانة بالمنادى فى الإعلان عن الوفاة هى عملية بديلة للاستعانة بالطبلة والتى كان لها شكل خاص، وطريقة معينة فى الدق عليها، ويسير بها القائم بالإعلان فى أرجاء القرية ليدق دقته المميزة التى يُعرَفُ من خلالها الإعلان عن وفاة أحد الأشخاص، ويقوم الرجل بالإعلان عن اسمه لكل من يسأله . ويتم الإعلان الآن باستخدام مكبرات الصوت التى تنتشر بمساجد القرية .

٣ ـ عن طريق «النجاب» وكان يتم إعلام أقارب وأصدقاء ومعارف المتوفى وأهله بالقرى المحيطة بقرية الدراسة عن طريق إرسال أحد الأشخاص إلى القرى المحيطة حاملا معه كشفا بأسماء من سيقوم بتبليغهم بالوفاة، والذين يهمهم القيام بواجب العزاء فيه، وكان يتولى كتابة هذه القائمة أحد الأشخاص العارفين بعلاقات الميت وأهله ببعض الأفراد من القرى المحيطة . ويمكن أن يقوم بتلك المهمة أكثر من شخص يرسَلُ كلٌّ منهم إلى إحدى القرى، والنجاب ليس صاحب مهنة أو عمل بهذا الاسم، إذ إن هذا اللقب يطلق على القائم بهذه العملية فى حينها . وفى أغلب الأحيان لايؤجَّرُ القائم بهذه العملية نظير قيامه بها، إذ يكون عادة واحدا من أقارب المتوفى أو جيرانه .

ويهمنا أن نشيرإلى تغير هذا النوع من الإعلان إلى بديل يقوم بمهمته عن طريق تأجير إحدى سيارات الأجرة وتركيب مكبر صوت فوقها لتمر فى القرى المحيطة ويعلن من خلال المكبر موت فلان قريب فلان وفلان وموعد دفن جثته .

كما أن هذا النوع من الإعلان والتغيرات التى طرأت عليه تخص الطبقة العليا وبعض أفراد الطبقة الوسطى الذين تربطهم علاقات ومصالح وصداقات بأفراد آخرين بالقرى المجاورة .

٤ ـ الإعلان بالصحف اليومية، ويقتصر الإعلان بالصحف اليومية على نفر قليل من الأفراد القادرين و الأسر الكبيرة . هذا النوع من الإعلان يهدُف إلى التباهى والتفاخر وإظهار القدرات المادية للمتوفى، ويتضاءل فى مقابل ذلك الغرضُ الأساسى منه .

ثانيا: التجهيز للدفن «الغسل والتكفين»

١- التجهيز:

يقصد بالتجهيز، إعداد الميت للدفن من خلال غسله، وتكفينه، ويلزم لتلك العمليات كثير من الأمور، التى يحرص على أدائها أقارب الميت والمحيطون به من الأصدقاء والجيران، هذه الاستعدادات لابد لها أن تؤدَّى بشكل سريع انطلاقا من رؤى المجتمع بأن إكرام الميت سرعة دفنه، ويمكن القول بأن العلاقات الاجتماعية تتجلى فى أفضل صور تضامنها فى الأمور المتعلقة بتجهيز الميت للدفن، وهو مايسهم فى مزيد من الترابط والمشاركة الاجتماعية.

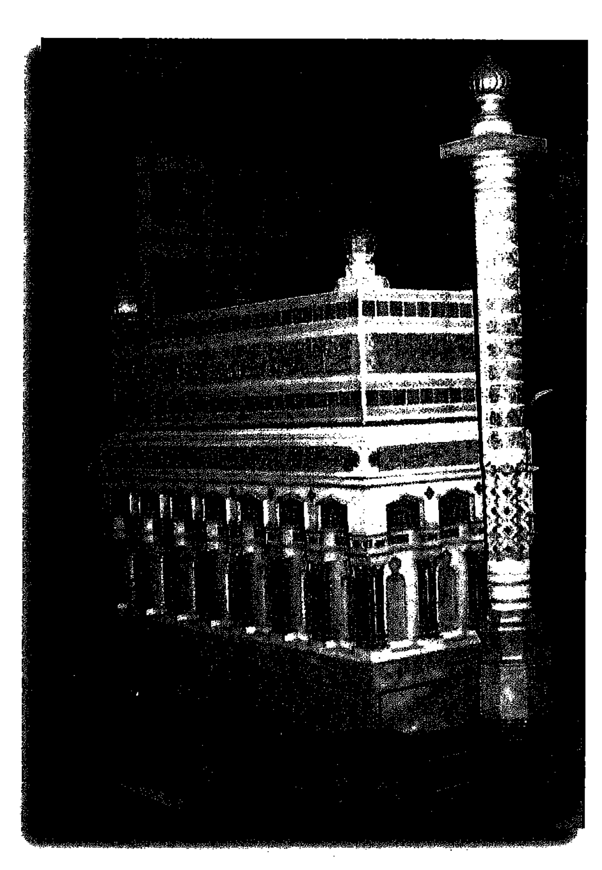
ولقد أظهرت الدراسة الميدانية أن هناك جانبين للتجهيز، الأول يتم من خلال أقارب الميت والمحيطين بهم، والثانى يتم بواسطة المتخصصين، كالمغسل للقيام بالغسل وتلبيس الكفن، والخياط لتفصيل الكفن، بالإضافة إلى اللحاد الذى يقوم بإدخال الجثة إلى القبر، وأيضاً الملقن الذى يتولى تلقين الميت بعد الدفن.

وفيما يتعلق بالجانب الأول الذى يقوم به أهل المتوفى والمحيطون بهم من الأصدقاء والجيران، فإنه يختلف من حيث طبيعة المهمة، وإمكانات القائمين بها، فالمهام الأساسية كشراء الكفن وكتابة النعى «بالنسبة للطبقة العليا» واستخراج تصاريح الدفن، والاتفاق مع قارئ القرآن، تُوكَلُ إلى بعض الرجال من الأقارب المقربين أو الأصدقاء الحميمين، أو الجيران الذين يمكنهم القيام بتلك المهام ذات الطابع الخاص.

وتُوكَلُ المهام التى لاتتطلب نفس درجة دقة الأداء كالإعلان عن الوفاة فى القرى المجاورة «النجابة» والاتصال الهاتفى بالأقارب والمعارف فى المدن البعيدة، والإرسال فى طلب مكبر الصوت وأجهزة الإضاءة، إلى الأقارب والأصدقاء والجيران، ويختص بها الشباب حيث تأتى هذه المهام فى مرتبة أقل من المهام السابقة والتى ربما يؤدى وقوع أخطاء بها إلى أن يصبح أقارب المتوفى موضعاً للنقد من جانب المحيطين بهم، ولذلك فإن دقة اختيار القائمين على المهام المختلفة يعطى قدرا طيبا من الاطمئنان لأهل الميت على سلامة تنفيذها.

كما أن هناك بعض المهام الثانوية التى توكَلُ إلى الفقراء والعمال كتنظيف الدوار لاستقبال المعزين والإرسال فى طلب قارئة القرآن لدى السيدات المعزيات، كذلك الإرسال فى طلب الغسل، وتجهيز القبر للدفن.

وفى كل الأحوال، لابد من وجود أحد الأشخاص من أقارب المتوفَّى ليمسك بدفة الأمور، ليكون هو الموجه إلى تحديد المهام، على أن يكون ذا خبرة ودراية وتجربة بمواجهة مثل هذا الموقف وأن يتحلى ببعض الصفات الخاصة، كالقدرة على القيادة وأن يُوفِّر الإمكانات المادية التى تمكنه من تحمل كافة



النفقات حتى الانتهاء من مراسم العزاء ومحاسبة أهل الميت المقربين كأبنائه أو أخوته، على ما أنفق. هذه الإمكانات تتيح لهذا الشخص القدرة على القيام بهذا الدور، فيكون بذلك صاحب الرأى ومصدر المشورة، والمتحمل الأول لكافة المسئوليات التى تتعلق بتجهيز الميت للدفن، والجنازة، والعزاء، وكل مايتعلق بالاحتفالات الجنائزية.

٢ ـ الغسل:

الخطوات المتبعةُ فى الغُسل واحدة بالنسبة لجميع الموتى، إلا فى حالة موت الشباب والشابات، إذ يذكر كبار السن أنه كان يحدث منذ مايزيد على عشرين عاما فى حالة موت أحد الشباب أو الشابات الذين لم يسبق لهم الزواج أن يتولى أهلهم إعداد جثثهم، كما لو كان ذاك الإعداد يخص تأهيلهم لليلة عرسهم، حيث كان الأهل يحرصون على تحنية الشباب والشابات فى أيديهم وأرجلهم، وفى حالة الشابات يتم تخليصهن من الشعر الزائد فى أجسادهن، وكأنها ستزف إلى عريس سيعيب عليها تقصيرها فى النظافة، وكأن لسان حال الجماعة يقول: إنه العُرسُ وليس الموت، إنه الاستمرار، وليس العدم والفناء، كما يمكن القول بأن هذا التجهيز ربما يشير إلي محاولة التعويض عما حرم منه الشباب من زينة عرسهم، ذلك الذى تعتبره الجماعة أهم حدث يسعده وأهله على طول حياته، وحرمان الموت من هذه الفرحة، هو حرمان من أحد حقوقه الطبيعية فى الزواج والسعادة.

وخلافا لهذا النوع من تجهيز الشباب للغسل الذى ندر تماما، فإنه من المعتاد الإرسال فى طلب المغسل، ويجب بل يلزم أن يكون رجلاً فى حالة الموتى من الرجال وأنثى فى حالة الموتى من النساء، وفى الغالب فإن المغسل يكون أحد خدام المساجد أو الفقهاء الذين يقرأون القرآن على المقابر، أى أنه أحد الفقراء الذين يستحقون الصدقة، ولذا فهم يتقاضون أجرا نظير مايقومون به.

أدوات الغسل ولوازمه:

١ ـ مياه الغسل.. هناك مجموعة من الضوابط التى يجب من القائمين على عملية الغسل التنبه إليها وأهمها: اشتراطُ طهارة مَنْ يقوم بعملية نقل الماء من مصدره إلى مكان تسخينه، كما يجب أن تكون المياه بعد تسخينها على قدر متوسط من السخونة بحيث يتحملها جسد الميت، حيث يسرى اعتقاد بأن الميت يشعر أثناء غسله بدرجة حرارة المياه، فيضجر من شدة سخونتها أو برودتها.

كما تسود بعض المعتقدات المتعلقة بقدرة مياه غسل الميت والأدوات المستخدمة فى غسله كالليفة والصابون فى تخليص العاقر من علتها عن طريق الاستعانة بها أثناء الاستحمام.

٢ ـ المغْسَلة.. وهى طاولة خشبية تحملها أربعة أرجل ارتفاع كل رجل منها يزيد على المتر قليلا «١١٠ سم» وعرض القاعدة التى توضع عليها الجثة «٨٠ سم» وطولها حوالى «٢١٠ سم» وبها ثقوب تسمح بنزول الماء المستخدم فى الغسل إلى أسفلها، حيث يُستقبَلُ فى آنية كبيرة «طشت»، ومن الملاحظ أن المغْسَلة ليس بها نقوش، ولم تدهن بالألوان أو غيرها، ولم تُزَخْرف بأية زخارف.

وتبدأ عملية الغسل بفك الأربطة التى ربطت بها بعض أجزاء الجثة، بعد الوفاة، والتى تلزم لتثبيت تلك الأجزاء فى وضع محدد، وبعد ذلك يقوم «المغسل» بتليين أطراف الجثة، أى تحريكها إذا كانت حالتها تستدعى ذلك التليين، ويحدث هذا فى حالة مضى فترة طويلة على الوفاة، كأن يكون الميت قد توفى ليلاً وبُدِئَ فى غسله فى اليوم التالى للوفاة. ثم يقوم المغسل بخلع ملابس الميت ليبدأ فى «تليف» الجثة أى

غسلها بالليفة والصابونة، حيث يبدأ برأس الميت فوجهه فيديه، ثم بقية جسده بدءا من الجانب الأيمن ثم الأيسر، ثم رجليه أيضا اليمنى واليسرى. وبعد ذلك يغسل الجسد بالماء الفاتر، ثم يتأكد المغسل من خلو بطن الميت من الفضلات فيضغط عليها برفق ليخرج مابها عن طريق فتحة الشرج ويغسلها جيداً، ثم يضع عليها قطعة من القطن.

ويقوم المغسل بعد ذلك بتوضئة الميت، وهو يشبه وضوء الأحياء للصلاة، ماعدا المضمضة والاستنشاق فلا يُدخلُ الماء فى فيه ولا فى أنفه، ويدخل أصبعيَن مبلولتين بين شفتيه فيمسح أسنانه وفى منخريه فينظفهما. كما تختلف كذلك فى النية حيث ينوى المغسل بدلا من الميت فرض الوضوء فيقول: «نويت فرض الوضوء» بدلا من الميت، وهناك بعض الأدعية التى يتلوها المغسل أثناء توضيته للميت، والتى تختلف عن أدعية وضوء الأحياء، ففى حالة غسل الذراع اليمنى للمتوفى يقول المغسل: «اللهم أعطه كتابه بيمينه، وحاسبه حسابا يسيرا يارب»، يقولها ثلاثا، عند كل مرة يضع الماء فيها على الذراع، ويقول عند غسل ذراعه اليسرى: «اللهم يسر ولا تعسر» ثلاثا، وعند غسل شعره يقول: «اللهم حرم شعره وجسده على النار» ثلاثا، وعند غسل قدميه اليمنى ثم اليسرى يقول: «اللهم ثبت قدميه على صراطك المستقيم» ثلاثاً لليمنى وبنفس الدعاء ثلاثاً لليسرى.

وبعد توضئة الميت، يبدأ الغسل بالنية: «نويت الغسل بدلا من هذا الميت» ثم يصب عليه الماء القراح الذى يعمم به الجسد كله من رأسه حتى قدميه، ويقلب فى المرة الأولى على جانبه الأيسر وفى المرة الثانية على جانبه الأيمن، ويقال إن الغرض من تعميم المياه للجسد هو التحسب لإمكان أن يكون الشخص قد توفى وبه جنابة. ولابد من ستر عورة الميت أو الميتة أثناء الغسل، ويتم ذلك بوضع قطعة قماش لتغطية العورة تسمى «السترة».

وقد يقوم البعض بإطلاق البخور بجوار المغسلة أثناء عملية الغسل وهو مايتفق مع ماذكرته المصادر التاريخية عن قيام المصريين القدماء بهذا الإجراء على مومياء الميت.

ويعتقد بعض الناس بأن الأتقياء من الموتى يحاولون إظهار كرامات تدل على تقواهم أثناء عملية تغسيلهم حيث يحركون أذرعهم تجاه عوراتهم وتغطيتها بأكفهم.

٣ـ التكفين: يقوم المغسل بنفسه بتلبيس الكفن، يعاونه فى ذلك بعض أهل الميت المساعدون له فى عملية الغسل. ويتم تفصيل الكفن قبل إعطائه للمغسل، حيث يقوم بتفصيله أحد خياطى القرية الأقرب إلى دار المتوفى، ويحدث هذا أحيانا فى إحدى غرف بيت الميت، إذا كان التفصيل سيتم يدويا.

وتبدأ عملية التكفين على المغسلة بعد إتمام تجفيفها من المياه وتجفيف الجثة، ويبدأ بالنسبة للرجل بلَفِّ السترة حول عورته تلك السترة التى استُخدَمت كساتر للعورة أثناء الغسل، ويقوم المغَسل بعصرها من الماء ثم يعيد استخدامها لتقوم بنفس مهمة ستر العورة قبل تلبيس الكفن. أما فتحات الجثة كفتحة الشرج وفتحتى الأنف والأذنين فيضع المغسل فيهما قطعا من القطن يضاف إليها قطعة كبيرة تغطى الوجه كله.

ثم يبدأ فى تلبيس «القميص» وهو رداء طويل بأكمام طويلة، وليس فيه أية تفصيلات ويكون من القماش الكتان، ويلى القيمص «الدرج» الأول، وهو من نفس نوع قماش القميص، والدرج عبارةعن قطعة قماش مستطيلة تزيد على طول الميت بمقدار يسير، ويقوم الخياط بضم أحد طرفيه إلى بعضهما، ويلبس الدرج من طرفه المخيط عند الرأس، ثم يضيف المغسل الدرج الثانى إلي الجثة، وهو

من قماش الدبلان الأبيض، ويعتقد أن هذا هو الكفن الشرعى، والأدراج التى تلى ذلك وهى تصل فى بعض الأحيان إلى سبعة أدراج من أقمشة غالية الثمن كالجوخ والكشمير «فى حالة بعض أفراد الطبقة العليا»، غير ملزمة ولا يختلف تكفين النساء كثيرا سوى فى وضع سروال مخيط بدلا من السترة لستر العورة، ثم يعقبه القميص ثم الدرج الأول فالثانى وهما من القماش و«البفتة»، ويعقبهما أنواع الحرير فى حالة بعض أفراد الطبقة العليا التى تصل إلى سبعة أدراج.

ومن المعتاد أن تلف رأس الرجل بطاقية من القماش «الكتان» تنزل على وجهه لتغطيه، أما المرأة فتعصب رأسها بقطعة من القماش تشبه فى شكلها عصبة الرأس «المنديل» التى تستخدمه فى حياتها، يضاف إلى ذلك مايوضع للمرأة من مناديل حرير خضراء تلف كفيها، وجوارب فى قدميها عند الطبقة العليا.

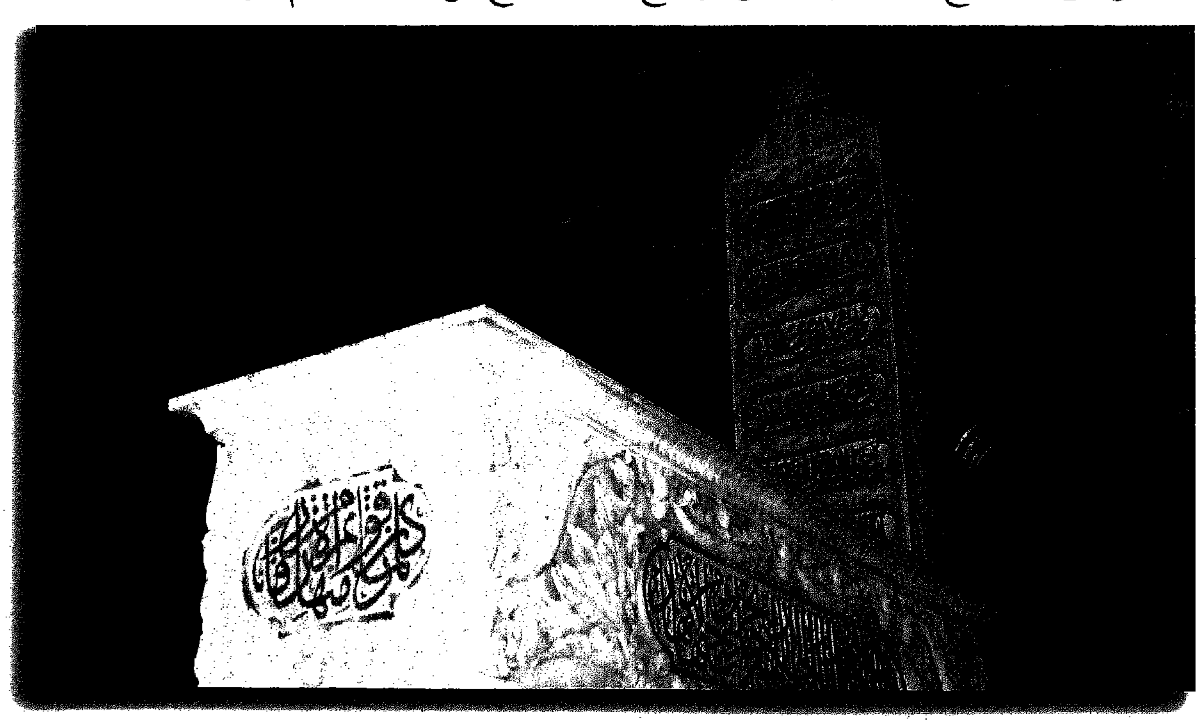
كما يلزم أن ترش الروائح العطرية على أدراج الكفن أثناء عملية التلبيس ويتفق نوعها مع القدرات المادية للميت وأهله، ويذهب البعض إلى أن الدافع خلف الإكثار من الروائح هو عدم تسرب أية روائح كريهة يمكن أن تصدر من الجثة. كما يحرص بعض الناس على رش بعض المياه المقدسة التى يجلبونها من بئر زمزم أثناء قيامهم بفريضة الحج، أو يبعثون فى طلبها مع أقاربهم لتبقى فى دورهم فى انتظار هذا الإجراء، وهو شكل من أشكال التبرك بتلك المياه المقدسة فى مفاهيم الناس.

ثالثاً: الدفن

يُعَدُّ الدفنُ الخطوةَ الأخيرةَ التى يخطوها جسد الميت بعيدا عن أهله، وتبدأمراحل الدفن بوضع الجثة فى النعش «الخارجة»، ثم السير بها إلى المسجد للصلاة عليها، وبعد ذلك تبدأ الجنازة فى طريقها إلى القبر، وعنده يأخذ الملقن فى القيام بمهمته بعد إتمام اغلاق القبر، وسنتناول فيما يلى تلك الخطوات بتفصيلات أدائها وأدواتها.

١- النعش ومكملاته:

النعش محفة خشبية تقوم على أربع أرجل، ارتفاع كل منها ٦٠ سم تقريبا، وطول الطاولة



الخشبية التى توضع عليها الجثة حوالى ٢١٠ سم، وعرضها حوالى ٥٥ سم، ويمتد من هذه الطاولة أربع أذرع ليتمكن حاملو النعش من حمله طول كل منها ٦٠سم تقريبا، ويحيط بالطاولة كورنيش خشبى مزخرف بزخارف ذات طابع إسلامى بارتفاع حوالى ٤٠ سم تقريباً من جانبيها، ومن الأمام بحيث يترك الجانب الخلفى للمحفة دون كورنيش، ليمكن إدخال جثة الميت منه دون مشقة. ويلاحظ أن النعش الخاص بالرجال هو نفس النعش الخاص بالنساء، أما الصبية فلا يختلف إلا فى حجمه الصغير، والأطفال الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم الأيام والأشهر، اعتاد الناس عدم استخدام نعش لنقلهم إلى القبر، ويتولى أحد أقاربهم حملهم على ذراعيه، وقد يغطى الرضيع الميت بعباءته.

والنعش ملكية عامة تحفظ غالبا فى المساجد، ويشارك الناس أو بعضهم أو أحدهم فى تكلفة صنعه.

ومكملات النعش أو لوازمه تنحصر فى الأشياء المكملة التى تلزم لأداء النعش لوظيفته، وتتمثل فى «الفرشة» وهى عبارة عن حصير مجدول أو سجادة بمقاس الطاولة الخشبية التى توضع عليها الجثة، وكذلك «الغطاء» الذى يغطى النعش، وهو غطاء خاص بذلك، وقد تكون له مواصفات خاصة من حيث القماش كأن يكون من القطيفة ذات اللون الأخضر، وقد يزخرف هذا الغطاء أحياناً ببعض الرسوم التى تمثل الكعبة، والمسجد النبوى، بالإضافة إلى كتابة لفظ الجلالة، واسم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأسماء الخلفاء الأربعة، وبعض الكلمات مثل «توبة»، «هو الباقى»، وهذه الرسوم وتلك الكتابات كتبت بخيوط بيضاء وصفراء وحمراء. كما توجد أهداب خيطية تحيط بحروف الغطاء.

كما تعتبر «المخدة» أيضا واحدة من مكملات النعش، وتمول كذلك من قبل الجماعة كغيرها من المكملات، أو يتبرع أحد الأثرياء بكل هذه المكملات، وتبقى بالنعش فى حالة الطبقة العليا.

٢ ـ الدفنة أو الجنازة:

ويقصد بها الخطوات التى اعتاد الناس اتباعها لدفن الجثمان، بداية من خروج الميت من داره وحتى استقراره فى مثواه الأخير، وتستخدم الدفنة فى القرى عادة كمقابل لكلمة «الجنازة» التى تستخدم فى المدن عادة.

وتبدأ خطوات «الدفن» أو الجنازة بخروج الميت من داره، ويطلق الناس عليها «الخارجة» ويتولى بعض الرجال نقل جسد المتوفى ـ سواء أكان رجلاً أو أمرأة ـ إلى النعش الذى يكون فى انتظار الجثة أمام الدار. ولأن أهل الميت يرون فى هذا الخروج الانفصال الأخير بينهم وبين مايجسده فقيدهم. لذا يكون عويل وصراخ النساء على أشد مايكون حال خروج الجثة، وتتدافع النساء من درجات القرابة الأولى إلى جثمانه لتقبيله، كما يفعل ذلك المقربون إلى الميت من الأصدقاء الحميمين والجيران الأكثر اتصالاً بالميت من الرجال. ثم يبدأ السير فى اتجاه المسجد الذى سوف تتم الصلاة على المتوفى فيه.

ويطلق على عملية السير بالمتوفى من داره إلى قبره «المشهد» ويتفاخر أهل المتوفى بكثرة عدد من ساروا فى «مشهد» فقيدهم ويعدون ذلك دليلاً على مكانته ومكانتهم الاجتماعية بين الناس، أو أنه دليل على ورع وتقوى المتوفى وحرص عدد كبير من الناس على تشييعه إلى مثواه الأخير.

وتشير الملاحظة الميدانية إلى أن النعش يسير فى الطريق إلى القبر بسرعات مختلفة، فأحياناً يبطئ وأحياناً يسرع، كما أنه يتوقف عن السير فى كثير من الأحيان، بالإضافة إلى تراجعه إلى

الخلف. وتختلف التفسيرات حول هذه الظاهرة، حيث يرجح بعض الأفراد عدم انتظام السير إلى أنها كرامات يظهرها الميت، ويرى آخرون أن الميت بتراجعه للخلف وإبطائه فى السير يشير بذلك إلى تمسكه بالدنيا، وعدم رغبته فى فراقها، كما أن سرعة وهرولة حاملى آلنعش به دليل على كرامة الأولياء والأتقياء من الموتى.

ومن المتغيرات التى يجب الإشارة إليها ظهور تفسيرات جديدة لعب التعليم فيها دورا واضحا حيث يفسر أصحاب الاتجاهات الدينية ذلك التذبذب فى خط السير على أن الموعد الذى حدده الخالق لدخول الميت إلى القبر لم يحن بعد هذا التحديد الذى يجعل جثمان الميت يبطئ حينا ويسرع حينا أو يتراجع حينا آخر، حتى يدخل إلى القبر فى موعده تماما.

وتنتهى الجنازة «المشهد» بالوصول إلى المقابر حيث تبدأ مراسم الدفن. ويعد الدفن نهاية الطقوس التى يسعى أهل الميت من خلالها إلى إدماج جسد الميت فى حياته الأخرى، كما يعد نزول الجثة إلى القبر بمثابة الانفصال الأخير بينها وبين عالم الأحياء، لذا عند إخراج الجثمان من النعش لكى يتلقاه اللحاد ومن معه لإدخاله إلى القبر، يلاحظ تشبث أقارب الميت المقربين بالجثة لمحاولة تقبيلها القبلة الأخيرة، والتى ليس بعدها أى اتصال حسى بين الميت وأهله وأصدقائه، حيث إنها النظرة الأخيرة التى يرون فيها جسد ميتهم.

وبعد الانتهاء من وضع الميت فى قبره، وغلق القبر بواسطة بعض الأفراد واللحاد، يبدأ الملقن - الذى ينبه إلى إتمام الغلق - فى تلقين الميت، ويجلس الملقن فى خلف القبر حتى يكون بجوار رأس المتوفى حتى يسمع مايلقن به، إذ يعتقد الناس أن المتوفى فى هذا التوقيت يسمع ويرى كل مايدور حول قبره، كما يعتقدون بأن الملكين اللذين سيحاسبانه فى قبره، يسمعان أيضا مايلقن به، ويبدأ الملقن فى قراءة آية من آيات القرآن تبدأ بـ «وبشر الصابرين» وتنتهى عند «وماالحياةالدنيا إلا متاع الغرور» ثم يبدأ فى قول ماينبه به الميت أنه فارق الحياة مثل «ياعبدالله يرحمك الله، ذهبت عنك الدنيا وزينتها وصرت الآن فى برزخ من برازخ الآخرة، ثم يلقنه مايجب أن يجيب به على الملكين إذا سألاه عن ربه، ودينه، ونبيه، وإخوانه، وإمامه وبعد الإجابات المحددة التى يمليها الملقن على الميت يبدأ فى الدعاء له والذى ينتهى بالقول التالى:

غفر الله لك ولمن قام على قبرك، وقال لا إله إلا الله،

فيردد المشيعون: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الملقن: وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، الفاتحة.

المشيعون: يقرأون الفاتحة.

وعند الانتهاء من التلقين يأخذالناس فى الانصراف من عند القبر ليكون فى انتظارهم عند مدخل المقابر أقارب المتوفى المقربون لتلقى عزاء القبر.

رابعاً: العزاء

ينبع حرص الناس على أداء واجب العزاء من بواعث مختلفة من أهمها، الباعث الدينى الذى تحث عليه السنة النبوية، كما ينبع كذلك من خلال الحرص على المشاركة الجماعية لأفراد العائلة وغيرها من العائلات والأصدقاء وغيرهم لبعضهم فى كافة المناسبات الاجتماعية، ولأن الموت أكثر الخطوب دفعا للمشاركة بوصفه الحدث الذى لاعوض فيه لأهل الميت عن فقدهم لواحد منهم، من هنا جاء الالتزام من قبل الجماعة بأهمية بل بحتمية المشاركة، بالإضافة إلى ذلك يعد الناس هذه المشاركة نوعا من الواجب الذى تدعو إليه عادات وقيم الجماعة، كما تنبع تلك المشاركة من واقع تبادل أداء تلك الواجبات فى مناسبة الوفاة، والتى تتصف بحتمية الوقوع لدى أفراد المجتمع جميعا.

ويبدأ استقبال أهل الميت للمعزين عادة بعد الانتهاء من الدفن، ويتم ذلك على القبر كما سبق أن أشرنا فيما يطلق عليه عزاء القبر، ويلاحظ أن هناك اتجاها بدأ بعض الأفراد فى الترويج له وخاصة الجماعات الدينية، والتى يرون الاكتفاء بعزاء القبر، وإعلان ذلك صراحة بعد الانتهاء من الدفن.

غير أن هذا الاتجاه لم يلق بعدُ استجابةً كاملة من الناس الذين يرون فى هذا الاتجاه نوعا من التقتير والبخل فى إقامة المراسم والطقوس الخاصة بالميت والتى يلزم بإتمامها إقامة المأتم.

ويلزم لإقامة المأتم لاستقبال المعزين فى القرى الإعداد لهذا الاستقبال حيث يتم تجهيز «الدوار» من حيث تنظيف وفرش مصاطبه وشراء البن و السجائر وتحديد المهام والأدوار حتى تتم مراسم المأتم بصورة مشرفة لاتدفع إلى نقد من قبل المعزين، وقد تتم إقامة «صيوان» خاص لاستقبال المعزين، وخاصة إذا كان المتوفى من عائلة كبيرة. أما فى المدن فالغالب أن يقام صيوان لصعوبة استقبال المعزين فى أماكن السكنى. ويشترط فى المتقبلين للعزاء أن يكونوا من الدرجات القرابية الأولى للمتوفى، كالأبناء، أو الأزواج أو الأعمام والأخوال، كذلك يمكن لأبناء العم وأزواج البنات المشاركة فى تلقى العزاء. ويخصص لجلوسهم مكان محدد فى صدارة المكان المعد لاستقبال المعزين حيث يسهل اتجاه المعزين إليهم مباشرة، خاصة الغرباء الذين لايعرفون أهل الفقيد معرفة حميمة.

ولدخول المعزين إلى مكان العزاء وكيفية استقبالهم نظام متفق عليه، حيث يبدأ المعزون فى القرى فى الوفود إلى مكان العزاء بعد صلاة العصر فى الفترة النهارية من العزاء، وذلك فى حالة تمكن أهل الميت من دفنه قبل هذا الموعد، وتستمر هذه الفترة مابين الساعة والساعة والنصف، وهى الفترة التى تسمح بالتلاوة لاثنين من قارئى القرآن، وبعد نهاية هذه الفترة، تبدأ فترة الراحة التى تستمر حتى آذان العشاء، ولايستقبل فيها المعزون.

وتبدأ جماعة المعزين فى ترتيب دخولهم إلى مكان العزاء، فيتراصون فى طابور يبدأ بكبيرهم ثم الذى يصغره، وهكذا، إلى أن يكون فى نهاية الطابور أصغرهم سنا، وغالبا مايجدون عند مدخل مكان العزاء من يستقبلهم من أقارب المتوفى غير المقربين، ويقوم واحد منهم بإرشاد المعزين إلى مكان تلقى العزاء. أما فى المدن فتكون فترة تلقى العزاء الرئيسية مساء بعد فراغ الناس من عملهم، وتبدأ عادة بعد صلاة المغرب.

بالنسبة لنظام دخول واستقبال المعزيات فى طابور، فهن يقمن بتقديم العزاء لقريبات المتوفى عند الدخول، ويقمن بتقديمه عند الخروج.

ويجب على أقارب المتوفَّى وجيرانه

وأصدقائه الحميمين البقاء فترتى العزاء النهارية والمسائية، وينطبق ذلك على النساء.

ويسود اعتقاد فى المجتمعات القروية بمنع السيدات من زيارة أو دخول أى بيت من البيوت بعد إتمامها لواجب العزاء، ويجب عليها التوجه مباشرة إلى دارها حتى لاتصبح زيارتها فألا سيئا لأهل الدار المقصود بالزيارة.

ويعد اللجوء إلى أحد قارئى القرآن هو أحد المؤشرات إلى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها المتوفى، حيث يتم لجوء أفراد الطبقة الاجتماعية العليا إلى أحد قارئى القرآن المشهورين والذين يتقاضون أجرا مرتفعا، ويعد ذلك نوعا من التباهى والتفاخر بالمركز الاجتماعى للميت وأهله. وقد يشارك - فى مآتم القرى - هذا القارئى الشهير أحد فقهاء القرية أو القرى المجاورة.

كما أصبح هناك اتجاه فى الاحتفال النسائى بتلقى العزاء فى اللجوء إلى إحدى قارئات القرآن كبديل لإنشاد العديد من الأناشيد الدينية. إلا فى حالات قليلة من موت الشباب عند أفراد الطبقة الدنيا وبعض أفراد الطبقة الوسطى من غير المتعلمين.

ويتبع مجتمع القرية نظاما خاصا باستضافة المعزين بالمأتم، حيث تقدم إليهم السجائر والقهوة، والمياه، وكذلك المأكولات للقادمين من المدن البعيدة، فى أوقات الراحة بعد انتهاء فترة العزاء النهارية أو المسائية. واستضافة المعزين على نحو لائق واحد من الواجبات الأساسية التى يحرص عليها أهل المتوفى باعتبارها واحدا من الأركان المهمة لنجاح المراسم وظهورها بالمظهر اللائق بالميت وأهله.

وبالإضافة إلى عزاء اليوم الأول للوفاة «المأتم» فى القرى، فهناك أيضا عزاء الخميس الذى يحتل مرتبة أقل من عزاء المأتم من خلال التجهيز له، وكذلك عدم حرص المعزين على أدائه، إذ يهتم بالقيام به والحضور إليه، أهل الميت والأصدقاء، والجيران، وبعض أهل القرية الحريصون على القيام بكافة الواجبات المتعلقة بالعزاء، يضاف إليهم أولئك الأغراب ذوو الصلة بأهل الميت، والذين لم يتمكنوا من أداء العزاء فى يوم المأتم.

ويكون موعد هذا العزاء الخميس الثانى لوقوع الوفاة.

أما العزاء الذى يتم بعد مرور أربعين يوما على الوفاة فهناك تفسيرات مختلفة لاختيار هذا الموعد لتجديد الحزن واستقبال العزاء فى المتوفى، ومن أهمها: ذلك الاتجاه الذى يرمى إلى كونها عادة مصرية قديمة تعود إلى إتمام تحنيط الجثة فى اليوم الأربعين للوفاة، ودفن المتوفى بعد أربعين يوما من وفاته، وغيرها من التفسيرات التى لا يسمح هذا الحيز بتناولها جميعاً.

وإن عزاء الأربعين عزاء ليلى يعد لُه على نفس الصورة التى تم بها عزاء الوفاة، ويُستَدْعَى أحد المقرئين أو اثنان منهم ليسا على درجة من الشهرة بالقياس بقارئى يوم الوفاة. وفى بعض الأحيان يتم فى القرى تأجيل أو تقديم موعد الأربعين ليتوافق مع أحد أيام الخميس الذى يسمح بتمكين أهل المتوفى قاطنى المدن من الحضور، حيث تتيح لهم إجازة يوم الجمعة فى استكمال حضور مراسم العزاء الليلى حتى نهايته فى حوالى العاشرة مساء.

كما يتلقى أهل الميت العزاء فى العيد الأول الذى يعقب الوفاة، ويكون ذلك العزاء نهاريا أى مابين الساعة السابعة والعاشرة صباحا، ويتفق فى ذلك مع عزاء الخميس. إلا أن هذا العزاء يختلف عن بقية احتفالات العزاء الأخرى، وذلك فى كونه يقام بنفس موعد ومكان تلقى التهنئة بالعيد.

كذلك يقيم أهل الميت احتفالا خاصا بمرور عام على وفاة متوفاهم، يستقبلون فيه العزاء،

وهو عزاء ليلى أى بعد صلاة العشاء، ورغم أنه يتفق مع عزاء الأربعين فى موعد إقامته، إلا أنه يختلف عنه فى درجة أهميته، حيث يمكن إقامته بدار المتوفى، ويقسم البيت بين الرجال والنساء، ويتولى الرجال تلقى واجب العزاء فى الغرفة الرئيسية من المنزل، أما النساء فتخصص لهن إحدى الغرف الداخلية.

ويطلق على هذا الاحتفال «المعاد» بمعنى مرور عام على موعد الفراق مع فقيدهم، ويتفق هذا الاحتفال مع عزاء الأربعين فى إمكانية تقديم أو تأخير موعد إقامته وعند هذا الحد تنتهى المراسم الأساسية المتعلقة بالموت، لكن هناك مراسم أخرى تتعلق بزيارة النساء للمقابر والمواعيد المناسبة للزيارة، حيث زيارات الخميس الدورية وزيارة الأربعين والمعاد، والزيارات الاستثنائية. فضلاً عما يقدمه الأهل من أطعمة وهبات طلبا للرحمة بالمتوفى مما يمكن أن يلاقيه من عذاب فى حياته الثانية، وهو مايطلق عليه الرحمة التى تقدم على القبر، والذبيحة التى يُقْدمُ على ذبحها الموسرون، وقراءة الراتب، والخاتمة.. إلخ.

وهناك أيضا مراسم الحداد على الميت والفترة الزمنية اللازمة لذلك تبعا لنوع وسن الميت والعلاقة القرابية التى تربط بينه وبين من يَحد عليه، وتلك الأشكال التى يكون عليها الحَداد كالقيود المتعلقة بالطعام، والقيود المتعلقة بالملبس، والقيود الخاصة بالمظهر العام والعلاقات الجنسية، والاحتفالات، والقيود التى تخص دار المتوفى، وغيرها من القيود.

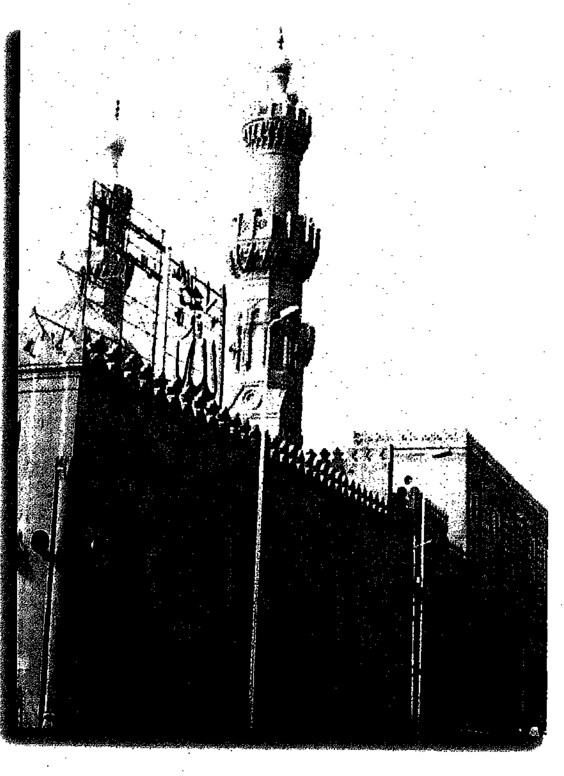
فضلاً عن الجانب الخاص بالعادات والتقاليد والمعتقدات المرتبطة بشكل بناء القبر واختيار مكانه، وزخرفته وطلائه.

الأديان والمعتقدات الثانوية

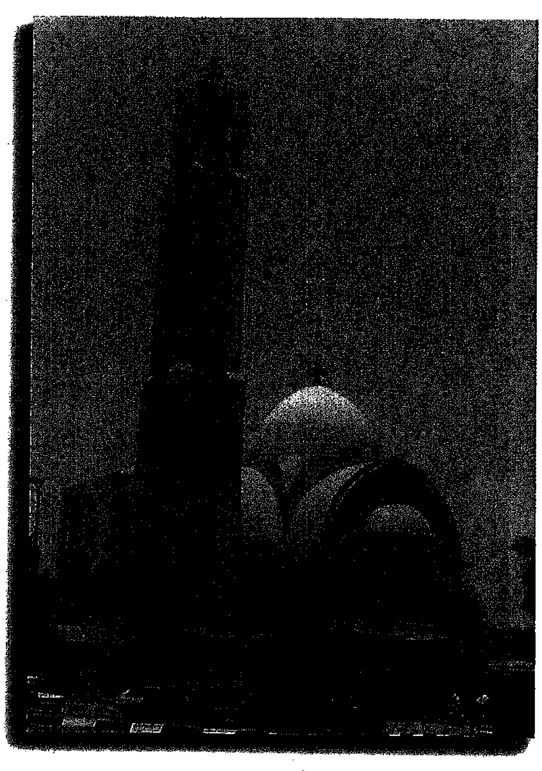
يُلاحظُ كل من تعرض للحديث عن المصريينَ الأثر العميق للدين فى حياتهم، فهم معروفون منذ القدم بتدينهم، وحرصهم على إبراز ذلك بشتى الأساليب والوسائل، وينعكس هذا على كثير من مظاهر حياتهم وأنماط سلوكهم، حتى أنهم سواء أكانوا متدينين حقا أو شكلا، يفزعون فزعا شديدا، ويتحمسون حماسا هائلاً للدين إذا مُسَّ ولو مسا خفيفا.

ويدين غالبية المصريين بالإسلام، و تشكل الديانة المسيحية الديانة الثانية فى مصر، ويُسمَّى من يدينون بها «الأقباط» وقد ذكر كلوت بك فى حديثه عن الأقباط اليعاقبة أنهم شيعة كبيرة، وأن عددهم خلال الفترة التى يتحدث عنها حوالى ١٥٠ ألف نسمة، وأن لهم ١٣٠ كنيسة وديرا فى أرجاء مصر، ورئيسهم الدينى هو البَطْرَق الذى يتولى كرسى البطريركية. وذكر فيكتور شولشيه الذى زار مصر عام ١٨٤٥م أن الأقباط المصريين يؤمنون بطبيعتين للمسيح، ولايعترفون ببابا روما.

وقد وصف «دى بوسيير» وصفا للأكليروس القبطى الذى يقوم بالخدمة الدينية فى الكنائس، فهناك الرهبان والشمامسة



الأزهر الشريف



الكاتدرائية

الإنجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة، ولايجوز ترشيح أحدهم للانتظام فى سلك الإكليروس إلا إذا كان متزوجا. أما الرهبان فيعيشون فى عزوبية وسط الصحراء، ويتم قبول الراهب فى الدين بطريقة غريبة حيث يقام حفل كبير «يتم فيه زفافه إلى الموتى، ويعتبر ميتا فى الدنيا، ويذهب أهله وأصدقاؤه لوداعه ورؤيته، وذلك لأن الصلة سوف تنقطع بينهم وبينه بعد أن يصبح راهبا»(١١٣).

أما إدوارد وليم لين فقد أعطانا صورة لدرجات الكهنوتية، فذكر أن البطريرك هو رأس الكنيسة ويحتل كرسى القديس مرقص ويقيم فى القاهرة، ويتم اختياره من بين طبقة الرهبان وهو يلتزم بتقاليد صارمة فهو لاينام إلا لإيقاظه كل ربع ساعة، ويتم اختياره عادة من بين رهبان دير سانت أنطوان فى الصحراء الشرقية، ويتم كتابة أسماء ثمانية من الرهبان على ورق منفصل ثم تُطوَى الأوراق ويَسحَبُ أحد الرهبان ورقة يكون فيها اسم البطريرك المنتظر، ويعين البطريرك مطران الحبشة الذى يتم تعيينه فيها، أما الأساقفة فعددهم اثنا عشر أسقفا ويتم الاختيار من بين الرهبان، ويتم اختيار القمص من رتبة الكهنة، أما الكاهن فلابد أن يكون شماسا لاعاهة جسدية فيه، وألا يَقِل سنه عن الثالثة والثلاثين، ويقوم البطريرك بتعيين القساوسة والشماسين(١١٤).

وقد سجل شارل ادمون فى القرن التاسع عَشَر: بأن فيهم الشكل المصرى القديم خاصة أقباط الفيوم، الأنف الصغير المستقيم، الشعر الأسود المموج، والبنية الصغيرة، وأكد أمبير انحدار الأقباط من سلالة الفراعنة أو المصريين القدماء، بينما نفى شولشيه ذلك وأكد أن الأقباط اختلطوا باليونانيين والأحباش وغيرهم من الوافدين والغرباء على مصر وهم «يدَّعُون بأنهم ينحدرون من سلالة المصريين الأوائل من طيبة ومنف، ولكن هذه المقولة غير صحيحة فلا يوجد بينهم تشابه مع قدماء المصريين وذلك



الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب والبابا شنودة الثالث ولقاء فكرى

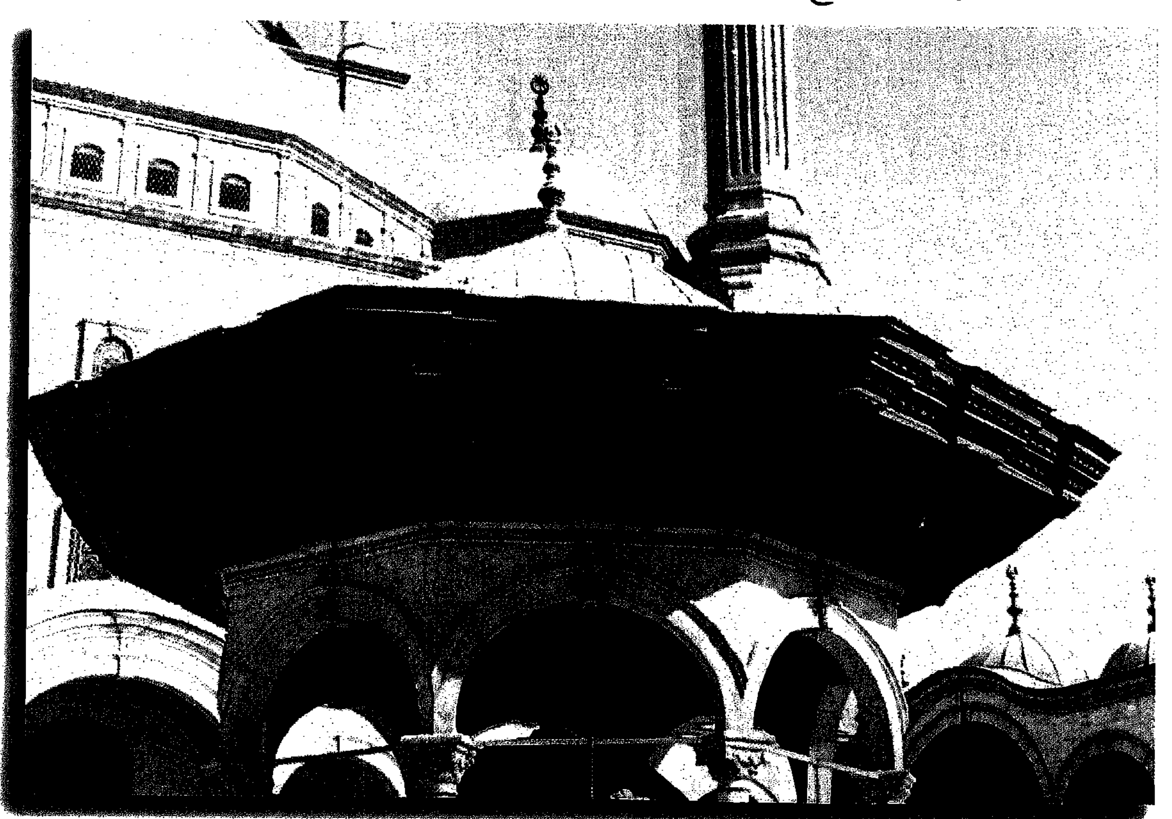
لأنهم اختلطوا بعد دخول المسيحية مصر باليونانيين والسوريين والرومان.

وانتقد «ريفو» الأقباط لأن معظمهم لايعرف القراءة ولا الكتابة فهم لايملكون النور ولا المعرفة، والسبب فى ذلك مذهبهم الأرثوذكسى الذى يعتنقونه، ولكنهم رغم ذلك بارعون فى الأعمال الحسابية، ولذلك نجدهم يسيرون فى الشوارع والمحبرة تتدلى من تحت أحزمتهم بدلا من الخنجر الذى يعلق فى الخصور، ويعمل معظمهم فى الإدارات المختلفة ومساحة وقياس الأراضى.

هذا وقد احتكر الأقباط بعض المهن والحرف مثل صناعة الحرير، كذلك هم «ملوك صناعة الزيوت والشموع والسمك المملح وتقطير الورود خاصة فى الفيوم والمنزلة» كما برعوا فى صياغة الذهب ولهم العديد من المحلات فى الموسكى.

وتتشابه ملابس الأقباط مع ملابس المسلمين ولكنهم يفضلون الألوان القاتمة السوداء والزرقاء، ومن الصعب التمييز بين نساء المسلمين ونساء الأقباط، فهن يشتركن فى عادات وتقاليد واحدة، والقبطية تغطى وجهها مثل المسلمة، ولكن من وجهة نظر مونتوليه ملامح الأقباط أقلُّ رقةً من العرب وعلل ذلك بسبب أصولهم الزنجية فشعرهم أسودم مُجعد ولون بشرتهم يميل إلى اللون الشاحب المائل إلى الصفرة.

هذه بعض الملاحظات التى أوردها من زاروا مصر، وعاشوا فيها خلال القرن التاسع عشر. ويلاحظ أن رحالة القرن الثامن عشر والذين كان من بينهم رجال دين من الكاثوليك أرادوا نشر مذهبهم ولكنهم اصطدموا بالأقباط الذين تمسكوا بمذهبهم الأرثوذكسى، ولذلك نجدهم يشنون عليهم حملة كبرى من خلال مادونوه فقلما يخلو كتاب أو مؤلف من كتب هؤلاء الرحالين من انتقاد للأقباط. وكان الأب «سيكار» من أشد المهاجمين لهم خلال تلك



مسجد محمد على

الفترة، حتى إنه كتب «لابد لنا أن نتعرف على عاداتهم وتقاليدهم حتى يتسنى لنا هزيمتهم وتصحيح أخطائهم»، أما سونبنى دى مانتكور فقد سجل: «أن اسم فرنسا الذى يُحترَمُ فى أوروبا كلها وفى الشرق، وفى الدولة العثمانية محتقر لدى هؤلاء الأقباط الأرثوذكس الذين يقطنون الصعيد، ويمقتون أعمال بعثاتنا الكاثوليكية.

وقد اتهم بعض رحالة القرن التاسع عشر الأقباط بالتعصب الشديد لمذهبهم خاصة إدوارد لين وكادلفين كما تعرض رجال الدين الأقباط للانتقاد الشديد لسيطرتهم على رعاياهم، ومن الأمور التى لفتت أنظار الرحالة قيام الرهبان بعملية جلب العبيد خاصة فى أسيوط فى «زاوية الدير» فشن الرحالة عليهم حملة من الانتقادات وكان شولشيه هو الوحيد من بين الرحالة الذى دافع عن هؤلاء الرهبان فكتب يقول: «ينبغى علينا ألا نلوم الأقباط على ذلك، فالبعثات الكاثوليكية فى الغرب امتلكت الزنوج والعبيد عبر البحار، وتاجرت فيهم».

وأخيرا يمكن القول إن الأقباط تمتعوا بقدر كبير من التسامح الدينى فى القرن التاسع عشر

وقد أكد هذه الحقيقة إدوارد لين وشولشيه وحصلوا على المناصب الكبيرة ووصل بعضهم إلى مصاف البكوات والباشوات أيضاً(١١٥).

هكذا وصف الأجانب الذين وفدوا إلى مصر الأقباط المصريين خلال القرن التاسع عشر، وركزوا أكثر ماركزوا على الاختلاف بين الكنيسة القبطية والكاثوليكية التى دان بها معظمهم، وأكدوا على أنهم لايختلفون عن غيرهم من المصريين على الرغم من زعم البعض أنهم هم السلالة الباقية النقية للمصريين القدماء.

يعيش المصريون المسلمون والأقباط متجاورين فى الإقامة والسكن سواء فى الريف أو فى المدن ويمارسون العادات نفسها، ويخضعون لنفس التقاليد، ويحتفلون

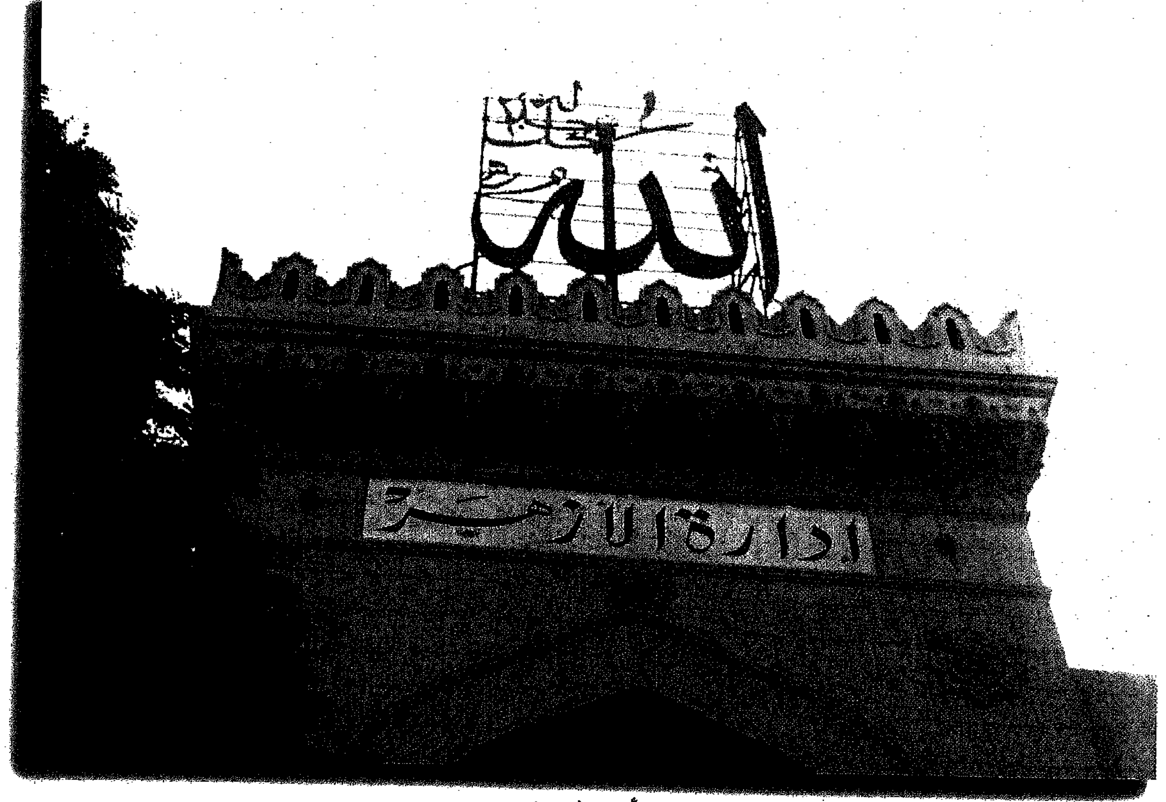


معا بأعيادهم ويشغلون الوظائف ويمارسون كافة الأعمال، لافرق بين مصرى مسلم أو مصرى قبطى. وربما شهدت بعض فترات التاريخ المصرى الحديث والمعاصر محاولات للتفرقة بين المصريين على أساس الدين، لكن هذه المحاولات جميعا باءت بالفشل، وتجلى

ذلك واضحا إبان ثورة ١٩١٩ التى شارك فيها المصريون جميعا، وكان القساوسة يخطبون فى المساجد، ويخطب علماء المسلمين فى الكنائس، شحذا لهمم الناس، وتعبيراً عن وحدة الوطن فى مواجهة المستعمر. أما اليهود، فقد كان عددهم قليلاً فى مصر، وبالغ من زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر فى تشويه صورتهم، ووصفهم بأوصاف تقلل من شأنهم مما جعلهم فى رأيهم مكروهين من بقية المصريين، كما ذكروا أنهم كانوا ينقسمون إلى فئتين: اليهود العبرانيون، واليهود القراءون، وأن معظمهم يعملون فى تغيير العملة، وفى تجارة الأحجار الكريمة المستوردة، وغيرها من الأعمال التجارية.

وقد ظل اليهود المصريون جزءا من نسيج المجتمع المصرى يعيشون آمنين، ويمارسون أعمالهم دون تفرقة بينهم وبين غيرهم من المصريين، وامتلكوا شركات كبرى، وساهموا فى الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية، وكانت لهم أنديتهم ومجلاتهم، ومنهم من تقلد الوزارة فى مصر، لكن الأمر اختلف عندما أنشئت اسرائيل وتم تحريض المصريين اليهود على الهجرة إلى إسرائيل، وبث الرعب فى قلوبهم وتخويفهم من البقاء بمصر، ومن ثم هاجر كثير من المصريين اليهود إلى أمريكا وأوروبا وإسرائيل، وبقى عدد قليل لا يذكر فى مصر.

وإلى جانب المسلمين والأقباط واليهود، عاش الكاثوليك والأرمن وغيرهم من اصحاب المذاهب، لهم كنائسهم، وأديرتهم، وأماكن عبادتهم، يمارسون حياتهم فى حرية وأمن ولا يستطيع دارس للمجتمع المصرى أن يلمس اختلافا فى العادات والتقاليد بين المصريين، بناء على الاختلاف فى الدين، ويمكن لنا أن ندلل على ذلك من خلال الفولكلور المصرى، خاصة الأغانى الدينية التى يغنيها المصريون للحاج المسلم عند سفره لأداء فريضة الحج فى مكة. وللحاج القبطى



الأزهر الشريف

عند سفره للحج إلى بيت المقدس، ولن نستطيع للأسف ان نورد هناتسجيلا للالحان الموسيقية لهذه الأغانى التى تتشابه تماما، لكننا سنورد بعضا من نصوصها الشعرية التى تتشابه أيضا فيماعدا الأسماء والأماكن فيقول النص الذى تغنيه النساء المسلمات:

وحجك يزينك.. وان نويت يا حاج..
وحجك يزينك..
وحجك يزينك.. دا تراب النبى.. مزين جبينك..

ويقول النص الذى تغنيه القبطيات:

وقدسك يزينك.. وان نويت يا مقدس..
وقدسك يزينك..
وقدسك يزينك.. دا غبار المسيح.. مزين جبينك..

ويقول نص آخر للمسلمات:

جنينه ونشوها.. فى طريق النبى.. جنينه ونشوها..
جنينه ونشوها.. كلمتها الملوك.. لفاطمة وابوها..

أما النص الذى تغنيه القبطيات:

جنينه ونشوها.. فى طريق العدرا.. جنينه ونشوها..
جنينه ونشوها.. كلمتها الملوك.. للعدرا وابوها..

ويقول نص ثالث:

وعالية فى سماها.. قبتك يا نبى.. وعالية فى سماها
وعالية فى سماها.. دول بنوها الملوك.. وربى نشاها

ويتم استبدال «يا نبى» بـ«ياعدرا» فى النص الذى تغنيه القبطيات

وفى نص آخر عن «الحاج» / «المقدس»

محزم وعايق.. فى طريق النبى/ المسيح..
محزم وعايق
محزم وعايق.. والزمزمية فى ايده.. سبيل يا حبايب

كما يشترك الجميع فى التبرك بشجرة العذراء، وهى شجرة معمرة بالمطرية من أحياء القاهرة. فيذهبون لزيارتها، والدعاء عندها بقضاء حاجاتهم لاعتقادهم بأن دعواتهم هناك سيستجاب لها، كما يتبادلون التبرك بالأولياء والقديسين من كلتا الديانتين، وزيارة أضرحتهم والنذر لهم، والدعاء عندهم.

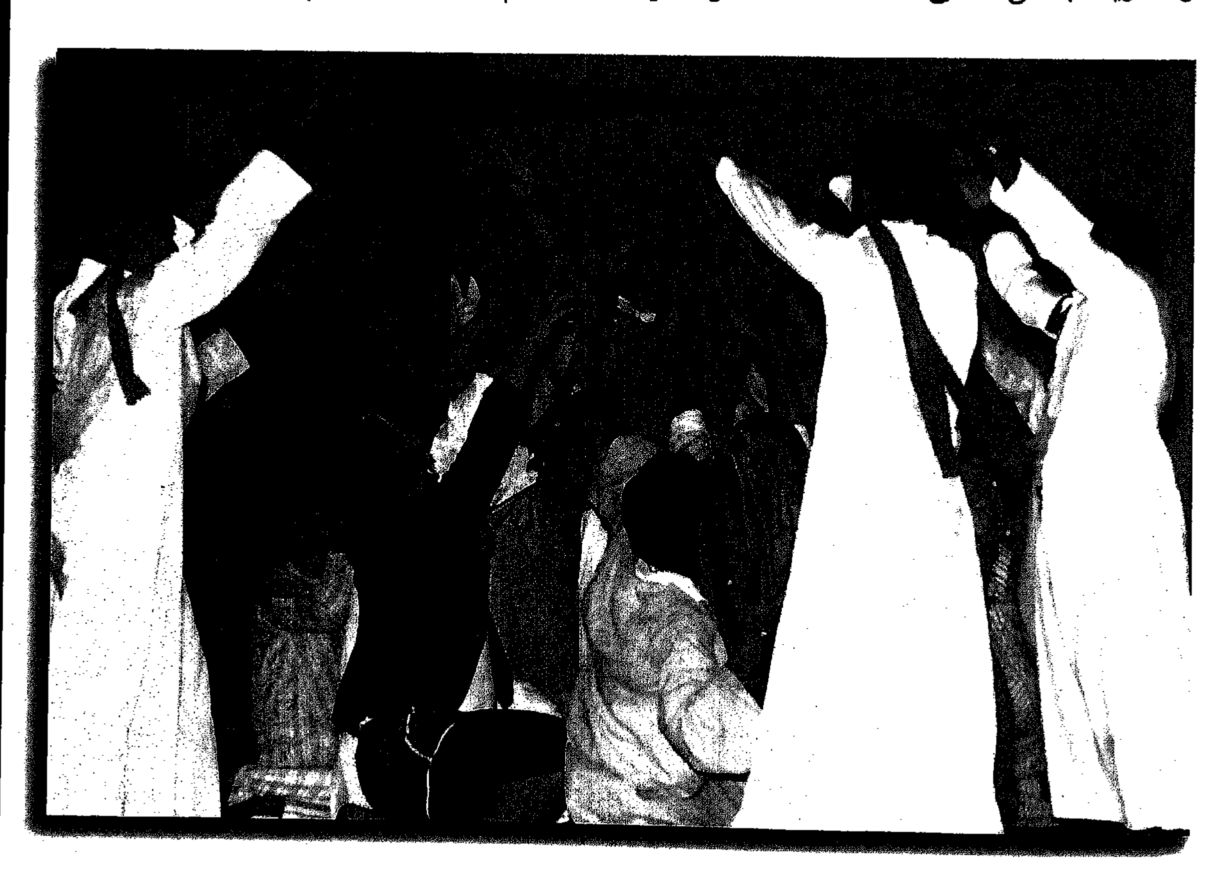
المعتقدات الثانوية:

١ ـ الاعتقاد فى الجن والعفاريت:

ينتشر بين عامة المصريين الاعتقاد فى الجن، والجن فى نظرهم وسطٌ بين الملائكة والبشر وقد خلقوا قبل آدم «عليه السلام» وكان خلقهم من النار، وأطال الله فى حياتهم لتدوم قرونا طويلة، ولهم سلطانٌ كبير على جميع العناصر وخاصية التشكيل بما يروق لهم من الأشكال فإذا شاءوا كانوا بشرا أو حيوانا، وإذا شاءوا كانوا حجارة أو نباتا، وإذا أرادو اختفوا عن الأنظار فلا تدركهم الأبصار، أما مساكنهم ففى جبال «قاف» التى يعتقد الأميون أنها تحيط بالأرض من جهاتها على اعتبار كونها سطحا مستويا لا كرويا.

ويقول المصريون: «فلان جن» و«جماعة جن» بمعنى أنه أو أنهم أذكياء أو أشرار تبعا للسياق، كما يستخدمون كلمة عفريت وعفاريت بنفس المعنى. ويعتقدون أن من الجن رهطا يميلون إلى الخير، ورهطا ينزعون إلى الشر، وهم يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم، وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو إضرام نار الخ فاهوا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الأعمال ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف إلى الحمامات والآبار والمراحيض.

وأغلب المصريين، وخصوصا الأطفال والنساء يزعمون أن الجن تظهر بالليل فى صورة كلب أو قط، والأغلب فى صورة قط أسود، ولذلك يتحاشون ضرب القطط والكلاب بالليل، وإذا صادف وجود قط غريب بالليل فى بيت من البيوت، لم يشكُّوا فى أنه جن، وراقبوا حركاته وسكناته، وفسروا كل حركة بتفسير، وإذا تقدم القط إلى الأكل من أحد الأطباق فلا يُطْرَدُ وإن خطف اللحم، ويعتقدون انهم إذا ضربوه آذاهم.



وهم يزعمون أن الجن تفعل كثيرا مما يفعله الناس، ويزعمون أيضا أن للجن علاقة بالإنس، فقد يعشق الجنى امرأة، وقد تعشق جنية، رجلا، وذهبت العرب إلى أن الجن لا تأكل، ولكن المصريين، يزعمون أنهم يأكلون ويشربون، ولذلك اعتاد بعضهم إذا توهم أن مرضه جاء من غضب الجن عليه أن يذيب فى الماءنوعا من السكر الأحمر، فى إناء بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة، ويأخذ المريض ذلك الاناء أو ينيب عنه من يصعد به إلى سطح البيت وهو ساكت لا يتكلم، لا يلتفت وراءه وهو صاعد، ويَقْلب الإناء بما فيه على الأرض، ولا يذكر اسمَ الله وهو يريقه، ثم يترك الإناء وهو فى مكانه، وينزل كما صعد. يزعمون بذلك أن الجن تشربه، ويكررون هذا الأمر ثلاثة أسابيع على الأقل، فقد يرضى عنه الجن فيشفى.

وقد يُعتَقَدُ أن سبب المرض جنية سوداء لبست الرجل أو المرأة، فلا ترضى عمن لبسته إلا إذا أقيم لها زار حيث يُدَق للجنية السوداء دقات على نغمات خاصة «يفقر» من أجلها من لبسته الجنية، فيأتى بحركات بهلوانية، ويعتقد بعض المصريين أن هناك بيوتا «مسكونة» وتعنى الكلمة أن الجن يسكنونها خاصة إذا كان قد حدث فى البيت حادثة قتل.

وينسب الناس إلى العفاريت - وهم نوع من الجن يغلب عليه الشر - كل عبث أو فساد أو شر، وأنهم يتقمصون الرجال والنساء، ويجعلونهم ينطقون بلسانهم، ويأتون أفعالهم وأنهم يعيشون فى الأماكن المهجورة والمقابر.

ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس فى شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس، وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب قالوا فى تفسير هذه الآثار والظواهر أن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا فى الأرض فسادا وإذا لمع شيء أشبه بالسهم فى السماء قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع، ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين فى قولهم: «سهم الله فى عدو الدين».

ويعتقد كثير من المصريين فى قدرة البعض على تسخير الجن والعفاريت لتحقيق مصلحة أو قضاء حاجة.

ويطلق المصريون على الجن أو العفاريت التى تتقمص الناس اسم «الأسياد» «جمع سيد» ويزعمون أنهم على أشكال متعددة، فهناك أسياد سودانية وأسياد حجازية، وأخرى مغربية.. الخ. وهم يقيمون طَقْسا يُطلَقُ عليه «الزار» لاستدعاء هؤلاء الأسياد تمهيدا للتخلص منهم مستخدمين إيقاعا خاصا لكل «سيد» منهم. ويذهبون إلى أن هؤلاء الاسياد لا يستجيبون إلا للإيقاع الخاص بكل منهم ويسمون هذا الايقاع الذى يُحدثُونه بالنقر على الدفوف «دقة»، وأن هؤلاء الأسياد يعبرون عن أنفسهم من خلال الشخص الذى تقمصوا جسده، ويستخدم المصريون تعبيرات مختلفة للتعبير عن حالة التقمص تلك فيقولون «جتته مش خالصة» أى أن جسده قد تقمص الجن أو العفاريت، ويقولون «أصله راكبه عفريت» أو «عليه عفريت» و«عليه أسياد» ولكل سيد أو عفريت ملابس تناسب جنسه وأغان تناسب لغته، ورقصات تناسب أمته، ودقات على الدف تناسب رقصته.

فإذا كان السيد الذى تقمصها عربيا لبست فى الزار لبسا عربيا، ورقصت رقصة عربية وغنت لها جوقة الزار غناء بلهجة عربية وإذا حضر السيد على لسان السيدة تكلم بلهجة عربية ونظير ذلك إذا كان مغربيا أو سودانيا أو حبشيا.

ومن أجل هذا يكون للسيدة التى تقمصها الأسياد ملابس خاصة للزار وحلى خاصة

بحفلات الزار تناسب السيد الذى تقمصها، وإذا كان العفريت لم يُعرف بعد فإن الكدية والمغنيات تدق لها سبع دقات كل دقة على طريقة خاصة، وعند كل دقة وكل طريقة تلبس السيدة لباسا من جنسها فالنغمة التى تعجبها فترقص لها تكون هى الطريقة التى يعرف بها نوع الأسياد الذين يلبسون جسمها.

فإذا كانت الأسياد من نَجْد كان من ضمن الأغنية: يا سيد نجد، يا لابس سَيفك يا محب ضيفك، يا مدلع فى الميدان، يا لابس العباية فى الميدان، مكحل عيونه، وراخى شعوره.

وإذا كان سودانيا، فمن أغانيه، يابو العباس يا سلطان الرجال، يا حامى الرجال، يا مرحبا بك يا مرحبا، يا لابس الياقة والكوفية على العمامة.

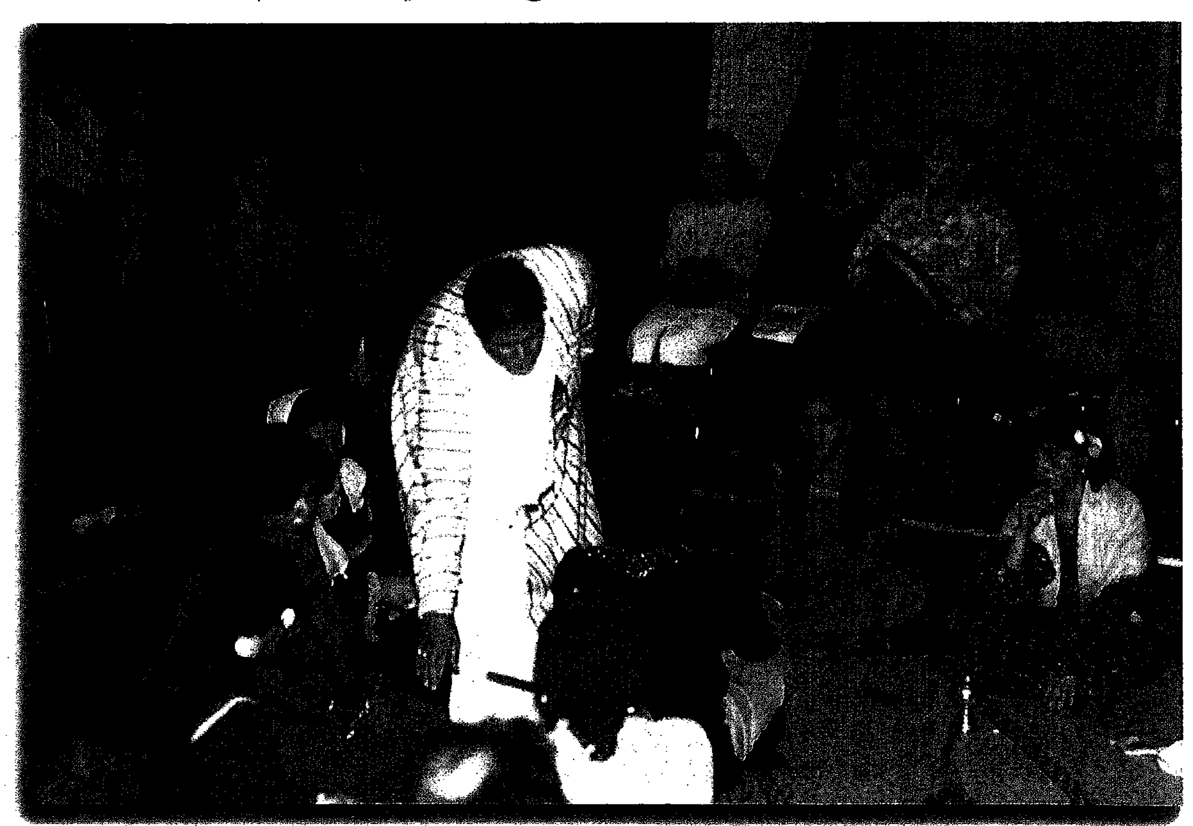
وإذا كانت السيدة سودانية ضربت لها الدلوكة وقالوا:

يا عويشة لله يا مغربية، يا عويشة له عقبال يومط، خلق عويشة على الخد نادى، حزام عويشة على الخصر ليه، خلخال عويشة رنة برنة، يا عويشة لله يا مغربية، يا عويشة لله ارضى عليه، يا عويشة لله من المغرب جيه، يا عويشة لله ارضى عليه، من تونس جيه، من مكة جيه وست عظيمة وهكذا.

ولهم نشيد عند البخور[١١٦] منه قولهم:

اتكلنا على الله والنبى، الفاتحة لعمر وعثمان وعلى والعشرة الكرام المتدركين بكل ولى.. وملوك السما وملوك الارض، والشهدا والصالحين واللى انقفل عليهم الدرب، وملوك البر وملوك البحر واخواننا يجعلهم راضين عنا.. الفاتحة لستى سكينة وسيد محمد الخواص.

الفاتحة لستي سكينة، صاحبة الليلة العظيمة، الفاتحة لسكان المغرب عويشة لله، والسادات البكرية والخضر والياس، سلام لهم وعليهم، وكمان الفاتحة لسلطان الجيش، كبير مع صغير شيء لله، ولهم الفاتحة.



يعتقد البعض ان الزار وسيلة للتحرر من الجن

٢ـ القرين:

ومما له علاقة أيضا بالاعتقاد فى الجن أن عادة المصريات أن يؤمن بأن لكل مولود قرينا من الجن، فإذا كان المولود ذكرا كان له قرين أنثى، وإذا كان أنثى كان له قرين ذكر. ويبدو هذا الاعتقاد عندما تُعطيى إحداهن ابنها أو ابنتها إلى أخرى لتحمله «لتحملها» عنها، فالتى ستحمل الطفل ينبغى أن «تسمى عليه» أي أن تقول «اسم الله عليك «أو عليكى» وعلي أختك «أو وعلى أخوكى» قبل منك «أو منك» فإذا وقع الطفل أو تعثر قيل «وقعت على أحسن منك».

٣ـ الحسد:

ويعتقد المصريون فى الحسد والنظر والعين، والحسد لغة هو تمنى زوال النعمة وهم ينسبون لبعض الأشخاص القدرة علي الحسد، وإيقاع الضرر ـ عن طريق عيونهم الحاسدة ـ علي غيرهم، فهم إذا نظروا إلي إنسان أو إلى شيء سببوا له الضرر والتلف، ويعتقدون أن الحسد يحدث تأثيره علي أتم صورة، إذا نظر الحاسد إلي المحسود وشفع لنظرته بالشهيق.

وهم يخشون العين الحاسدة ويتخذون الوسائل الكثيرة للوقاية منها فإذا رأوا أحدا يغالي فى الإعجاب بشيء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده وأصابه بعينه، ولهذا السبب فإنهم، إذا أردوا الإعراب عن إعجابهم لا يليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شيء يملكه إنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الإعجاب به بجملة «ما شاء الله» التي تشير إلى الطاعة واحترامها، ومن الشائع عندهم القول: «لا يحسد المال إلا أصحابه».

وإذا بدرت من أحد كلمة تعجب «استغرب من شيء»، فلكى يتم إبطال ما يضره من حسد أن يقال له «صلى على النبى» فإذا أجاب اللهم «صلى وسلم وبارك عليه» لم يقع الحسد ومن الشائع عند النساء أنه إذا نظر تلك النظرة أسرعت المرأة وقالت له: «وراك تعبان أو عقربة أو نار» فيلتفت وراءه لينظر إليه، وبذلك يذهب سحر عينه.

ويداوون ذلك بأن يأخذوا قطعة من طرف ثوب الحاسد، ويبخروا بها المحسود، سواء كان إنسانا، أو حيوانا، أو أى شيء آخر.

ويزيد الاعتقاد فى الحسد إذا اشتهي ما عند المحسود، كأن يكون الحاسد فقيرا والمحسود غنيا، أو عند المحسود مواش أو أموالٌ يشتهيها الحاسد، و كما إذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الولد، ويزعمون أن الحجاب يمنع العين، ولهم فى ذلك طرق: منها وضع قليل من الملح الجريش فى كيس يعلق فى عنق الأطفال، وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع، أو رأس هدهد عليه ريش توضع فى قطعة من القماش ويخاط وأحيانا يداوون الحسد بالرُّقَى ومن ذلك رقية مشهورة هى: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن كل عين حاسدة باسم الله أرقيك والله يحميك من كل نفس أو عين». ومن هذه الطرق أن يوضع قليل من الملح فوق جمر من النار ويقف المحسود ويجعل الجمر بين رجليه وتُتلَى الرقية المذكورة ثم تجعل الراقية وجهها فى وجه الذى ترقيه وتتثاءب بشدة، حتى يتثاءب المحسود.

ومن الرقى: بسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله عظيم الشأن شديد البرهان، ماشاء كان، حابس حابس من حجر يابس، وشهاب قابس، اللهم إنى رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، وفى كبده وكليتيه، لحمه ودمه «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ».

وأحيانا تأتى إحدى العجائز فتوقد نارا، وترمي فيها شيئا من «الشب» وتذكر أسماء الذين يظن بهم الحسد، وتأخذ دبوسا أو إبرة



فتضعه فى عين الصورة التى تحول إليها الشب وتقول: فقأ الله عينها.

وقد تأخذ قطعة من الورق وتصنع منها شكلا علي هيئة فتاة، يطلقون عليها «عروسة» ثم تبدأ فى ثقب «العروسة» بإبرة، وكلما أحدثت ثَقْبا قالت: «في عين فلان « أو فلانة» اللى نظروك ولا صلوش علي النبى، بمعني أنه تفقأ عين ـ فلان أو فلانة ـ الذين نظروا إلي المحسود ولم يصلوا علي النبى»، وتظل تعدد أسماء الذين يُعتَقَد أنهم قد حسدوا الشخص الذى تسعى إلى إزالة أثر الحسد عنه، سواء أكانت هذه الأسماء أشخاصا رأوا المحسود فعلا أو لم يروه، إذ إن الراقية تذكر كل من يرد علي خاطرها من أسماء، بادئة، بالضرورة، بمن اشتهر عنهم قدرتهم على الحسد، وبعد أن تنتهي من فقء كل الأعين الحاسدة، تقوم بحرق «العروسة» التي تصبح مليئة بالثقوب، وبذلك يعتقد أن الحسد سيزول، فقد فُقئَت الأعين الحاسدة، وأحرقت وأحرق أصحابها.

وتتعدد الوسائل التى يتبعها المصريون لدرء الحسد، والتقليل من إثره، ومن هذه الوسائل الأحجبة التي يعتقدون فى قدرتها علي حماية الإنسان الذى يحملها من الشر عموما، وأشهر من اشتهر بعملها المغاربة من أهالى تونس، والجزائر، ومراكش، ويليهم فى ذلك السودانيون وبعض الفقهاء، والعادة أن يكتبوها بحبر أحمر أو أخضر، ثم تطبق الورقة، وتوضع فى جلد أحمر، ويعلقها فى رقبة من أراد، ويكون الحجاب عادة تحت الثياب وبعض الناس يتعمد أن يكتب الحجاب مستخدما موادًّ غير طاهرة لاعتقادهم أن ذلك ينفر الجن والعفاريت ويبعدهم. وهناك من ينقطعون لهذا العمل وبعضهم يغالى فيه، وبعضهم يستخدم المصحف الشريف حجابا، لذلك طبع فى حجم صغير جدا ليوضع فى الجيب. وبعض الأغنياء يضعه في علبة صغيرة من الذهب أو الفضة للتبرك، وقد ألف بعض العلماء كتبا فى الأحجبة علي اختلاف

أنواعها: فحجاب لشفاء المريض، وحجاب لقضاء الحاجات لتحبيب الزوج فى الزوجة، وغير ذلك، وأحسن الأحجبة، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشدها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آي القرآن تكتب فى رقعة وتوضع، بعد أن تُغلَّف فى قطعة من الحرير، تحت الإبط اليسرى، ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية:

«واللَّهُ يؤَيِّدُ بنَصْره مَنْ يَشَاءُ إنّ فى ذَلك لَعبْرَةً لأولي الأبْصَار» أوَ أسماء الله الحسَني أوَأسماء النبى صلى الله عليه وسلم.

ويسند المصريون إلي الشبّ فضيلة كبرى فى مقاومة العين فإن النساء يعلقن أهمية عظمي فى ذلك علي خليط من العقاقير والمواد يُجَهَّزُ ويباع فى العشرة الأيام الأولي فقط من شهر المحرم يسمينه بخور عاشوراء، أو الملح المبارك، ووما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات، الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى، والماء المستخرج من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى، وبعض القطع من كسوة الكعبة.

ومن عادة كثير من التجار أن يعلقوا فى مقدمة حوانتيهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الإلهية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أو بعض آيات القرآن مثل «إنَّا فَتحْناَ لَكَ فَتْحًا مُبيِنًا» أو بعض الأدعية مثل «يا مفتح الأبواب افَتح لنا خير باب» إلى غير ذلك من الأقوال والعبارات. كما يشيع بين سائقى سيارات الأجرة وعربات النقل استخدام مثل هذه العبارات وغيرها مثل «ما تبصليش بعين ردية، بص للي اندفع فيه».

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الإلهية، بما ينقش على أبوابها من الألفاظ مثل «يا الله» سبحان الخالق الدايم» وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان إحدي شجيرات الصبار الذى يعزون إليه تأثيرا فى دفع العين وضررها.

كما يعلق المصريون من الطبقات الشعبية فى رقاب أبنائهم، أو علي صدور ملابسهم، «خمس وخميسة» وهي عبارة عن كف فيها خمسة أصابع، وتصنع عادة من نحاس أو فضة «تشيع الان بين الطبقات العليا مصنوعة من الذهب» ويزعمون الآن أنها تستلفت النظر، فتقع عليها عين الحسود، فلا يؤذى الإنسان الذى يحملها، واعتقادا منهم أن عين الحاسد إذا حجبها شيء عن أن تقع مباشرة علي المحسود بطل عملها، ولعل فى اختيار الكف ذى الأصابع الخمسة ما يشير إلي علاقة الاصابع بفقء العين، وكأن العين الحاسدة يواجهها خمسة أصابع لتمنع ضررها. وكان من الشائع أن يخضب الفلاحون وأفراد المجتمعات الشعبية أيديهم بدم الضحية «خروف أو بقرة» التي يذبحونها عند إكمال بناء بيت جديد، ويطبعون الكف ذات الأصابع الخمس المخضبة بالدم علي الباب أو علي الحائط، أو قد يعلقون الخمسة وخميسة علي الباب إذا لم يكن هنا أضحية، وتشيع عادة تعليق الخمسة وخميسة بين جميع الطبقات علي كل من أو ما يخشون حسده، خاصة إذا كان جديدا كسيارة جديدة أو غير ذلك، ويزعمون أن لكل حرف من حروف الهجاء سرا، وأن أسرار القرآن كلها وضعت فى سورة الفاتحة، وان أسرار الفاتحة وضعت فى البسملة، وأن أسرار البسملة وضعت فى حرف الباء، وهكذا.

ولكل حرف خواصٌ، وله أعداد، ومن ذلك الجمل وتقابل أبجد هوز.. الخ، فالألف بواحد والباء باثنين.. الخ، ويذهبون إلي أن بعض الحروف ترابى، وبعضها هوائى أو مائى أو نارى، وأن الأعداد للحروف كالأجساد

للإنسان، وللحروف قوةٌ في باطن العلويات ولها هوة في باطن السفليات. وبعضهم يجعل للحروف طبائع، فبعض الحروف حار، وهي أ. و. ى. ل. م. ع. وبعض الحروف يابسة، وهي س. ق. ب. ج. وبعضها رطبة، وهي هـ. ر. ش. . ص. ط. والباردة هي ب. هـ. ظ. ص. ض.

ثم إذا كان الحرف منصوبا فحار، أو مرفوعا فيابس، أو مجرورا فرطب، أو مجزوما فبارد.

وللحروف أيضا اتصالات معقدة بالبروج إذا ووفقت علي طريقتهم تسبب عنها العداوة والبغضاء، والسعادة أو الشقاء، ولهم في ذلك حساب طويل، وكتب خاصة، ويزعمون أن لكل حرف خداما يحافظون عليه، وأن لكل يوم من أيام الاسبوع جنا تغلب عليه ويعرفها من هو أهل لها، ففى كل ساعة من ساعات الأيام برج مخصوص له السلطان ولكل برج مواليد تتأثر به سعادةً أو شقاء، وهم يعملون الأحجبة علي حساب هذه الطوالع، وهذه صورة حجاب من الأحجبة:

«بسم الله الرحمن الرحيم» «شهد الله أنه لا إله إلا هو» الآية. «له معقبات من بين يديه ومن خلفه». الآية «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» الآية. «اللهم قنا سيئاتنا وسيئات أعمالنا وسيئات ما يمكرون، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١١٥١١ عوج وأعوج يا عوج ما عوج». وهكذا كثير من أنواع الأحجبة لقضاء المصالح المختلفة، وكان من الشائع، مما يرتبط بقوة الحروف والأرقام، ما عرف باسم «بدوح» وهي كلمة كانت تكتب علي الخطابات لتصل إلي المكتوب إليه سليمة، وغلا بعضهم فكان يكتبها على السلع التجارية، وعلي فص خاتم، وأصل هذا الأمر أن كثيرا من الناس يعتقدون في الخواتم والطوالع.

من ذلك خاتم يسمي خاتم أبى سعد، كان يكتب علي رق غزال أو ورق ويعلق تميمة. وشكله هكذا:

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

وبعضهم يكتبه حرفيا هكذا:

ب	ر	و
ط	هـ	أ
ر	ج	ح

وميزة هذا الخاتم أننا لو جمعنا كل سطر طولا أو عرضا وجدنا المجموع خمسة عشر، ويجعلون لهذا الخاتم سرا عظيما في بلوغ المآرب وجلب الخير، ودفع الشر.

وإذا قرأنا الأركان الأربعة، كانت ب د و ح، ويعتقدون أن من حملها إذا كان مسافرا لم يجد في سفره تعبا: «يا بدوح يا بدوح يا بدوح، ألف بين الروح والروح وبحق القلم واللوح، وآدم وحوا ونوح». ثم تعلق علي العنق، أو تحمل علي الرأس.

٥ ـ التفاؤل والتشاؤم:

يُكثر المصريون من التفاؤل والتشاؤم، فيتفاءلون مثلا بالأسماء كسعد وبخيت، ويتفاءولون باللون الأخضر، ويقولون فى دعائهم لمن سكن بيتا جديدا «جعله الله عليك سلقا أخضر»، ويجتهدون فى أن يدخلوا أول ما يدخلون بشيء أخضر، ويتشاءمون من الأسماء القبيحة مثل «صعب» ويتشاءمون من الإناء الفارغ «ملآن» ويتشاءمون أيضا من الكنس بعد الغروب، ومن الأعور إذا أُصْطُبِح به، ومن بيع الإبرة بعد العصر.

وأساس ذلك عندهم أن الملائكة الموكلة بقسمة الأرزاق تنزل بعد العصر فتقسم الأرزاق حسب الحالة التي يرون عليها الإنسان، فإذا كان فى سعة من العيش زادته سعة، وإن كان فى ضيق أعطته علي قدره، وهم يعتقدون أن حرفة الخياطة من أبأس الحرف وأفقرها، فهم يكرهون أن تراهم الملائكة علي هذا البؤس فترزقهم علي قدر بؤسهم، فحرّموا من أجل ذلك الخياطة، وبيع الإبر بعد العصر.

وعند بعضهم اعتقاد بأن الخياطة بالليل تؤذى الأموات؛ فهم يكرهون أن يخيطوا شيئا بالليل.

وفى بعض القرى يتشدد النساء فى ذلك، فلا يُعرْنَ إبرة لأى سبب بعد العصر، فإذا دعت الضرورة إلي ذلك وضعتها المعيَرةُ فوق رغيف من الخبز، واعطته لطالبة الإبرة فتأخذ الرغيف وعليه الأبرة، ولكن لا تمسها بيدها مباشرة.

وعندهم نوع من الإبر يسمى «الأبرة الغشيمة» وهي الأبرة التي لا عين لها وهي في الأصل إبرة، أخطأت الآلات التي تصنعها فمرت عليها من غير أن تثقبها، وكان السبب في الإقبال عليها اعتقاد العجائز أنها تبطل السحر، فهنَّ يأخذنها ويلففنها فى خرقة ويضعنها فى حجاب من جلد فتمنع العين والسحر.

ويعتقدون فى البخت والقسمة أو القدر وينسبون كل أفعال الخير والشر إليهما، فإذا أصيب أحد فى مال أو ولد أو زرع أو تجارة. قالوا قسمة، وإذا رُزق أحد بنات فقط أو بنين فقط أو بنين وبناتَ قالوا قسمة. ويقولون قسمته حلوة وقسمته وحشة وقسمة ونصيب، ويتفاءلون بصوت الحمام واليمام والكروان ويعتقدون أنه يقول «الملك لك يا صاحب الملك» ويتشاءمون من صوت البوم فهو إذا نعق كان هذه نذير خراب وموت.

ويعتقدون أن التفاؤل فى ثلاثة هى الأقدام والأعتاب والنواصى، فالأقدام وهي الدواب والأعتاب وهي مدخل المساكن والنواصى وهى الخيل ويُعْنُون أن هذه الأمور الثلاثة أما مبختة وتكون مصدر سعد، وإما منحوسة وتكون مصدر شقاء، ويعتقدون أن الدابة إذا أكثرت من هز رأسها وهي مربوطة، فتلك علامة علي قرب موت صاحبها، والدابة التي تكون شفتها السفلى أطول من العليا دليل الخير والبركة، ويعتقدون أيضا أن اللون الأحمر القاتم فى الدابة دليل الحرون، واللون الابيض الذى يخاله شعر أسود دليل القوة والنشاط، وإذا كان الشعر الأسود فى بعض الجسم فقط فهو أحسن ما يختار، ويسمونه القروش.

وأما السكن فبالباب الذى يُفتَح إلى الشمال دليل علي السعادة والخير، والباب الذى يفتح إلي الغرب دليل السيادة والرياسة، والباب الذى يُفتَح إلي الشرق دليل الصحة والعافية والذى يفتح إلي الجنوب دليل الفقر والعوز وسوء المصير.

وكثير من الناس يتوهمون الخير أو الشر فى البيوت لمجرد حادثة حدثت لأول مرة، مصادفة إن خيرا وإن شرا.

ويعتقد المصريون كثيرا فى صحة الأحلام، وهناك بعض الفقهاء والعلماء قد شهروا بتفسير الأحلام من عهد ابن سيرين، ولايزال تفسير الأحلام مصدرا لهؤلاء العلماء والفقهاء.

ويعتقدون بأن النائم تطير روحه فى النوم فى لون أخضر، فترى حوادث كثيرة، فإذا رجعت إلي البدن تذكرت ما رأته، وكثيرا ما يفسرون الشيء علي نقيضه، فإذا رأي النائم نفسه فى ضيق دل ذلك علي السعة، وإذا رأي سعة فهو ضيق وشقاء، ويعتقدون أن فى ركوب الحمار فرجا، وفى ركوب الفرس عزا، وإذا أخذ المرء شيئا من ميت دل ذلك على طول

العمر، والزواج موت، ولبس الأبيض فرح، والأسود حزن.

ويزعم بعض الناس أن أحلامهم لا تكذب، خاصة يوم الجمعة فيقولون: يوم الجمعة الفضيلة، ويتشاءمون من ساعة فيه، ويقولون إنها ساعة نحس، ويذهبون إلي العرافين ليخبروهم بالماضى، ويتنبؤا بالمستقبل بضرب الودع، وقراءة الكف، واعتماد علي الزايرجا، واعتقاد فى الحروف وجُمَلها، والاستخارة وأشكالهًا.

٦ـ التنجيم:

وهم يعتقدون فى التنجيم، وأن السعادة والشقاء مرتبطان بالنجوم؛ فهم إذا تحيروا فى أمر ولم يهتدوا إلي وجه الصواب فيه اعتمدوا فى تبينه علي أمور ترجع إلي عادات وممارسات سحرية تتزيا بالدين، فمن ذلك التجاؤهم فى إصابة هذا الغرض إلى ما يسمونه بالزايرجا. والزايرجا هذه عبارة عن شيء يشبه جدول الضرب يحتوي مائة خانة فى كل خانة حرف من الحروف الأبجدية العربية، وطريقة استعمالها أن يقرأ المرء فاتحة الكتاب، ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهي: «وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يعلمها إلا هُوَ وَيعلَمُ ماَ فى البَرِّ والبحرَ ومَا تَسْقُطُ منْ وَرَقة إلا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّة فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطبٍ وَلا يَابسٍ إلا فىً كتَاب مُبين».

ويضَع أصبعه علي الجدول مغمض العينين ثم يفتحهما، وبعد ان يقرأ الحرف الذى سقط إصبعه عليه يكتبه فى ورقة ويكرر هذه العملية بطريقة معينة علي الحروف المرتبة علي عمود رأسى واحد ثم علي الحروف التى يحتويها العمود الخامس إلى يمين العمود الذى أرشد إليه الخط والجزاف أول مرة، فإن اجتماع هذه الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة. والمشتغلون بالزايرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطى اربعة اجوبة سلبية في مقابل جواب واحد موجب.

ومن الناس من يستَخيرون القرآن ويتلمَّسُون منه النبوءة القاطعة فيماَ يحبون استطلاعه من أحوالهم، وذلك بأن يجعلوه فى موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة فيعمدون إلي السطر السابع من الصحيفة اليمني ويقرأونه، فإذا كان معناه يفيد السكون والسلم والخير كان الجواب موجبا بخلاف ما إذا إفاد السخط الإلهى أواللعنة فإن الجواب يكون سالبا.

وكثيرون من المسلمين يستفسرون عن المستقبل بأن يحركوا بين أصابعهم حبات السبحة التي بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الأولى: «سبحان الله» وعند تحريك الحبة الثانية: «الحمد لله» وعند تحريك الثالثة: «لا إله إلا الله». ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة الاخيرة فإذا كانت الاستخارة التي قيلت فى الحبة الأولى تصادف الحبة الأخيرة فإن الإجابة تكون موافقة أي موجبة، وإذا كانت الثالثة كانت الإجابة لازمة أي لا موجبة ولا سالبة وإذا كانت الثالثة كانت الإجابة سالبة.

ويعتقد عامة المصريين فى تأثير النجوم في الأرض، من سعادة وشقاء، وغنى وفقر، ويقسِّمون السماء اثني عشر قسماً، لكل قسم برجٌ، وأسماء الاثنى عشر برجا هى:

الدلو ـ وعلاقته بشهر يناير ـ والحوت بفبراير ـ والحمل بمارس ـ والثور بإبريل ـ والجوزاء بمايو ـ والسرطان بيونيو ـ والاسد يوليو ـ والسنبلة باغسطس ـ والميزان بسبتمبر ـ والعقرب باكتوبر ـ والقوس بنوفمبر ـ والجدى بديسمبر.

وطريقة الاستخدام أن يُغْمض الطالب عينيه ويضَعَ أصبعه علي إحديَ خانات منطقة البروج، وهي صورة مصورة مقسمة إلي خانات ثم يفتح عينيه، ويتبع الخط الذى فيه

النمرة المذكورة، متجها من اليمين إلى اليسار، حتي يصل إلى العمود الذى فيه البرج الذى وضع يده عليه، فيجد عددا يدل علي الصفحة الموجود فيها جواب السؤال المطلوب.

ويعتقدون أن العالم المادي لا توجد فيه الأشياء عن طريق المصادفة، بل بتأثير النجوم، فلا يقابل رجل رجلا بطريق المصادفة ولكن ذلك بتأثير الطوالع وتحقيقا لغاية خصصتها يد الطبيعة، وكذلك جميع الحوادث، فالنجوم وسائر السيارات تؤثر فى أحداث الأرض، فمثلا الشمس مصدر الحرارة والحياة تهيمن علي العواص النبيلة والمشاعر العالية والوجدانات الحية. وللقمر تأثير عظيم علي الأرض وعلي ساكنيها، ومفعوله ظاهر فى المد والجزر، فمتى كان القمر هو الكوكب الرئيسى فى الطالع أثر في الإنسان وخاصة فى مجموعه العصبى وقوة تخيله، فيجعل من بعض الناس أديبا أو فنانا، وأحيانا يجعل منه مجنونا، وإذا كان هو المهيمن علي زلازل الأرض والعواصف والبراكين كان أيضا ذا اتصال بالحروب الأهلية والأجنبية والنوازل الطبيعية والمصائب الاجتماعية، وهكذا كل نجم من النجوم، وعبارة كل برج من الأبراج.

وهم يعتقدون أيضا أن كل من ولد في برج أو بعبارة أخرى فى شهر خاص يقابل في حياته حوادث خاصة، لا كالذى ولد في برج آخر أو شهر آخر.

ومن الأغانى الشعبية «حسبت نجمك لقيت لك وفق وياى» فإن من حساب الطالع أن بعض البروج تناسب بعضا، وبعضها لا يناسب بعضا، فإذا كان الرجل والمرأة مولودين فى برج واحد أو في برجين منسجمين دل ذلك علي الاتفاق فى العوائد والطباع.

ويقولون فلان طالعه سعيد، وفلان طالعه غير سعيد، ومن تعبيراتهم أيضا: «لأن نجمه عالى أو صاعد»، علامة علي النجاح، وفلان طالعه سافل علامة علي الفشل، ويقولون فلأن طالعه طالع السعد، أي أنه مبخت، وفلان كانت وقعته زحل أي شقى، لأن «زحل» من النجوم الشئومة.

ولعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضا بعلم النجوم، ويتبعون فيه القواعد والأصوال التى يقصد بها استخراج وتعيين الأوقات الموافقة للمشروعات واستنباء فلك البروج بحسب التأثير الذي يكون الإنسان تحت سلطانه، ويزعم المنجمون أنهم، برسمهم علي الرمل صورا وأشكالا لا يعرف أسرارها إلا هم، يستطيعون الوقوف علي أحوال الماضى والحاضر والمستقبل.

الأعياد والاحتفالات

يحتفل المصريون ـ دون غيرهم من الشعوب - بالأعياد، سواء كانت أعيادا دينية أو غير دينية، وسواء أكانت هذه الاعياد أعيادا تخص المسلمين، أو تخص الأقباط، وقد ذكر أحد الرحالين الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر «أنه لا يوجد فى العالم بلد مغرم بالاحتفالات مثل مصر، فلا يمر يوم لا نرى فيه احتفالا، فالمصريون مغرمون بها، وهي تتركز فى المدن، أكثر من الريف. كما أشاد آخر فى القرن التاسع عشر بالوفاق بين المسلمين والأقباط، فذكر أن الأقباط حريصون علي حضور الاحتفالات الدينية الإسلامية، والمشاركة فى الموالد، كما أن أثرياء الأقباط يتبرعون للإنفاق على تجديد أضرحة بعض الأولياء.

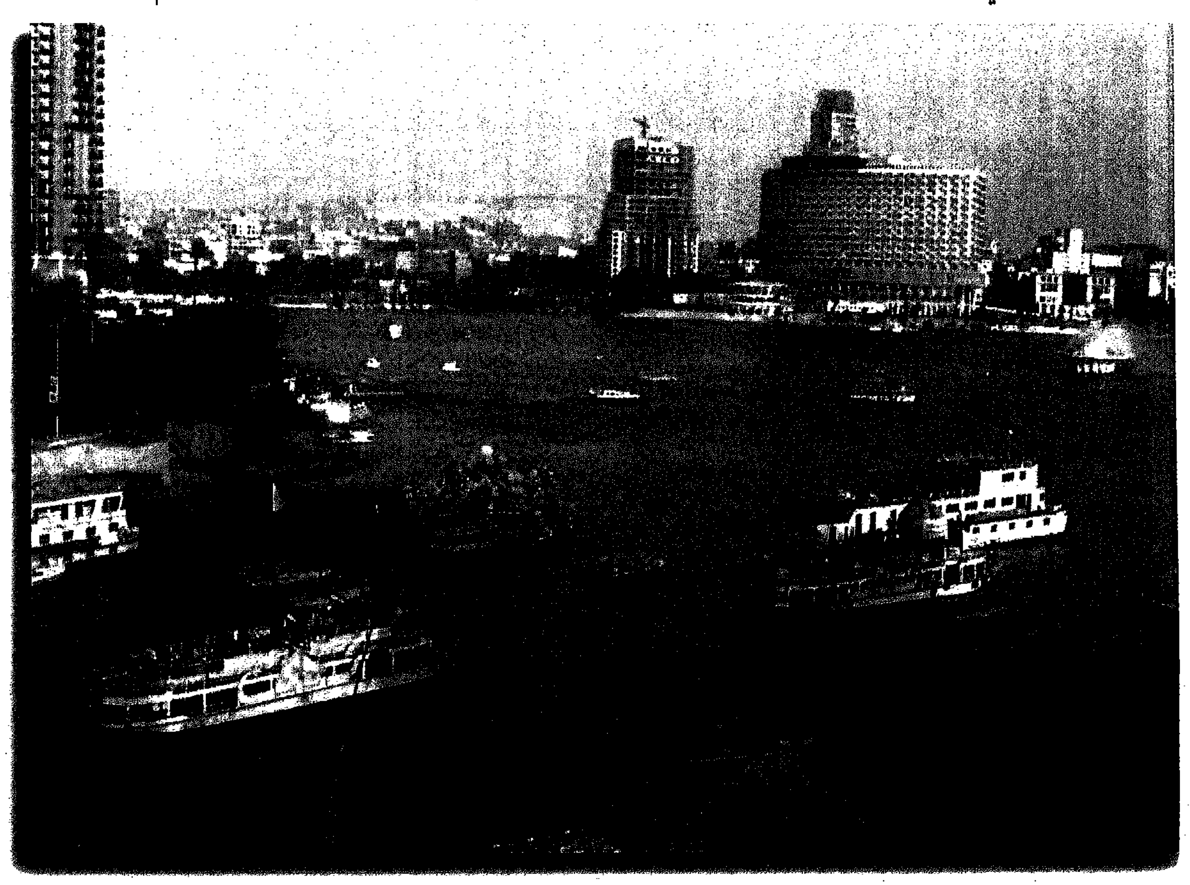
ويُعَدُّ عيدُ الفطر «فى الأول من شهر شوال» الذى يعقب شهر رمضان، شهر الصيام، وعيد الأضحى «فى العاشر من شهر ذى الحجة» والذى تنتهي به شعائر الحج - أحد اركان الإسلام الخمسة ويقوم فيه المسلمون بمحاكاة فداء إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام - العيدين الرئيسيين بالنسبة للمسلمين، كما يُعَدُّ عيد الميلاد المجيد «فى السابع من يناير وفقا للكنيسة القبطية»، والذى يحتفل به بذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وعيد القيامة «خلا ل شهر إبريل» العيدين الرئيسيين بالنسبة للأقباط، ولا تختلف مظاهر الاحتفال بهذه الأعياد على الصعيد الشعبي، إذ يصنع المصريون خاصة فى العيدين الأولين نوعا من الحلوي، يتفننون فى صناعته وهو «الكعك» ويُصنَع من الدقيق، والسمن، ويحشى بالملبن أو الجوز أو الفستق، ويُرَش عليه السكر، ويقدم للزوار والمهنئين بالعيد، وتتبادله الأسر مع الجيران، لا فرق فى ذلك بين مسلم وقبطى، كما يشترى للأطفال ملابس جديدة، تسمي ملابس العيد، ويخرج المصريون كعادتهم فى الاحتفال بالأعياد إلى الحدائق، وللنزهة فى النيل أو على ضفتيه، وتتبادل الأسر الزيارات للتهنئة بالعيد، كما تُعَدُّ أطعمة خاصة كمظهر من مظاهر الاحتفال بالعيد.

وإلي جانب الأعياد الدينية الرئيسية توجد مناسبات أخرى، بعضها له علاقة بالدين، وبعضها الآخر لا علاقة له به ويمكن أن تكون امتدادا لأعياد مصرية قديمة، ولقد عرف المصريون الأعياد الدينية، والأعياد غير الدينية، ومن أهمها الأعياد المرتبطة بالزراعة، قوام الحياة المصرية وعمادها منذ أقدم العصور. ولن نستطيع بالطبع تتبع تطور الاحتفال بالأعياد المصرية، فذلك خارج عن نطاق موضوعنا هنا، ويحتاج إلي دراسة منفصلة، لكننا سنشير إلي الارتباط بين أعياد ومناسبات حالية وأخري قديمة كلما اقتضى الأمر ذلك تأكيدا للتواصل الحضارى الذى يميز المجتمع المصرى، ويبدو فى جوانب عديدة من ممارسته وعادته وتقاليده التى مازالت حية إلى الآن.

ويذكر المؤرخون(١١٧) أنه كانت تقام حفلات دينية فى مناسبة جمع المحصول، تُقدَّم فيها باكورة الحصاد كقرابين للإله المحلى أو للإله «مين» إله الخصب أو لغيره من الآلهة الأخرى، وأنه لما كان الإله «اوزيريس» إلها للقمح فإن الاحتفال به كان شائعا فى البلاد كلها، وكانوا يصنعون له صورة من الطين يدفنون فيه الحبوب، وأغلب الظن أنهم كانوا ينتهزون فرصة الحصاد لتمثيل المأساة التي حدثت له من قتل، ودفن، وبعث.

ويذكر د. نجيب ميخائيل أن قري الصعيد فى مصر ظلت تحتفظ بهذه الصورة إلى العصر الحديث، وأنه شاهدها بنفسه ذات ليلة فى قرية من قري مصر الوسطى، فيقول «شهدت رقصة يقوم بها رجل وامرأة ينعمان بحياة رغدة تتمثل فى الموسيقي المصاحبة لرقصاتهما.. ثم يسقط الرجل فجأة فتدور المرأة حوله، وتبكي ثم تنحنى فوقه حتي تلامسه، فإذا هو يبعث حيا، وإذا الفرحُ والتهليلُ والموسيقى المصاحبة تدوى، وإذا دبيب الحياة يسري فى النغمات التي تنم عن السرور الغامر، وقد سألت الراقص عن هدف الرقصة وكيف تعلّمها، فقال إنها رقصة تؤدي فى مناسبات معينة فى عيد القمح بصفة خاصة، وليس من المستبعد أنها انحدرت إلينا عبر القرون، حتي استقرت بين فلاحينا حتي اليوم، يمارسونها وإن لم يعرفوا لها أصلا.

وكان المصريون يحتلفون كذلك بفاتحة سَنَتِهم الزراعية، أول السنة القبطية، وهو المسَمى بعيد «النوروز» أو «النيروز» احتفالا كبيرا ظل مستمرا فترة طويلة، يشعلون فيه النيران، ويرش بعضهم البعض بالماء، وفى الفترة الفاطمية كان هناك أمير يسمى النوروز يخرج راكبا فرسا، وحوله جمع كثير للاحتفال بهذا العيد، لكن هذا الشكل أُبطلَ بعد ذلك وإن ظل الناس يحتلفون بهذا اليومَ.



الأحتفال بالعيد

وعرف المصريون عيدا آخر من الأعياء الزراعية يقع عند الانقلاب الربيعي أو بعده بقليل، وهو العيد المعروف لدينا الآن باسم «شم النسيم» وكان من أظهر ما يميز هذا العيد، إلي جانب الغناء والرقص، وضع البصل حول الأعناق وشمه وتعليقه علي أبواب البيوت وعلي الأسرَّة، وعلي أبواب الغرف. وهو مازال متبعاَ إلي الآن - اعتقادا منهم أن الأرواح الشريرة إذا حضرت أو أحاطت بإنسان وشمت رائحة البصل، عادت أدراجها، وكفت أذاها عنهم. كما يقومون بإعداد أطعمة خاصة لهذه المناسبة، أشهرها «الفسيخ»[١١٨] يأكلونه مع البصل والخس والملانة.

وكان هناك إلي جانب ذلك «عيد المشاعل» ويقع عند الانقلاب الشتوي أو بعده بقليل، وفيه يسهرون الليل بطوله، ويغطسون فى ماء النهر، و الأغلب أنه كان يناسب فترة البذر والاحتفال بها، ولدي المصريين المعاصرين احتفالٌ بليلة «الغطاس» وهي ليلة الحادي عشر من طوبة، التى يُعتَقد أنها ترتبط بعماد السيد المسيح فى نهر الأردن، ويذكر «المسعودى» في «مروج الذهب» أن «لليلة الغطاس بمصر شأنا عظيما عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهى الليلة الحادية عشرة من طوبة، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس، بمصر والإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة علي النيل، والنيل مطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة عدةُ ألوف من الناس من المسلمين والنصاري، منهم فى الزواريق ومنهم في الدور الداينة من النيل، ومنهم علي الشطوط لا يتناكرون كلّ ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملاهى والعزف والقصف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض.

ولقد كانت هناك أعياد أخرى فى مناسبات معينة، كتلك الأعياد التي مثلنا لها فيما سبق، والتي نزعم أنها أعياد مصرية قديمة، تزيت بأزياء دينية سواء كانت قبطية أم إسلامية بعد ذلك، وهو ما حدث لكثير من العادات المرتبطة بالأعياد عامة، والاحتفال بالموالد خاصة.

و تتعدد الاحتفالات بتعدد المناسبات سواء أكانت دينية أم غير دينية، مما يصعب الإحاطة به فى هذا المقام؛ فهناك الاحتفال برؤية هلال رمضان، والاحتفال بليلة القدر التي تكتسب قداسة متميزة، وأهمية خاصة عن غيرها من الليالى عند المسلمين، لأنها الليلة التي نزل فيها الوحى علي النبى صلى الله عليه وسلم، والتى يعتقد انها تقع فى العشر الأواخر من شهر رمضان، وهناك الأحتفال بأحد السعف، وسبت النور.. الخ لدى الأقباط، والاحتفال بوفاء النيل.. الخ.

وتكتسب مناسبة أداء فريضة الحج باعتبارها إحدي الفرائض الدينية الأساسية لدي المسلمين أهمية خاصة علي الصعيد الشعبى من زاوية الاحتفال بالاستعداد لها، واستقبال الحجاج بعد الانتهاء من أدائها، بالإضافة إلي ما يحيط بالفريضة ذاتها من معتقدات ترتبط بغفران ذنوب من أداها، وأنها فريضة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسليم وهو أمر عميق الجذور فى الوجدان الشعبى المصرى.

وإلى عهد قريب كان يُرسل «المحمل» الذى يحمل كسوة الكعبة الشريفة من مصر، ويحتفل الناس لخروجه من مصر إلي مكة المكرمة، احتفالا عظيما، على المستوي الرسمي والشعبى، وكان ذلك يعد إيذانا ببدء الاستعداد للرحيل إلي مكة لأداء شعائر الحج.



الأحتفال بخروج المحمل من مصر إلى مكة المكرمة

ولعل أهم مظاهر الاحتفال المستمرة إلي الآن، هو ما يصحب الاستعداد للحج من غناء خاص يعرف بـ «حنين الحجاج» ونزعم أن التسمية مشتقة من المشاعر الكامنة خلف هذه الأغاني. فالهدف من «حنين الحجاج» هو استثارة مشاهر الحاج وحنينه للعودة إلي أهله وذويه، ذلك أن هناك اعتقادا قويا لدى المصريين أن من مات وهو يؤدي الفريضة دخل الجنة؛ لأن الحج يغفر ما تقدم من ذنوب صاحبه، بالإضافة إلي الاعتقاد بأنه سيفضل صحبة النبى صلى الله عليم وسلم، والبقاء إلي جواره عن العودة إلي أهله وذويه، لأنه لم يذهب لأداء الفريضة فحسب، وانما يذهب ايضا لأنه تلقى دعوة من النبى لزيارته، ويعبر هذا الجزء من أغنية عن هذا الاعتقاد:

لما دعاني النبى أنا فت اشغالى
وقلت لازم أروح له دا الحبيب الغالى[١١٩]

وفى أغنية أخرى:

يا ساكن الشرق أنا قلبى ليك مال . .
شوقتني يا بن رامه أنا لم معايا مال . .
يا رب أزور الحبيب علي جوزين جمال . .
وأشاهد المصطفى اللى الحجر له لان . .[١٢٠]

إننا يمكننا أن نُكَون صورة تكاد تكون كاملة لما يرتبط بالحج من مظاهر، من خلال الأغاني التي تُؤَدى فى مناسبة الاحتفال بسفر الحاج، فهي تبدأ أولا بهذا الإحساس الملح فى تلبية الدعوة التى يَعتَقد أن النبى يوجهها له، فلا يملك رفضها، وكَيف له أن يرفضها، ومن ثم يبدأ فى الاستعداد للرحلة، موصيا أهله بأولاده الذين سيتركهم وراءه حزينا، لكن كل شيء يهون فى سبيل تلبية الدعوة، وزيارة الحبيب:

يا ولاد بلدى . . الوداد الوداد
ويا ولاد بلدى . . ما بقى إلا السفر
واحمل بزادى . . والوصاية الكتير
حداكم ولادي . . كله في حب النبى[١٢١]



زفة المحمل بشوارع القاهرة

وليست هذه هى الوصية الوحيدة التى يوصى بها الحاج أهله وذويه، فهو يوصى بناته أن تغنين له «أو يغنوا له حنونا كي يعود إليهم:

وإذا طال غيابى . . حنني يا بنتى . . وإذا طال غيابي . . واطلعى مقعدي . . واطلقى جوز حنون . . محبة فى النبى(١٢٢)

ومتي انتهى الحاج من الاستعداد للسفر، وودع أهله وأبناءه أتوا له بجمله الذى سيركبه:

علي باب حارتهم . . برك له الجمل . . علي باب حارتهم . .
يركب المحترم . . ومعاه زميله . . رايحين يزوروا النبى . .(١٢٣)

كما تصف الأغنية رحلة الحاج فى البحر، وتوصى السفينة والبحر به:

وخدهم براحة . . يا بابور يا بابور . . وخدهم براحة . .
دول شبابات صغار . . وجولك فراحة . . عشان زيارة النبي . .(١٢٤)

وقد اختفى الجمل بالطبع كوسيلة للانتقال من مصر إلى الأراضى المقدسة، وحل محله الطائرات والسفن، ولكن ربما ظل الجمل موجودا رمزا للمشقة التي يتحملها الحاج فى الرحلة وأداء المناسك، فعلى قدر المشقة يكون الثواب، والتعبير عن الحب للنبى:

عدد مامشيتوا . . مرحبا مرحبا . . عدد ما مشيتوا . . وودعتوا البلاد . . وراكم وجيتوا . . دا كله فى حب النبى . .(١٢٥)

وعلي الرغم من مشقة الرحلة، والبعد عن الأهل والأحباب، فالحاج سعيد، فرح بلقاء النبى:

سمعته بيغنى . . تحت ضل القلوع . . سمعته بيغنى . .
بالقميص والباس . . وشاله المحنى . . فرحان بزيارة النبى . .(١٢٦)



أحد الصناع الذين يقومون بشغل النقوش والكتابة والزخارف على كسوة الكعبة الشريفة

وتتوصل الأغانى ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فأن الحاج وقد راقت له صحبة النبي، ومن ثم لم يسرع بالعودة، ومن ثم فلابد من تلبية الوصية بأن تغني له بناته «حنونا» يصل إليه كي يرق قلبه، فيسرع بالعودة، تقول الفتاة مستعطفة أباها:

يابا وى خليلك.. بنت الحجيج بتقول.. يابا وصى خليك..

يوم العيد الكبير.. مين يصرف مثيلك.. كله في حب النبى.. (١٢٧)

فهى هنا تستعطف أباها ان يعود فليس هناك من يحل محله، أو يقوم مقامه فى العناية بها، وليست هي ـ معبرة فى ذلك عن إخوتها وبقية الاسرة من ينتظرونه، بل إن داره أيضا ـ التى ينتظره فيها المهنئون من كبار القوم- تفتقد وجوده، وتنتظر رجوعه:

وفي الوسط عمده.. دى دارك وسيعه.. وفى الوسط عمده..

والخيول داخله.. باشوات وعمده.. بعد زيارة النبى.. (١٢٨)

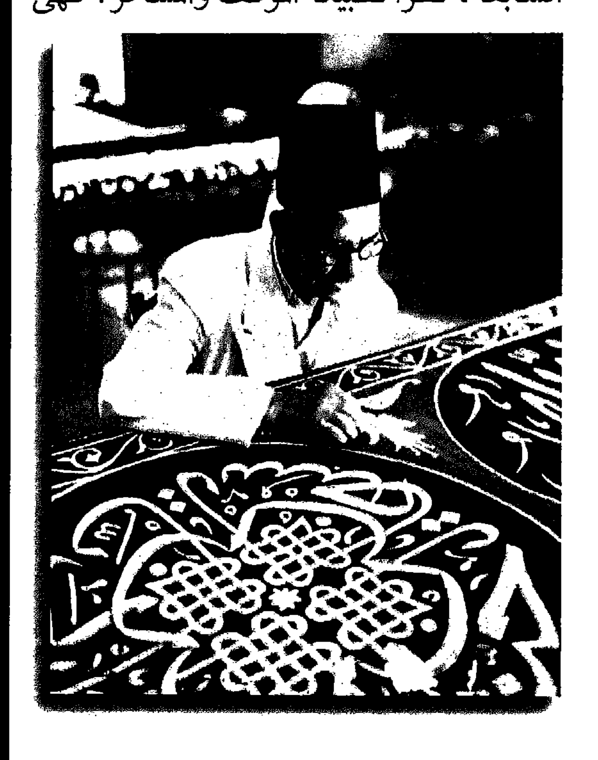
ويستجيب قلب الحاج لنداءالأهل، بعد أداء الفريضة، والاستمتاع بزيارة النبى فيرسل إلي الأهل بأن يعدوا العدة لاستقباله، وأن يزينوا داره:

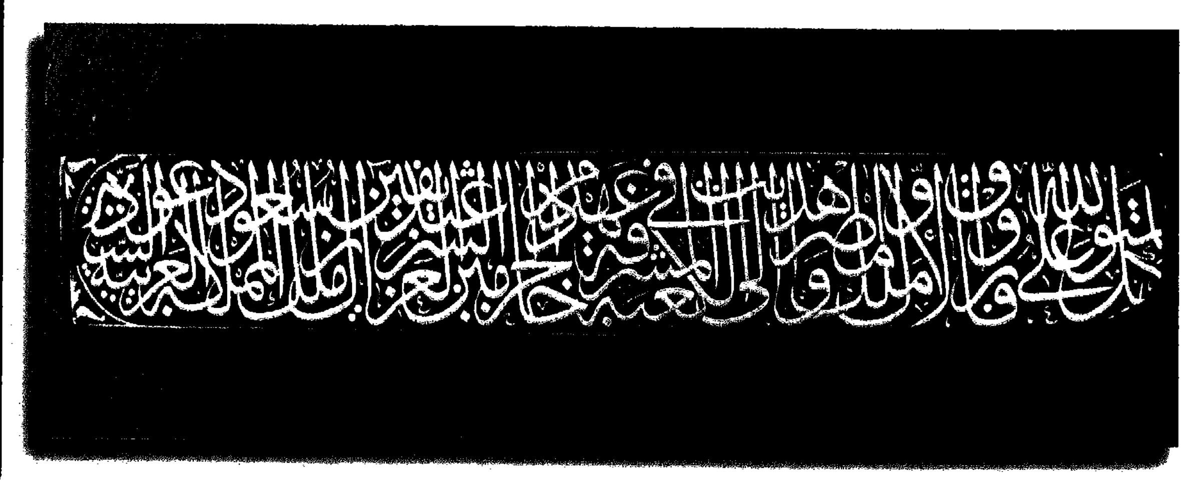
وروح بلادى.. يا بشير الهنا.. وروح بلادي.. وبشر بالسندس..

وبشر بالسندس.. وقول لاخويا.. يبيض وينقش.. بعد زيارة النبى.. (١٢٩)

ويغلب علي غناء هذا النوع من الأغانى طابع الحزن فى الأداء، ولعل هذا مرتبط في جوهره بأنها أغانى وداع بكل ما يحيط بالوداع من مشاعر، سواء أكان وداعا يرجى الرجوع بعده، أو وداعا لا رجعة له.

وتستقبل الاغانى الحاج عند عودته، كما صاحبته قبل سفره، وأثناء الاستعداد له، وعند وداعه، لكن الأغانى هنا تختلف عن الأغانى السابقة، نظرا لطبيعة الموقف والمشاعر؛ فهى





هناك سريعة الإيقاع تعبر عن الفرحة بالعودة، وتكاد تقترب من الأغاني التي تؤدّى في مناسبات الزواج. وقد تستأجر بعض الأسر الثرية مغنيا محترفا، وتقيم سرادقا تستقبل فيه المهنئين بعودة الحاج، وتذبح الذبائح لإطعام هؤلاء المهنئين من الأقارب والأصدقاء.

ولأن المناسبة دينية أساسا، فإن الأغاني يغلب عليها أن توجه التهنئة إلي الحاج بأداء الفريضة، وقد يغني المغني المحترف إحدي القصص الدينية التي تتخللها بعض المواويل القصيرة التي يحيي بها الحاج وضيوفه ومهنئيه:

يا لى انت حجيت وزرت البيت عقبالي..
طفت بالبيت وأرض الزين عقبالى..
وشربت من زمزم وزرت الحبيب عقبالى..
ساعة ما اشوفك أقول يارب عقبالى.. (١٣٠)
مبروك يا حاج جت لك ناس تبارك لك..
من كل فج عميق جت لك حبابيك تبارك لك..
وجت لك آلات الطرب جملة تبارك لك..
ما دام فلوسك حلال الله يبارك لك.. (١٣١)
يا للى أنت حجيت وزرت البيت ونبينا..
رجعت فرحان بحب الله ونبينا..
مالك صرفته فى حب اله ونبينا..
وليلتنا حلوة مادمنا بنصلى علي نبينا.. (١٣٢)

الموالد

يعتقد المصريون عامة، سواء المسلمون أو الأقباط، فى الأولياء والقديسين، وعلي الرغم من أنه ليس فى الدين الإسلامى ما يشير إلى قداسة أى إنسان سوى الأنبياء، إلا أن الاعتقاد بأن الله قد اختص بعض الأفراد بالولاية لتدينهم، وتميزهم بصفات خاصة من الطيبة والصلاح والصدق وحب الخير والسعى إلي تحقيقه، إلي غير ذلك من صفات إيجابية، اعتقاد عميق الأثر فى نفوس المصريين، ومن ثم فهم يبالغون فى احترام هؤلاء الأفراد، وتوقيرهم، خاصة بعد وفاتهم.

ويصل الأمر فى كثير من الأحيان أن يكون لكل مدينة أو قرية وليها الخاص الذى تتبرك به، ويعتقد أهلها فى قدرته علي حل مشاكلهم عندما يتوجهون إليه بالنذور التي يتقربون بها إلى الله عن طريقه، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى أن يكون لكل عائلة أو مجموعة من العائلات فى القرية أو المدينة وليُّها الخاص الذى تنافس به ولى العائلة أو العائلات الأخرى، وإن كان هذا لا يمنع أن يعتقد فرد أو أفراد أو عائلة باكملها أو قرية فى ولى عائلة أو قرية أخري، فعلى الرغم من الحرص علي الخصائص المحلية التي تجعل الولي خاصا بالعائلة أو بالقرية التى تحتفل به، والاعتزاز بهذه الخصائص، إلا أن الأمر لا يصل إلي حد منع الآخرين من التبرك به، والمشاركة فى الاحتفال بمولده، بل إن ذلك يعد مفخرة كبرى، وكرامة عظيمة تنسب إلي الولى، وترفع من قدره بين الأولياء المحليين علي مستوي المعتقد الشعبي، كما ترفع من قدر العائلة أو القرية التى تحتفل به، إذ استطاع ان يجتذب مريدين جددا يعتقدون فى قدرته، ويعترفون بمكانته، ولهذا فهم يحتفلون بهؤلاء الأولياء الذين تنسب إليهم كرامات متعددة، وأعمال يعجز الإنسان العادي أن يأتى بمثلها، احتفالات كبيرةً تتناسب مع قدر الولى نفسه، ومركز العائلة التي تحتفل بمولده، وتتضح هذه الظاهرة أكثر ما تتضح في أولياء القرى والمدن الصغيرة فحسب، أما الاحتفال بالأولياء الكبار الذين نالوا شهرة واسعة فى أرجاء البلاد كلها، ويتجاوز الاعتقاد فيهم المجتمعات المحلية الصغيرة، فيأخذ شكلا مختلفا؛ إذ يصبح احتفالا قوميا أكثر منه محليا، لأن الناس يفدون إلى أضرحتهم من كل مكان فى مصر، علي أساس أن هؤلاء الأولياء «كالسيد

البدوى، وسيدى إبراهيم الدسوقى، وسيدى عبد الرحيم القنائى وغيرهم» يمثلون أولياء جمعيين، يقصد الناس وجدانهم الجمعي إليهم.

وينظر كثيرون إلي بعض ذوي العاهات الجسدية، أو المتخلفين عقليا، ممن يتصفون بالطيبة والوداعة، علي أنهم قد أوتوا حكمة وعلما وطهرا لا يتيسر لغيرهم من الأصحاء، ومن ثم يُجلونهم ويخشون إغضابهم أو السخرية منَهم، ويعللون ذلك بأن أرواحهم ذات صلة وثيقة بالسماء، وأنهم لذلك قادرون على معرفة أشياء ليس فى استطاعة غيرهم معرفتها «مكشوف عنهم الحجاب» ولكلٍّ من هؤلاء طريقةٌ يتصنعها فى إظهار ولايته، بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم في اتجاهات مختلفة، ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة، وهناك فريق لا شغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غيره لا عمل له إلا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان، كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع في أيديهم، أو يكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة، وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران، وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من فعالها المتقدمة، فريق منهم لا يغطون رؤوسهم بالطواقى، بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغا عظيما، ويرسلونها من ورائهم على أكتافهم.

مولد النبى صلى الله و عليه وسلم:

يحتفل المصريون جميعا بموالد الأولياء والقديسين، إلا أن الاحتفال بذكرى ميلاد النبى صلي الله عليه وسلم يكتسب أهمية كبري، ودلالات خاصة فى نفوس المسلمين، وأثرا عميقا نظرًا لأهمية صاحب الذكرى ومكانته التي لا تشبهها مكانة أخري فى نفوسهم، وتذكر المصادر التاريخية عن هذه المناسبة خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين أنه كان يقام لها



الرئيس حسنى مبارك يحرص على حضور الاحتفالات بالمولد النبوى الشريف



- عروسة المولد

احتفالات رسمية كبيرة فى كل أنحاء مصر فيجتمع رجال الطرق الصوفية، وكان الاجتماع فى باب الخلق، وعند تكاملها تسير فى موكب كبير، كل موكب ينشد نشيده الخاص على نغماته الخاصة مع دق الدفوف وقرع ما يسمي البازة، وهي آلة نحاسية، حتى يصل أخيرا إلى مشيخة الطرق الصوفية فى بيت البكري، فتُقرأ الفاتحة وتقام الصلوات، ويعلن السيد البكري افتتاح المولد. وفي مساء ذلك اليوم يدعي الأمراء والعلماء إلى ساحة المولد، وتأتى طوائف الصوفية وأمام كل طائفة فانوس كبير - أو أكثر - غطى بالقماش الأبيض بدل الزجاج، وبعد الصلوات تقام مجالس الذكر، وتعتري بعض الذاكرين جذبات وإغماءات، وبعض أهل هذه الطرق يُدخلُون النار فى أفواههم أو الجمرات فلا تضرهَم، ومنهم من كان يقذف قطعة من الحديد علي الحائط، ثم يتلقاها علي رأسه فيسيل دمه دون مبالاة، وبعد ذلك تنصب الصواوين، فى كل صيوان من يقرأ القرآن، أو يقرأ السيرة النبوية، أو يقيم حفلة ذكر.

وذكر المؤرخون أن من أشهر مظاهر الاحتفال بالمولد حفلة «الدوسة»[133] ففى يوم (١١) ربيع الأول يجتمع أرباب الطرق بميدان باب الخلق علي نظام خاص، ويسير الموكب بأهم شواع المدينة، منهم كثيرون من الدراويش بعضهم يأكل الزجاج، وبعضهم يأكل الثعابين، وبعضهم يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ فى عنف وقسوة، ومنهم من كان يضع حد السيف في بطنه ثم ينام فوقه، ويأتي الشيخ فيبل يده بريقه ثم يمسح علي بطن المريد حتي لا يتأذى من حد السيف.

وعندما تصل هذه المواكب إلى ساحة المولد ينبطح الكثيرون علي وجوههم في صف كبير فيمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه يقوده اثنان من أتباعه، ويعتقدون أنهم سينالون بذلك بركة كبيرة، وكان الناس يُرَوِّحُون عليهم بمرواح إذا تحرك الموكب من شدة الحر، وبعد صلاة العشاء يأتي إلى الصيوان الخديو والكبراء فيستمعون إلي قراءة المولد.

وقراءة المولد تعبير يطلق علي غناء القصص والأشعار التي وضعت عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان الفقهاء المغنون يتغنون في إلقائها فى هذه المناسبة، وغيرها من المناسبات الدينية كموالد الأولياء، والحج، وفى حفلات العرس والختان والسبوع أحيانا، وكان المتبع إن يبدأ الفقيه أو المغنى فى قراءة المولد، ومن حين لآخر يرتل أتباعه بعض الصلوات علي النبى وهكذا حتى تنتهى السيرة، وبعض هذه السير ألف لأجل ذلك على أساليب فنية تناسب الغناء والصوت الجميل من التزام للسجع أو المحسنات البديعية، واشتهر بعض الفقهاء بذلك كما أُشتُهرَ أيضا من هذه السيرة النبوية سيرةٌ ألفها البَرزنجى يقرؤها الموالدية غالبا، وقد التزم فيها الياءوالهاء فى الفقرة الأولي كالبهية والعلية والألف والهاء فى الفقرة الثانية كسناء وعلاء. وبعد أن تنتهي قراءة المولد، توزع الحلوي التي كانت تصنع خصيصا ومازالت تصنع إلي الآن لهذه المناسبة كالحلاوة الحمصية والسمسمية والملبن وما إلي ذلك، وأكواب الشربات علي الحاضرين الذين يتجاوز عددهم الآلاف. ولاتزال هذه المناسبة مناسبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم تحظى باهتمام بالغ علي المستوي الرسمي والشعبى، إذ يُعدُّ يوم الميلاد «الثاني عشر من ربيع الأول» إجازة رسمية تُعطل فيها المصالحُ الحكومية والجامعات والمدارس. ويقام ليلة الميلاد حفل رسمي كبير، يحضره رئيس الدولة أو من ينيبه والوزراء وكبار رجال الدولة، ويبدأ الحفل بقراءة آيات من القرآن الكريم، ويلقي شيخ الأزهر أو وزير الأوقاف، كلمة يركز فيها علي شخصية النبى وسيرته ومناقبه ودلالة المناسبة ويدعو فيها إلى الاقتداء بالرسول الكريم

احتفالات الطرق الشاذلية

باعتباره مثلا يُحتَذَى فى الخلق والسلوك، والإيمان، لتحقيق الخير للبشر جميعا.

أما علي المستوي الشعبى فيبدأ الاستعداد للاحتفال بهذه المناسبة قبل موعدها بأسبوعين علي الأقل، إذ تُزَيَّن مآذن المساجد والمحلات التجارية بالثريات الكهربائية، ويبدأ عرض حلوى المولد المختلفة التى تصنع عادة من السكر والحمص والسمسم والفول السوداني، وجوز الهند، كما تُصنَعُ حلوى خاصة بالأطفال علي شكل فارس يركب حصانا ويمسك بيده سيفا، أو عروسا، وتُزخرَفُ هذه الحلوى بالأوراق المذهبة والمفضضة وغيرها من الألوان، وقد أثرت الحياة المعاصرة ومنتجاتها أيضا علي الشكل التقليدى لهذه الحلوي، ومن ثَمَّ أصبح هناك حلوى تأخذ شكل سيارة أو دبابة أو مدفع، ولكن يظل للشكلين التقليديين «الفارس والحصان/ والعروس» جاذبيتهما لدى الاطفال. ويتبادل أفراد العائلة التهانى، وإهداء علب الحلوى، وخاصة الحلوي التي تهدي للأطفال، وتقام السرادقات إلي جوار المساجد الكبري فى المدن، وإلي جوار أضرحة الأولياء، سواء فى المدن أو القرى، ويستأجر أحد المغنين الفقهاء الذي يطلق عليه «صييت» لكي يحكى غناءً سيرة الرسول صاحب المناسبة، أو يُنشد بعض المواويل ذات المضمون الدينى، والتي تركز علي صفات النبى الخلقية والجسدية مادحة إياه باعتباره نموذج الإنسان الكامل، كما تركز على التوسل به والتماس شفاعته.

فالرسول:

سخى الكف شيمته الكرامة
رئيس سالم من كل عيب
بهيج، خير، وله علامة
ضحوك السن تنظره بشوشا
كحيل المقلتين، فارع القامة
بشعر أجعد وله سواد
كليل مظلم أرخى لثامه

والمغني عندما يمدحه:

يا مدح جمالك ومدحي فيك يحلالى (١٣٤)
يا للى مديحك دوا للقلب وشفا لى..
عسى بنظرة رضا تنظر إلى حالى..
يا للى الإله للعباد يا حبيبى بعثك..
روحى فداك وحتى الجسم بايعتك..
عشان رضا الرحمن وشفاعتك..
وانول شفاعتك ويوم الحشر رحما لى.. (١٣٥)

ويلى الاحتفال بميلاد النبى صلي الله عليه وسلم من حيث الأهمية الاحتفال بموالد آل البيت كالإمام الحسين رض الله عنه، والسيدة زينب والسيدة نفسية «رضى الله عنهما» وقد ذكر هيرودوت أن المصريين القدماء كانوا يحتفلون أيضا بمناسبات مشابهة، حسب ديانتهم آنذاك؛ فقد كانوا يقيمون مولدا فى تل بسطة «فى محافظة الشرقية الآن» وصا الحجر فى الغربية، وهليوبوليس، وهي المسماة الآن عين شمس.

الأولياء

وهذه الاحتفالات بموالد الأولياء هى في حقيقتها مظهر لتكريمهم وإحياء ذكراهم للعظة والاعتبار، وتقام عادة بعد وفاتهم، وتُحكي فيها القصص عن كراماتهم وفضلهم، وقد أنشئت المساجد الجميلة علي قبور البعض منهم وأقيمت الأضرحة فى المدن والقرى تعلوها القباب على أجداثهم إجلالا لكراماتهم، وجرت العادة بغرس شجر جميز بجوار كل قبة لتظلها أغصانها بظلالها الوارفة، وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الأضرحة إما لتلاوة الدعوات علي الضريح أو التوسل بصاحبه فى التماس الشفاء لمريض أو قضاء مطلب.

وفى بعض الأحيان تُحفَرُ بالقرب من الضريح بئر حتى إذا وصل إليه أحد السابلة، يتيسر له الارتواء بمائها، ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار



احتفالات الطرق الصوفية

الباسقة، أما الأضرحة التي لا ماء بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب الناس، لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل جرار الماءوالقلل فيها، ويُعدونها على الدوام لإرواء العطاش من أبناء السبيل أو المسافرين، وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات، وينتفعوا بها.

ومن أشهر الموالد في مصر، مولد «السيد البدوى» أو مولد «سيدى أحمد البدوى» ويقام له فى طنطا كل عام مولد كبير، تجتمع فيه حلقات الذكر، والمريدون وذوو الحاجات وتجار المأكولات، وعلى الأخص الحمص والحلاوة وحَبُّ العزيز، وقد اشتهرت حلاوة السيد اشتهارا كبيرا، حتى لا يسمع المار فى طنطا أو عليها إلا «حلاوة السيد، حلاوة السيد» وبداية الاحتفال بمولد السيد أن أتباعه كانوا كثيرين متفرقين فى البلاد، وحدث أن قام خليفته عبد العال بدعوتهم ووثّق الروابط بينهم، وقالوا له: هذه عادة لا تنقطع إن شاء الله. وفى الميعاد حضروا وظلوا يحضرون، واستمرت العادة إلي يومنا هذا.

ويقا ل إن أحد المشايخ المنتمين إلي السيد حضر هو وتلاميذه وجماعته وأقاموا الأذكار، وتعاهدوا علي العودة في الميعاد، فكان من ذلك المولد الصغير الذى تُنسب إقامته إلى هذا المريد «الشيخ الرجبى» ومن جاءوا معه.

ويحكي الناس الذين يترددون على المولد أن هذا الشيخ حضر هو وأتباعه ومعهم مقدار كبير من الشاش المصبوغ بالأخضر، لتجديد عمامة السيد، وفكوا العمامة القديمة ووضعوا عمامة خضراء جديدة، فسمى المولد، المولد الرجبى، ويرتبط موعد الاحتفال بالمولد شأن الاحتفال بالموالد الأخرى بعادات المجتمع الزراعية بعد جنى محصول القطن وغيره، وخلو الفلاحين من المواسم الزراعية، وكثرة المال فى جيوبهم بعد بيع القطن، ولذلك يحدد المولد وفقا للتاريخ القبطى لأنه أدق، والحكومة تحدد

الموعد تبعا لذلك، وعادة ما يقام فى أوائل شهر مسرى، والمولد الصغير فى أوائل شهر برمودة، والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم، ويَفدُ الناس من كل أنحاء مصر، وخاصة من الدلتا، إلي مدينة طنطا، في هذه المناسبة، بحكم العادة التماسا للبركة، أو وفاء لنذر أو عهد قطعوه على أنفسهم.

و اعتاد المصريون وخاصة الريفيين تقديم النذور إلي الأولياء الكبار كالسيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى « في دسوق كفر الشيخ» والمرسي أبو العباس «الإسكندرية» وأبو الحجاج «الأقصري» وسيدى عبدالرحيم القنائى «قنا» وغيرهم من الأولياء الذين تنتشر اضرحتهم في مصر كلها، بالإضافة بالطبع إلى النذور التي يقدمونها لآل البيت. ويبلغ من حرص الناس على الوفاءبالنذور التي نذروها أن يحرم البعض نفسه وأولاده من شيء يحتاجونه أو يرغبون فيه لأنه منذور للسيد البدوي أو غيره، وتختلف النذور بالطبع من إنسان لأخر فهناك من ينذر نقودا، وهناك من ينذر خروفا او عجلا أو بقرة، وهناك من يتعهد بأنه إذا قضيت حاجاته بكنس مقام الولى، أو السعى إليه حافى القدمين.. الخ، وهم عادة يجعلون النذر معلقا بقضاء الحاجة كأن يقال مثلا: «إنه إذا شفى الابن المريض، سأذبح خروفا للسيد البدوى» أو إذا قضيت حاجتى دفعت كذا للسيد البدوى، وهكذا.

وهم يعتقدو أنه لابد من الوفاء بالنذر مهما كان حتي لا يتسبب ذلك في غضب الولى. وهم يكثرون أيضا من الاستغاثة بالأولياء، ولهم فى ذلك عبارات محفوظة من مثل «مدد يا سيد «أي عونك يا سيد» والمقصود هنا هو السيد البدوى» ويا باب النبى يا سيد» وشيء لله «شيء لله يا حسين أو يا سيد أو مدد يا أم هاشم أو يارئيسة الديوان وهو لقب السيدة زينب رضى الله عنها.

وهم يلقبون «السيد البدوى» بجلاب اليسري أي «جاب الأسرى» وهي عبارة يبدأون بها الذكر فى مناسبة الاحتفال بمولده فيقولون «الله الله يا بدوى جاب اليسرى» ذلك أنهم يزعمون أنه كان من خصائص السيد البدوي أن يذهب إلى بلاد الأعداء. ويجيىء بمن أسروا من المسلمين، وأنه ظل يفعل ذلك بعد مماته، وأن أتباعه يصعدون إلى مئذنته صباحا فيجدون الأسري هناك مغللين بالسلاسل والقيود، فينزعون عنهم أغلالهم، ويفكون أسرهم.

ويقوم بعض أتباع السيد بتأثير هذا المعتقد بربط أنفسهم بالسلاسل أثناءالاحتفال زاعمينأانهم الأسري الذين جلبهم السيد البدوى، مستغيثين به، ولهم فى ذلك أيضا أناشيد وأغان وابتهالات، وتُؤدي في هذه المناسبات، من مثل:

يا سيد كم لك من مدد
يسمو علي وصف أو عدد
وبكم طنطا أعلي بلد
بوسيع رحابك يا سيد
كما جاءك مسكين يبكى
وعليل من ألم يشكى
وفقير فى حال ضنك
فأخذت بيده يا سيد
للشدة أنت أبو فراج
سند للعاجز والمحتاج
وسبيل الفضل بكم قد راج
وازداد بسرك يا سيد
نورت بنورك ما اظلم
من لاذ بك لا يظلم

حلقات الذكر والدراويش

ومن أشهر مظاهر الاحتفالات بموالد الأولياء «حلقات الذكر» التى يشارك فيها المريدون من «دراويش الولى» أو «أتباع طريقته» وعامةالذين جاءوا للاحتفال بالمولد والدراويش اسم يطلق عامة علي أتباع الصوفية وهم كثيرون، ويطلق الناس عليهم اسم «الفقراء» وهو الاسم الذى يطلق علي عامة المساكين والزهاد والمتعبدين، وهم يتمتعون بقدر كبير من الاحترام والتبجيل تبعا للطريقة التى يمثلونها، وأكثرهم احتراما مَنْ كان من الأشراف أو من بيت أبى بكر، ويلقب بالبكرى، وعمر ويلقب بالعمرى، ويلقب رئيس الطائفة بشيخ السجادة، وتعتبر السجادة العرش الروحى، وفى مصر أربع سجاجيد كبيرة، وأشهر طوائف الدراويش هي الرفاعية نسبة للسيد أحمد الرفاعى، وعمامتهم سوداء، أو من الصوف الحالك الازرق، ويشتهرون بالإمساك بالثعابين والحيات والعقارب، ويشتهر الدراويش عامة بالإتيان بالأعمال العجيبة: كغرز المسامير فى أبدانهم من غير أن يقاسوا ألما، وابتلاع الجمر والزجاج، وخرق أجسامهم بالسيوف، وخدهم بالمسلات وأكل الأحجار والمشى علي النار والمسامير والنوم عليها، وأحيانا يحرقون قطعة من جذع النخل ويحشونها بخرق غُمست في الزيت والقطران، وإشعالها، ثم وضعها مشتعلة تحت الإبط، وهم يعدون ذلك مظهرا من مظاهر الولاية.

ومن الدراويش فرقة السعدية وأعلامها، وعمائمها خضراء، وكان شيخ السعدية فى المولد النبوى، والموالد الشهيرة يركب حصانا ويشير به علي بعض أجساد أتباعه، وهو ما كان يعرف بالدوسة، ومن الطوائف طائفة القادرية نسبة إلي عبد القادر الجيلانى، والأحمدية نسبة إلى السيد أحمد البدوى،



والشعرانية، نسبة إلى مؤسسها الشيخ الشعرانى، والبيومية، نسبة إلى السيد علي البيومي، والبراهمة، أو البرهامية، نسبة إلى سيدى إبراهيم الدسوقى، وأعلامهم خضراء.. الخ.

وحلقة الذكر عبارة عن دائرة أو صفين من الذاكرين الذين يحركون أجسادهم ورؤوسهم يمينا وشمالا على نغمات المنشد الذي يقف وسط الدائرة أو بين الصفين المتقابلين، وهم يرددون لفظ الجلالة «الله» ويستمرون علي هذا النحو وقتا طويلا، ويحدث أن يقع بعضهم على الأرض، وقد احتقنت وجوههم، وبدت عليهم علامات الآخرة وغياب عن العالم المحيط بهم نتيجة اندماجهم الكامل فى أداء الذكر.. وقد يقرأون بعض الأوراد، وهى أدعية طويلة تتلى فى وقت معين أو لسبب معين، ولكل شيخ طريقة من الطرق الصوفية عادةً وردٌ أو أورادٌ تُتلى تبعا لتعليماته، فهناك ورد للسحر، وهناك ورد يُقرأ اتقاءً لشرِّ البحر ويسمى «ورد البحر» ويحفظ الأتباع والمريدون والدراويش هذه الأوراد، خاصة ما ينسب منها

لشيخهم. ويرددونها مرارا، ويزعمون أنها تكفر عنهم ذنوبهم ويستكثرون بها من الحسنات.

وهناك طائفة أخرى من الدراويش الذين يسمون «المولوية» لهم طريقة خاصة وأسلوب خاص فى الذكر، ويجتمعون عادة بعد صلاة الجمعة، ولهم زى خاص بهم، إذ يضعون علي رؤوسهم طربوشا أو لبدة طويلة، ويرتدون أردية فضفاضة خاصة عند نصفها السفلي، ولهم طريقة خاصة بهم فى الذكر، إذ يكونون حلقة، ويبدأون علي أنغام الناى فى الحركة يمينا ويسارا ويدورون حول أنفسهم ويبدأ درويش منهم علي الدوران علي نغمات الموسيقى وسط الحلقة، مادّا يديه، وشيئا فشيئا يسرع فى حركته ودورانه فينتشر الجزء السفلى من الرداء علي شكل شمسية، ويظل يدور علي هذا النحو، وهو يرفع هذا الجزء من الرداء شيئا فشيئا عن طريق حركات جسمه، حتي يصل إلي كتفيه، فيأخذه بيديه رافعا اياه، أثناء دورانه حول نفسه، حتي يصل إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه يداه من ارتفاع. ويتناوبون عمل ذلك، وقد يقومون به معا، وبعد أن ينتهى الدراويش من الذكر، ينحنى كل منهم أمام شيخه الجالس وسط الحلقة، ويعود إلي مكانه من الحلقة، ويضع كل منهم يديه علي كتفى الآخر، ويأخذون فى الذكر ثم يستريحون بعد ذلك قليلا، ويعاودون بعدها الذكر مرة أخرى.



إحدى حلقات الذكر



مشاهد لاحتفالات الطرق الصوفية

رواة السير الشعبية

ومن أشهر مظاهر الاحتفال بالموالد أيضا، رواية السير الشعبية التي تحكى عن الابطال الشعبيين: «عنترة بن شداد»، و«أبوزيد الهلالى» و«الظاهر بيبرس».

ويذكر «كلوت بك» أن الرواة كانوا ينقسمون إلى أقسام «فرق» تختص كل فرقة برواية سيرة واحدة، وأكثر تلك الفرق عددا الفرقة المتفق علي تسمية أعضائها بالشعراء، وهم الذين تخصصوا فى رواية سيرة «أبوزيد» وأنه كان بالقاهرة وحدها آنذاك «القرن ١٩» خمسون شاعرا، يليهم الفقرة الخاصة بالظاهر بيبرس ويسمى أعضاؤها بالظاهرية، ثم الفرقة الخاصة بعنترة ويطلق علي رواتها «العنترية» المحدثين «رواة السيرة الهلالية أو سيرة أبوزيد» أو المحدثين «رواة السير الأخري» علي أبواب المقاهى الكبري، كل ليلة، خاصة ليالى الأعياد والاحتفالات وقد أُعدَّ لجلوسهم منصةٌ مرتفعة، ويجلس المستمعونَ أمامهم ينصتَون لما يُروَى، سعداء بما يسمعونه ويشاهدونه.

ويذكر «كلوت بك» أيضا أن الرواة كانوا يروون هذه السير بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية والحركات التى من شأنها أن تستثير الهمم من مكانها، وأنه كلما ازدحم المكان بالسامعين تفنن الرواة فى الحكى وابتكار الحوادث التي يضيفونها إلى الأصل، ويحركون بها مشاعر الناس، وعندما ينتهى الرواة من سرد حكاياتهم يوافيهم صاحب المقهى ببعض المال أجرا لهم، بالإضافة إلي ما يدفعه المستمعون إلى الرواة، تعبيرا عن إعجابهم واستمتاعهم وقد كانت ظاهرة رواة السير تلك شائعةً أيضا فى الأسواق العامة(١٣٦).

وفى حين اختفى رواة السير من مقاهى القاهرة وغيرها ومن الأسواق، ظل هؤلاء الرواة، خاصةً شعراء السيرة الهلالية يجوبون الاحتفالات بموالد الأولياء، سواء في المدن الكبرى أو فى القري فى مختلف أرجاء مصر وفيما يلى نبُذةٌ قصيرة عن أهم السير الشعبية التي مازالت تُرْوَى أو مازال الناس يتذكرونها:

سيرة عنترة:

من أهم وأشهر السير الشعبية فى الأدب العربى، وهى تتركز حول شخصية البطل والشاعر الجاهلى عنترة بن شداد العبسى، وهو من أصحاب المعلقات، ومن الفرسان المشهورين في أيام العرب الجاهلية، وقد دُوِّنَتْ قصائده وأخباره فى الدواوين وفى التراجم والكتب الجامعة للمعارف العربية.

وتُعَدُّ ترجمته وأشعاره من المعالم البارزة في تاريخ الأدب العربى المعتبر، وشخصية عنترة ابن شداد من الشخصيات القليلة التي أنتجها الوجدان الشعبي في العصر الجاهلي، ومن المشهور أن ذاكرة الشعب لاتزال تحتفظ بثلاث سير تتركز حول شخصيات: سيف بن ذى يزن والزير سالم وعنترة بن شداد، ومن المعروف أن الأخيرة أشهرها جميعا.

ولقد سجل أكثر الرحالين الأوروبيين فى القرن الماضى عناية الشعب العربى فى الحضر والريف بسيرتين اثنتين: أولاهما مستمدة من الأخبار الجاهلية وهي سيرة عنترة، والثانية من الأخبار الإسلامية وهي سيرة بني هلال.

أما سيرة الظاهر بيبرس التي أشار إليها بعض أولئك فإنها تتركز حول الظاهر بيبرس، وهي تختلف فى منهج السرد عن السيرتين الأولَيَيْن، عن عنترة وبني هلال، وذلك لأن المحترفين الذين حرصوا علي حفظهما وإنشادهما كانوا يؤثرون النَّظْم وكانوا يُعرفون من أجل ذلك بالشعراء، أما الذين احترفوا إنشاد سيرة الظاهر بيبرس فقد اعتمدوا علي



الحكاية والقصص، ومن أجل هذا عُرفوا باسم المحدثين أي الذين يسردون الأحداثَ بالنثر. وكان الشعراء يصدرون عن الذاكرة والقدرة علي التطور مع الإنشاد، أما الظاهرية فقد استعانوا بنص مدوّن، وكانوا يقرأون ما فيه للجماهير.

ولسيرة عنترة الأساس نفسه الذى اعتمد عليه المعنيون بأيام العرب التي كانت تعمد بالنسبة لسيرة عنترة وما يشبهها بمثابة النواة.

وكان المحور الرئيسى هو شخصية البطل العربي، وقد جمع عنترة بن شداد العبسى - كما ذكرنا - بين الفروسية والشعر، ولكن عنترة كان ابن أمة حبشية أسود اللون، فانكره أهله، بل أنكره أبوه، وعاش بعيدا عن أهله، وكانت مشكلته الكبرى هي التخلص من العبودية، ومن هنا نازعته نفسه إلى تحرير ذاته بالتفوق فى الفروسية والامتياز على أقرانه، والتغلب على أعدائه وأعداء قبيلته، وتم له بذلك الاعتراف بل والامتياز فى مجال القبيلة بأسرها، وتتألف سيرة عنترة من حلقات، مثلها فى ذلك مثل المنهج الشعبى المجتذب للاقبال عند الأفراد والجماعات، وكان البطل لابد أن يكافىء فى القوة والإقدام رؤساء القبائل والجماعات التي يحميها، وينزع إلى الانتصار عليها لكي يصبح هذا الانتصار تأكيدا لبطولته وهو كغيره من الأبطال يعاونه أفراد مخلصون وقوي خارقة تشد أزره، ومناسبات غير مألوفة تحقق له النجاح، ولم تكن غاية عنترة هى مجرد الانتصار في المبارزات والحروب، ولكنه كان يَنْشُد حافزا قويا يدفعه إلي الامتياز والاعتراف بمكانته مثل حُبِّه لابنة عمه عبلة، وارتبط هذاالحافز بسائر الحوافز، وكثيرا ما طُلب إليه أن يأتى بالخارق لكي يصبح أهلا للزواج من ابنة عمه، التى كانت تراه من ناحيتها الفارس المنشود، ومن الراجح أن انتخاب عنترة بسواد لونه كان من العوامل الأساسية فى اختياره ليكون بطلا فى السيرة الشعبية العربية، فإن المؤرخين الذين حاولوا تَتَبُّعَ تكامل السيرة قد

لاحظوا أن من أسباب انتشارها والاحتفال بها سواد لون البطل الذى كان يرمز إلي الحروب المتتابعة بين المسلمين من ناحية، وبين الروم والترك من ناحية أخرى، ومما يرجح هذه الملاحظة أن أبا زيد فى سيرة بني هلال كانت له الشخصية نفسها وهي سواد لونه علي الرغم من أنه لم يكن من أب أسود أو من أم سوداء.

وإذا كان عنترة جاهليا فى تاريخه فإن القيم والمثل والفضائل التي عمل علي تحقيقها كانت إسلامية، ومنْ ثم غلب الجو الإسلامى علي السيرة كلها، ومن أهم المشكلات التى تواجه الدارسين لسيرة عنترة وأمثاله انتخابُ الأبطال وبعض الوقائع والظروف بل وبعض النصوص من الأدب الرسمي أو المحفوظ، ومنها كذلك اجتهاد فرد أو اكثر بأنهم المبدعون للسيرة.

فقد ذكر بعض الإخباريين بأنه نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخُ يوسف بن إسماعيل، وأنه كان يتصل بعزيز مصر في القاهرة، فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازلَ والأسواق، فآذى ذلك العزيز، وأشار على الشيخ يوسف أن يصرف الناس بما عساه أن يشغلهم، عن هذا الحديث، وكان الشيخ يوسف واسع المعرفة بأخبار العرب كثير النوادر والأحاديث، وكان قد أخذ روايات شتي عن ابى عبيدة ونجد بن هشام وجهينة اليمانى الملقب بجهينة الأخبار وغيرهم. فأخذ يكتب عن سيرة عنترة ويوزعها علي الناس، فأعجبوا بها واستغنوا عما سواها. ومنْ تَلطُّفه فى الحيلة أنه قسمها إلي ٧٣ كتابا، والتزم فىَ آخر كل كتاب بأن قطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشتاق القارئ إلي الوقوف على تمامه، فلا يقصر عن طلب الكتاب الذى يليه فإذا وقف عليه انتهي به إلى مثل ما انتهى الأول، وهكذا إلى نهاية القصة.

وقد أثبت فى هذه الكتب، ما ورد من أشعار العرب المذكورين منها، ولكن هذه الرواية وأخبارها لا تغير من المقومات والخصائص الرئيسية التي للسيرة الشعبية.

ويجب أن تعرف بأن ظروفا وأفرادا أفادوا من تبادل التأثر والتأثير بين عناصر الإبداع الشعبى وغير الشعبي، وقد طبعت هذه السيرة طبعات متعددة، أو كانت لها نسخ خطية، وأدى هذا كله إلي اختلافات بين النسخ والطبعات. ثم إن طاقات الحُافظ والشعراء فى الإنشاد فى المناسبات والمواسم كانت من ناحيتها تظهر بعض الاختلافات فى التطويل والإيجاز والإسقاط، ولكن الهيكل العام لهذه السيرة الشعبية ظل بملامحه ومميزاته.

سيرة الظاهر بيبرس

الظاهر بيبرس هو الملك الظاهر ركن الدين الصالحى، ولد في كبجاق عام ٦٢٠هـ «١٢٢٣م» واسترُقَّ وبيع فى دمشق، وجلبه السلطان الصالحُ أيوب إلي مصر ورأَّسه على فرقة من حراسه، وسرعان ما ظهرت مواهبه. واشترك فى المؤامرة التي دبرها المماليك لاغتيال توران شاه، والتحق بخدمة السلطان الجديد أيبك، ثم خشى أن يفتك به أيبك ففر إلي الشام، وعاد بعد اغتيال أيبك إلى القاهرة، وأظهر بيبرس شجاعة نادرة في وقعة عين جالوت، والتي مكنت السلطان قُطز من السيطرة علي الشام، واستعاد أمراء الايوبية الأراضى التى كانوا يحتلونها قبل غزوة المغول ولم يُقْطعُوا بيبرس شيئا، فتآمر بعض الأمراء واغتالواَ السلطان وهو ذاهب للصيد، وانتخب قواد الجيش الأمير بيبرس سلطانا.

واستطاع بيبرس الانتصار على الصليبين بعد معارك طاحنة، وانتزع أنطاكية بعد أن أرسل عليها سبع حملات، وكسر شوكة الداوية باحتلاله صفد وبرج سافيتا، وداهم فرسان القديس يوحنا، واحتل حصن الأكراد أمنع

معاقلهم، وخضع له الإسماعيلية ويطلق عليهم الحشاشون، وسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر فى يد السطان القوى، وغزا قواده بلاد النوبة وخضع البربر لسلطانه.

وتدور حول بيبرس قصة مطولة، وكثير من الناس والحوادث الواردة فى هذه السيرة له أصل تاريخى، ولكن معظم التفصيلات الوصفية من نسج الخيال.

وتُستَهَلُّ السيرةُ بوصف نهاية أيام الأيوبيين ومستهل حكم المماليك حتي ولاية بيبرس عرش السلطنة، أما أقسامها المتأخرة فتتناول مغامرات بطلها فى حروبه التي خاضها مع الروم والصليبيين والمغول. وحوالى النهاية تستحيل الرواية شيئا فشيئا من قصص المغامرات والسحر والصعلكة الحافلة بتهاويل الخيال، وقد استعين بالحكايات المأثورة والموضوعات التي توجد فى القصص العربية الأخري، مثل «ألف ليلة وليلة» وببعض الحكايات المعروفة فى المأثورات الشعبية الإيرانية.

ومن الشخصيات التي تقوم بدور كبير فى السيرة عثمان خادم بيبرس المكار، وإن كان فى جوهره مخلصا، وهو رجل إسماعيل من أساتذة التنكر، وشبحه دائب الحركة يستطلع ويُنقب، ويحرر أسرى المسلمين، ويرهب أعداءه بحيلته ومزاحه. وخصمه علي الجانب الآخر هو جوان وهو عدو لدود للمسلمين.

وتتسم السيرة بميل خاص نحو التجار وأرباب الحرف الذين أخنى عليهم الدهر.. وتجتذب النفوس بخاصة صور الحياة في شوارع القاهرة. وهي تصور بيبرس حاكما عادلا يحمي رعاياه ويحارب الفساد. وكانت النكات الفجة والتوريات والمواقف التي تتسم بشيء من طبيعة الفكاهة البدائية تستهوى غير المثقفين.. والراجح أن السيرة قُصِدَ بها أن تُتْلَى لا أن تُقْرَأ.

وكثيرا ما يرد فى السيرة الأولياء ويظهر السيد أحمد البدوى فى قصة شباب بيبرس وأبرز ولى فى الأجزاء الأخيرة من السيرة هو سيد عبد الله المغاورى، فهو مُنْجِدُ المسلمين فى جميع الشدائد. وخاصة فى الرَحلات فوق متن البحر.

والسيرة نثرية تتخللها فقرات من الشعر المنثور والقصائد، ولغة السيرة عامية بعض الشيء وخاصة فى المتون المخطوطة. وعد شاهدا علي شكل قصص يغلب النثر عليه فى الأدب الشعبي، ويعرف الحافظ للسيرة والمحدد له بمصطلح المحدث او المحدثاتى، وفى مقابل المحترفين لترديد سيرتي عنترة وبني هلال، الذين كانوا يعرفون بمصطلح الشعراء.

السيرة الهلالية

السيرة الهلالية واحدة من أهم السير الشعبية العربية التي مازالت تُروي حتي الآن، وتُعَرفُ فى بعض البيئات العربية بسيرة «أبوزيد» وهذه السيرة هي التى صورت وقائع العرب القيسية فى المدة بين منتصف القرنين الرابع والخامس الهجريين، أى إبان الدولة الفاطمية. ولم يكن أبوزيد المحور الرئيسى الذى تدور عليه تلك الوقائع علي الرغم من شهرته، وإنما كان واحدا من أربعة انتهت اليهم الرياسة في القبيلة وهم الحسن بن سرحان الملقب بالسلطان ودياب بن غانم، وبدير بن فايد، وأبوزيد بن رزق الهلالى.

ولقد مهدت السيرة لولادة هذا البطل بحادث قد لا يجعله من نسل كائن خارق أو غير إنسانى، وإنما جعله يولد كما يولد الصبيان.

وكان أبوه الذى حرم نعمة الولد قد أثلج صدره أن تحمل زوجته خضرة الشريفة، وتوقع أن تنجب له غلاما سويا.

واتفق للأميرة خضرة أن تخرج مع الأميرة «شمة» إحدي زوجات سرحان فى جمع من القبائل، فرأت طائرا أسود ينقض علي مجموع من الطير مختلف الألوان والأنواع، فيغلب عليه، ويقتل الجانب الأكبر منه، فأعجبت به ورفعت وجهها إلى السماء تدعو الله أن يرزقها غلاما علي شاكلته ولو كان فاحم اللون. . واستجاب الله لها. . وغضب الأمير رزق ولم يكن يصدق أن الغلام ولده، ولكنه أبقى زوجته لكلفه بها، وأبى على نفسه أن يرى الغلام بعينيه، واكتفى بما سمع من المرأة التى أبلغته النبأ. . وحال بين الجمع وبين رؤيته إلى أن جاء اليوم السابع، فمد السماط، وأحضر الغلام إلي الضيوف كما تقضى بذلك العادة المتبعة، تحمله جارية علي محمل من الفضة، وتغطيه غلالة لا تبين منه شيئا، وألقى السادة عليه «النقوط» من ذهب وفضة، ورفع أحدهم الغلالة فهاله أن يري الغلام أسود فاحما.

وكان الأمير رزق أثناء هذا كله عند باب خيمته، فلما دخل أشار عليه معظم أصحابه بأن يخلى بينه وبين زوجته هذه، وشككوه فى خلفها، وأعلنوا أن إبقاءه عليها يجر العار عليه وعلى قومه جميعا، فأذعن كارها، وأرسلها وابنها إلى أبيها فى مكة.

ورأت «خضرة» أن تنزل واديا فى الطريق، وألا تعود إلى أبيها متهمة فى عرضها، حتي لقيها الأمير، فضل بن باسمَ، رأس قبيلة الزحلان، وعرف خبرها، فاحترمها، وأكرم وفادتها، وطلب إلي زوجته أن تتلقاها، وتبني ولدها ونشأه مع ابنيه «منعم ونعيم» ولكن «بركات» وقد أصبح هذا اسمه بَزَّ أقرانه فى القوة والشجاعة، وما كاد يبلغ الحادية عشرة من عمره حتي كان قد تفقه معارف الدين والدنيا، مما كان يُدَرس فى جزيرة العرب، ثم تحول إلى ضرب عملى من المعرفة هو الفروسية.



ومهدت السيرة الشعبية لعودة الابن إلي أبيه فعرف الفتى أن الرجل الذي يعيش في كنفه ليس اباه على التحقيق، وطلب إلى أمه أن تنبئه بجلية الخبر، فزعمت أن الأمير فضلا عمه، وأن أباه قد قتل علي يد هلالى يدعي الأمير رزق بن نايل، فأثار حفيظته، وصمم ليأخذن بالثأرو وليقتلن الأمير دون أن يدور فى خلده أنه أبوه.. ووهبه الأمير فضل خير جياده وعلمه الفروسية والطِّراد والكرَّ والفرَّ، وما إلى هذا من فنون الحرب، وسرعان ما برز فى الركوب حتي حسده أبناء القبيلة التي يعيش فى كنفها، وتفوق علي الجميع فى لعبة «البرجاس» وهزم المغيرين علي قبيلته.

وكان الأمير رزق قد اعتزل قبيلته حين غادرته زوجته وعاش فى خيمة من الشَّعر الأسود، دلالة علي الحزن والآسى واصطحب معه عبدا واحدا يقوم بحوائجه، واتخذ منزله إلي جانب العين التي رأت عندها زوجته «خضرة» تفوق الطائر الاسود علي غيره. ولم يمض وقت حتى اجتاح بنى هلال جَدْبٌ مَا حل استمر أمدا، فرأى «سرحان» والأشياخ مَن الهلالية أن يهاجروا إلى نجوع بنى الزحلان، بيد أن الجعافرة وبعض الهلالية الآخرين ظلوا مع الأمير رزق، وكان المطاع بينهم.

ولما بلغ سرحان وقومه هدفهم تصدى لهم «بركات» وألحق بهم هزيمة منكرة فأرسل سرحان يستنجد بالأمير رزق، فأجابه إلى سؤاله، ولما بلغ موضع الهلالية المندحرين، حمل عليه بركات، وقد أخذته سَوْرَة الغضب، عندما عرف اسم منازله، وذكر أنه واتره من أبيه.

وطالت المبارزة بين الاثنين، وكاد الابن يقضى على أبيه، لو لا أن نهته أمه وأفضت إليه بجلية الأمير، فأقر الأب ابنه واسترد زوجته، واعترف بنو هلال جميعا بمكان بركات من أبيه، ومنهم، وزوَّجَه أمير الزحلان بابنته «غصن البان» وأخذ صيته يعلو على الأيام حتى سماه قومه «سلامة» كناية عن الأمن الذى يجدونه فى كنفه، وأصبح يعرف بأبى زيد الهلالى سلامة، إلى جانب اسميه السابقين «مسعود» و«بركات».

وتدل المبالغة فى وصف «أبى زيد» بالسمرة على الباعث التاريخى عليها، فقد ازدهرت هذه الملحمة فى فترة غلب فيها أصحاب البشرة البيضاء على الحكم، وهم من غير العرب بطبيعة الحال، كما تسلل الصليبيون إلى داخل الوطن العربى، وهددوا حماه، وهم أيضا من أصحاب البشرة البيضاء، فكان لابد أن يرسم الشعب بطله مناقضا لخصومه هؤلاء، ولذلك اختار السمرة له لونا. ثم مالبثت فيها على هذا النحو، وفى هذه الخصلة شبه قوى بما كان عليه بطل آخر من أبطال العرب هو «عنترة بن شداد العبسى» الذى التقت فيه الفروسية بالشعر. ولم يُغفل الشعب هذه الحقيقة فيه، فانتخبه دون كثير من الفرسان.

وكل مابين البطلين من فارق هو أن الشاعر العبسى كان ابن أمة حبشية، أما أبو زيد الهلالى فابن شريفة حجازية. وليس معنى ذلك أن الشعب فضل أحدهما على الآخر، ولكنه اهتم بهما معًا، وتغنى بمحاورهما وفعالهما معًا.

وترتكز بطولة أبى زيد على دعامتين اثنتين، أولاهما الشجاعة، وهى كما نعلم صفة شائعة بين أبطال السيرة جميعا، ولكن أبا زيد يبرز عليهم فيها بحيث يُفقَدُ التناسب بينه وبينهم، فهو كغيره فارس يجيد الركوب والكر والفر والمنازلة واستعمال السلاح كالسيف والرمح، ولكنه كفاء جيش بأسره.. إذا صرخ ارتعدت له الفرائص، تسبقه شهرته، وتؤثر فى مُنازله وتجندل الضربة الواحدة من سيفه العدد الذَى لايحصى من عدوه... ويقذف برمحه إلى مدى لايبلغه البصر.

ولما كانت السيرة الشعبية تقوم بالمد والجزر فى الحوادث، فمن المنطق المساير لها ألا تصبح حياة أبى زيد كلها انتصاراً، وإلا فقدت أهم عناصرها القصصية، ومن ثم فنحن نراه يهزم فى بعض الأحيان.

أما الدعامة الثانية التى ترتكز عليها شخصيته فهى الحيلة، وقد أهله الشعب لها بأن علّمَه مختلف العلوم والفنون واللغات، فهو يستطيع أن يتنكر فى أى زى، وأن يحترف أية مهنة، وأن يتحدث بأية لغة، وأسقط الشعب من حسابه تلك الصفة اللونية كلما تحدث عن حيلته، إذ ليس من المعقول أن يتنكر فى زى رهبان الروم فى قبرص مثلاً، أو أن يتخذ، وهو الفارس تغمره الرجولة، مظهر المرأة، كما بدا بين جمع الجازية عند أبواب تونس، وقد ألبسه الشعب شخصيات الطبيب والراهب والنديم والمهرج، بيد أن أهم شخصيتين كان يلذ له أن يُصوَّرَ بصورتهما، هما العبد لملاءمتها له فى اللون والشاعر الجوال لاتفاقها مع شخصية المنشد نفسه.

وأخذ الشعب يتمثل بهذه الشخصية التى تستطيع أبدا أن تتخلص من المأزق فقال «سكة أبى زيد كلها مسالك».

وقد أسهم أبو زيد فى وقائع بنى هلال الرئيسية جميعا.. وهو البطل الأكبر فى القسم الأول من الغزوة الهلالية، وهو القسم المعروف بالريادة، إذ كان عليه أن يرود الطريق من أرض نجد إلى بلاد المغرب فى إفريقية الشمالية، وقد اصطحب معه الفتيان الأوائل فى القبيلة، وهم يحيى ومرعى ويونس.

وابتدعت السيرة الشعبية مبررا للغزوة الهلالية وهو وقوع أولئك الفتيان الثلاثة فى يد «خليفة الزناتى» بمدينة تونس الخضراء، واحتال أبو زيد حتى تخلص من الأسر، وكر راجعاً إلى قومه فى نجد، فما كان منهم إلا أن قاموا قومة رجل واحد، يستهدفون مدينة تونس لتخليص الثلاثة وتحريرهم.

وقد آثر الشعب العربى هذه الشخصية بحبه، وأعطاها مكان الصدارة، لا بين أبطال سيرة بنى هلال فحسب، ولكن بين أبطال السير الشعبية جميعاً، وقد امتدت شهرته حتى نفذت من الوطن العربى الكبير إلى غرب إفريقية وشرقها على السواء.[١٣٧]

مراجع المجتمع

١- راجع سليمان حزين «د» مقومات الحضارة المصرية - البيئة والإنسان والحضارة فى وادى النيل الأدنى ص ص ٣-٣٦ فى «تاريخ الحضارة المصرية»، العصر الفرعونى - المجلد الأول، وزارة الثقافة والإرشاد القومى - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية «بدون تاريخ».

٢- عبدالعزيز صالح «د»: الأسرة فى المجتمع المصرى القديم - المكتبة الثقافية «٤٤» - وزارة الثقافة والإرشاد القومى - القاهرة - سبتمبر ١٩٦١، ص ٣

٣- راجع: إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم م وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، الطبعة الثانية - القاهرة، دار نشر الجامعات المصرى ١٩٧٥.

٤- عبدالعزيز صالح «د»: مرجع سابق ص ٣٢-٣٣

٥- إدوارد وليم لين: مرجع سابق ص ٢١٧.

٦- عباس محمود العقاد: سعد زغلول، مكتبة حجازى - القاهرة ١٩٣٦، ص ٢٩.

٧-جمال حمدان «د»: شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٣٤.

٨- حسن خلاف: المصريون والهجرة إلى الخارج - جريدة الأهرام - القاهرة ٨/ ١١/ ١٩٨٠.

٩- سنية عبدالوهاب صالح: دراسة ميدانية لظاهرة العقول، المجلة الاجتماعية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، المجلد ١٣، العدد ٢ - مايو ١٩٧٦، ص ٤٣-٥٤.

١٠- عبدالحميد سماحة «د»: الفلك عند المصريين القدماء «فى تاريخ الحضارة المصرية» - «العصر الفرعونى» - المجلد الأول - وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ ص ٥٧٧.

١٢- أحمد أمين «د»: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، طبعة ثانية، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٥٣ «بدون تاريخ».

١٣- فتحى عبدالفتاح: القرية المصرية دراسة فى الملكية وعلاقات الإنتاج، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٣.

١٤- عماد سلطان «د»: الصراع القيمى بين الآباء والأبناء وعلاقته بتوافق الأبناء النفسى، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ١٩٧٣، ص ص ٦٠-٦٩.

١٥- ناهد رمزى: صورة المرأة كما تقدمها وسائل الإعلام - دراسة عن تحليل المضمون للصحافة النسائية «باشراف د. مصطفى سويف» - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٧٧، ص ٩٣، ١١٩

١٦- سهير القلماوى «د» أحاديث جدتى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٩.

١٧- محمد سعيد فرح «د»: الشخصية القومية: منشأة المعارفة، الإسكندرية، ١٩٨١، ص ٢٨٩.

دراسات فى المجتمع المصرى، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٦، وانظر أيضاً:

محمد عاطف غيث «د»: التغير الاجتماعى فى المجتمع القروى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

محمد عبده محجوب «د»: المرأة وأساليب التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الريفى - جامعة الإسكندرية، كلية الآداب - مجموعة أبحاث إعادة بناء الإنسان المصرى، ١٩٧٩.

١٨- إلهام محمد على ذهنى «د»: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر «سلسلة مصر النهضة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٥، ص ص ٢٣٦-٢٥٤.

١٩- شامبليون فى مصر: الرسائل والمذكرات، ترجمة عماد عدلى وطاهر عبدالحكيم، القاهرة، ١٩٩١، الطبعة الأولى، ص ٤٠.

٢٠- ثروت عكاشة «د»: مصر فى عيون الغرباء والرحالة والفنانين والأدباء، القاهرة، ١٩٨١، الجزء الأول، ص ٢٤٤.

٢١- على الجريتلى «د»: خمسة وعشرون عاماً، دراسة تحليلية للسياسات الاقتصادية فى مصر، ١٩٥٢ - ١٩٧٧، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ٧٦.

٢٢- أحمد عبدالله زايد «د»: حول دراسة البناء الاجتماعى لمصر فى مرحلة ماقبل الرأسمالية، دراسة فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع - العدد الأول - دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٢٣.

٢٣- أحمد عبدالله زايد «د»: مرجع سابق ص ١١٣، وانظر: محمود متولى «د»: الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤.

٢٤- محمد أنيس «د»: دراسة فى المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الاشتراكية، مجلة الكاتب، القاهرة، يونيو ويوليو ١٩٦٥.

٢٥- عبدالعظيم رمضان «د» صراع الطبقات فى مصر ١٨٣٧-١٩٥٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص ص ٢٩-٣٠.

٢٦- إبراهيم عامر: الأرض والفلاح: المسألة الزراعية فى مصر، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٥٨، ص ص ٥٧-٥٩.

٢٧- أحمد عبدالله زايد «د» : مرجع سابق ص ١١٦ .

٢٩- صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٤ .

وانظر : أحمد عبدالله زايد «د» : البناء السياسي في الريف المصري «مرجع سابق» ص ٨٥ .

٣٠- فتحي عبدالفتاح «د» : مرجع سابق ، ص ص ٧٣-٧٤ وانظر أيضا : علي بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ ، وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة «بدون تاريخ» .

عاصم الدسوقي «د» : كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري ١٩١٤ - ١٩٥٢ ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٥ .

سامية سعيد إمام : من يملك مصر ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٣١- أحمد عبدالله زياد «د» : البناء السياسي في الريف المصري «مرجع سابق» ص ٣٠٤ .

٣٢- محمود مراد : من كان يحكم مصر : شهادات وثائقية ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٣٥ .

٣٣- سامية سعيد إمام : «مرجع سابق» ص ص ٨٣-١١٧ .

٣٤- أحمد عبدالله زياد «د» : «مرجع سابق» ص ٣٦٦ ، وانظر أيضاً : سامية إمام : «مرجع سابق» ص ٨٧ .

٣٥- أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ ص ١١٣-١٤١ .

٣٦- محمود عبدالفضيل «د» : الاقتصاد المصري بين التخطيط المركزي والانفتاح الاقتصادي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢١٦ .

٣٧ - سامية سعد إمام : «مرجع سابق» ص ص ٩٢-٩٣ .

٣٨- شوقي عبدالقوي حبيب : احتفالية السبوع : التاريخ - العادة - المعتقد ، مجلة الفنون الشعبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، العدد ٤٩ .

٣٩- عملة مصرية كانت تستخدم في ذلك الوقت وقيمتها ضئيلة .

٤٠- علماء الحملة الفرنسية جي . دي شابرول ، وصف مصر ، المجلد الأول ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٢٦٩-٢٧٠ .

٤٢- إدوارد وليم لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، ترجمة سهير دسوم ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ص ٥٢٠-٥٢٢ .

٤٤- منصور فهمي : أحسن الهدايا في السفر إلى الواحات ، القاهرة ، ١٩٠٧ ، ص ص ١١٨-١٣٠ .

45- S. H. Leeder: Modern Sons of the Pharaohs, *A Study of the manners and Customs of the copts of Egypt*, London, 1918, PP.

46- Winfred S. Blackman: The Fellahin of Upper Egypt, London, PP. 76 - 81.

٧٤- عبدالعزيز «د» الأسرة المصرية في عصورها القديمة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٦ .

٧٥- لمزيد من التفاصيل

عثمان خيرت «د» قلة السبوع ، مجلة الفنون الشعبية العدد التاسع ١٩٦٩ سعد الخادم ، الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، مصر ١٩٦٦ ، ص ص ٣٩-٤٢ .

٧٦- عثمان خيرت ، المرجع السابق ، ص ص ١٦-٢٠ .

٧٧- معجم الحضارة ، مادة أزوريس

٧٩- إدوارد وليم لين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٢١-٥٢٢ .

٨٠- محيط الفنون التشكيلية ، الجزء الأول ، مصر بدون تاريخ ، ص ص ٦٩-٧١ معجم الحضارة المصرية القديمة مادة «بس» .

٨١- عبدالعزيز صالح «د» : الأسرة في المجتمع المصري القديم - المكتبة الثقافية ٣٣ - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - سبتمبر ١٩٦١ - ص ٤٩ .

٨٢- أ . ب كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ترجمة : محمد مسعود - دار الموقف العربي - القاهرة - ١٩٨٢ - ص ٣٩-٤١ .

٨٣- ج - دي« شابرول : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين «وصف مصر - الدولة الحديثة» ترجمة زهير الشايب - مطبعة الجبلاوي - ط ١ - القاهرة ص ص ٥٧-٥٩ .

٨٤- أحمد أمين : مرجع سابق ، ص ص ١٨٧-١٨٨ .

٩٢- أ . ب كلوت بك «ترجمة محمد مسعود» : لمحة عامة إلى مصر - دار الموقف العربي - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٢ ، ص ص ٤١-٤٦ .

٩٣- الهام محمد علي ذهني «د» : مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٥ ، ص ص ٢٨٨-٢٩٠ .

١١٢- سميح عبدالغفار شعلان : الموت والمأثورات الشعبية ، رسالة ماجستير لم تطبع ، المعهد العالي للفنون الشعبية ، أكاديمية الفنون ، مصر ، ١٩٩١ .

١١٣- إلهام محمد علي ذهني «د» : مرجع سابق ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

١١٤- إدوارد وليم لين : مرجع سابق ص ص ٥٤٨-٥٤٩ .

١١٥- إلهام محمد علي ذهني «د» : مرجع سابق ص ٢٥٦-٢٥٨ .

١١٧- نجيب ميخائيل «د» : الزراعة «أعياد الزراعة» فى تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - مرجع سابق، ص ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

١٣٦- أ . ب . كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر - ترجمة محمد مسعود، دار الموقف العربى للصحافة والنشر، القاهرة ١٩٨٢، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، ص ص ٧٥، - ٧٦ .

١٣٧- عبدالحميد يونس «د» : السيرة الهلالية بين التاريخ والأدب الشعبى، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٨

الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى، المكتبة الثقافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، بدون تاريخ .

دفاع عن الفولكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ .

معجم الفولكلور، مكتبة لبنان .

محمود الحنفى ذهنى «د» : سيرة عنترة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ .

تفسيرات المجتمع

١١- ويقولون أيضاً : اللى ماتشبعش برسيم فى كياك، ادعو عليها بالهلاك، ومعناه أن البقرة أو الجاموسة التى لاتشبع من أكل البرسيم فى هذا الشهر، فمن الأفضل أن تهلك، لأنها لن تشبع أبداً، ولا خير يرجى منها، وذلك لكثرة هذا النبات خلال ذلك الشهر، وفائدته بالنسبة للحيوانات كغذاء عامة .

٢٨- يقصد بهذه المصطلحات مايلى :

العهد : هى الأراضى التى منحت للموظفين وضباط الجيش وبعض الأجانب، خاصة الذين ساهموا فى خدمة السلطة .

الأبعاديات : أراض بور منحت لكبار الموظفين والأجانب معفاة من الضرائب فى مقابل استصلاحها .

الجفالك : وهى الأراضى الخصبة التى منحت لأفراد الأسرة الحاكمة وهى معفاة من الضرائب ويتم استخدام السخرة فيها، بالإضافة إلى العمل المأجور .

احمد عبدالله زايد «د» : البناء السياسى فى الريف المصرى، تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، دار المعارف القاهر ١٩٨١، ص ص ٢٥٥ - ٢٥٨ .

ونظر أيضاً : محمود متولى، مرجع سابق، ص ٢٥، وفتحى عبدالفتاح «د» : القرية المصرية دراسة فى الملكية وعلاقات الإنتاج، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٣، ص ٤٠ .

٤١- الشمر من الأعشاب الطبية .

٤٣- لم يذكر أى يوم ولكنه غالباً يقصد اليوم السابع

٤٧- وهذه أغنية يغنيها الحاضرون أثناء هز الغربال :

يا أم الصغير افرحى بغرباله ده السعد عدا جسرنا و

يا أم الصغير وافرحى لمولودك ده السعد من كفنا واد

رشى فسوخة وملحه تحرس لفته ألا العوازل ي

ويشتموا

نبيلة ابراهيم «د» الفنون القولية الخاصة باحت الميلاد والزواج والوفاة، حلقة العناصر المشتر المأثورات الشعبية ١٩٧١، ص ٢٤٩ .

٤٨- برجالات هى تصغير لكلمة أرجل ومعناها بر الصغيرتين ستسير وتكبر والحلق الذهب تمنى بالرزق الوفير، وقد يكون معنى برجالات - بر أى أنك ستكون عزيزا بهم . عثمان خيرت « السبوع، مجلة الفنون الشعبية، العدد ا ١٩٧١، ص ٢١ .

٤٩- لايحدث هذا دائماً بل كانت أحياناً ترمى ف جارية والآن تلقى فى المجارى .

٥٠- يلاحظ أنه يذكر دائماً أن الأرز باللبن أو بالس عشاء الملائكة وقد جاء فى كتاب عجائب ال ربان المركب كان يضع يومياً وعاء به أرز با للملائكة «برزك ابن شهريا» «عجائب اله وبحره»، مصر ١٩٠٨، ص ١٩ .

٥١- نفس هذه الممارسات تحدث عند المسلمين .

٥٢- لايتم فى سبوع المولود المسيحى ذبح حيوان أ لأنه لايوجد فدية للطفل .

٥٣- أرادت الفتاة تصوير بنت أختها فى سرسر و علب الملبن فرفضت زوجة القسيس وقال حرام، لأن الملائكة تحيطها، وتضيف بأنها ه بنت صديقة مسلمة فى نفس الوضع، ولم ي أحد .

٥٤- تسمى صلاة حميم الطشت، والاسم المتداول الطشت .

٥٥- الزيت المقدس : زيت مصلى عليه فى الك والتقديس جاء من الصلاة عليه .

٥٦- رفقة «رفاقه» وهذا يدل على أهمية الرقية فى ا الشعبى وضرورتها حتى النبى صلى الله عليه رقى الناقة من رفاقه وهم الصحابة رضوا عليهم .

٥٧- من المعتقدات السائدة أنه لايدخل على الأم ال الأخضر واللحمة النيئة والبرسيم الحب و الشعر . وذلك لمدة أسبوع وكذلك إذا كانت سيدة والدة لاتدخل عليها أيضاً إلا بعد أ الهلال وكل ذلك اعتقاداً بأن هذا يقلل من لبن

٥٨- يلاحظ هنا أن التى تغزبل هى التى تلقى بال وليست الطارقة فى الهون كما فى أماكن كثيرة

٥٩- اعتقاد بأن الملح بمنع السحر والعمل/ .

٦٠- نصر آخر ياملح دارنا كتر عيالنا ياملح الملوك يجعلك مبروك . . ياحنان يامنان إملا دارنا صبيان ياملح دارهم كتر صغارهم

عودى سنوى يارب هات لهم كل سنة

محمد عبدالسلام ابراهيم، الإنجاب والمأثورات لاشعبية فى محافظة الشرقية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٣، ص ٥٠ .

٦١- الحاصل : غرفة طويلة بها فتحات ضيقة عالية قريبة من السقف للتهوية وللزينة وتعطى ضوءا خافتا بالنهار .

٦٢- فرش للأراض يصنع من سعف النخيل .

٦٣- البخور يتكون من خشب الصندل، المحلب، حبوب لقاح البلح الذى يحتفظ بها للاستعمال، شجر السنتى وهى شجرة ظل كالسنط ويقطع الجذع إلى قطع صغيرة تضاف إلى خلطة البخور .

٦٤- فى خلال هذه الفترة تكون سرة المولود قد وقعت وتؤخذ وتدفن فى أى مكان .

٦٥- يلاحظ أنه إذا كانت القرية فى الضفة الغربية للنهر يأخذ المحتفلون بالسبوع قارباً ويتوجهون به إلى الضفة الشرقية حتى يكونوا مواجهين لغروب الشمس .

٦٦- المديد «العصيدة» تتكون من الدقيقة واللبن والسمن البلدى .

٦٧- من المعروف ان النوبيين هم آخر المصريين الذين أسلموا وذلك فإن الصليب الذى يرسم على جبهة الطفل إما تراث من بقايا المسيحية، أو فى الغالب يرمز إلى أنهم بعد ان كانوا مسيحيين تركوا الديانة المسيحية وتحولوا إلى الإسلام وهذا التحول يرمز له برسم الصليب ثم غسله بالماء .

٦٨- من المعروف ان النيل كان يعبد فى مصر القديمة وكان هو حابى باعث الخير والنماء ويبدو أن إلقاء المديد فى النيل تراث من بقايا إلقاء القرابين للنيل تبركا وتقربا .

٦٩- القحف هو آخر جزء من الجريد .

٧٠- يذكرنا هذه برحلة الإله رع «هو الشمس نفسها» فى الديانة المصرية القديمة حيث كان يركب سفينته النهارية رحلا من الشرق تجاه الغرب أثناء الغروب وهذه الرحلة كانت تحدث يومياً مع غروب الشمس معجم الحضارة المصرية القديمة، مادة رع .

٧١- عالية عبدالواحد المغربى، زاوية الناعورة، الجامع، شوقى عبدالقوى عثمان .

٧٢- ختوم : صور ختوم على هيئة رجل ذى رأس كبش وقرون مزدوجة إنه الآله خالق الحياة والكائنات الحية ولما انتشرت عبادته، اتخذ لنفسه وظائف ثانوية، أو كالخزاف الذى شكل فوق دولابه تلك البيضة التى تخرج منها الحياة كلها، معجم الحضارة المصرية، مرجع سابق، مادة ختوم .

٧٣- الجنين المقصود هنا هى حتشبسوت .

٧٨- لابد أن يكون عدد أنواع الحبوب سبعة من الحبوب المتاحة وقت السبوع ولكن يلاحظ دائماً أن القمح والذرة من ضمن تلك الحبوب كما ان هناك البعض لايضع الترمس والحلبة ضمن الحبوب لمرارتها حتى لاتكون السنة مرة على حد قولهم .

٨٥- خش : ادخل، الجنينه : الحديثة، وهاته، واحضره، يامزينه : ياأيها الحلاق .

٨٦- سمى عليه : أى قل اسم الله عليك عندما تحمله، وهى عبارة تقال كدعاء إلى الله يحفظ الطفل وحمايته عادة، قلعه بدلاته : اخلع ملابسه .

٨٧-حلو : أكثر جمالاً، عن رفقاته : عن رفاقه .

٨٨- يامطاهر : نداء على الطفل المراد ختانه، فالمجتمع لايستخدم كلمة ختان، وإنما يستخدم كلمة طهارة ومن ثم فالطفل هو «المطاهر» .

٨٩- بشويش : برفق وحنان .

٩٠- تعنى العبارة : جفف دمه بمناديل نظيفة رقيقة .

٩١- هاتولى : احضره عندى أولى .

٩٤- يامه «بتشديد الميم» : ياأمى، ويا «بتشديد الياء» : مع . لقيت : وجدت، بيتغده : يتناول غداءه، بمقشه «بتشديد الشين» : بمقشه، بتعشه : يتناول عشاءه .

٩٥- هوه «بتشديد الواو» : إنه، حباية العين «بتشديد الباء» : مقلة العين . من جوه «بتشديد الواو» : من الداخل . كلما قول : كلما قلت، ياواد . لاخنك : اننى سآخنك . ينعاد : يعاد، يتردد على الألسنة .

٩٦- يدور : يبحث، لقى : وجد . بتنور : جميلة مشرقة . باسم النبى حواليكى : عبارة تقال للدعاء للشخص أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم معه . وحواليكى : حولك أو معك . خلق الشعور وصور : خلق الشعر وأحسن تصويره .

ملحوظة : تنطق القاف كالجيم القاهرية فى كل الأغانى .

٩٧- ياعال العال : إنك من أصول عالية كريمة طيبة . سيدك : جدك .

٩٨- داحنا : هانحن . الجمالات : الجميلات . ياوله : أيها الشاب، ماشى : نافذ . ازاى : كيف . ييجى : يأتى . ونقبى العاصى : أى نظل عصاة غير موافقين .

٩٩-حبونى : أحبونى . شلت : رفعت، عليه : على .

١٠٠- حواليكى : حولك، يتم عليكى : يتمم فرحك وسعادتك، يبيض عرضك : عبارة تقال كدعاء للفتاة ألا يشمت فيها أحد يوم زفافها .

١٠١- مجاش : لم يأت، دبت : ذبت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠٢-جسر القضيب: المقصود به محطة السكة الحديد أو الطريق عامة، وادعى بحرقه.. وأدعو الله أن ينتقم ممن جعله يكره الدار فلا يأتى. الميه: الماء. ميه: مائة. اللى: الذى. فيه: فى. شن رجليه: صوت الخلخال، أو صوت رجليها كناية عن كثرة ترددها على هذا المكان فى انتظار مجىء حبيبها.

١٠٣- ياالباسين: يامن تلبسون. الحبر: نوع من الملابس الفضفاضة كالعباءة تلبسه النساء. هداديبه: اطرافه. أجيبه: أحضره.

١٠٤- دا الجدع: هذا الشاب، ويقلعه: يجعله يخلع.

١٠٥- ياحلاوة على الساعة: ما أحلى هذه الساعة. مديت: مددت «وهى هنا تعنى أريته» ودنى: أذنى. الحلق: القرط، يضوى: يضىء ويبرق، ماتفوريش دمى: لاتثيرى أعصابى، حبك بالولاعة: الحب ليس غصبا. بجمار: جمار النخيل وهو جزء أبيض اللون، ناعم الملمس: حلو المذاق، فى داخل الجزء العلوى من النخلة. سدرى: صدرى.

١٠٦- خدنى معاك: خدنى معك. م البلكونه: من الشرفة. بيك. أستناك: أنتظرك.

١٠٧- بكره هايجينى: غدا سيأتى إلى. هاتعزى عليه: سيعز على فراقك. الليلة الجاية: الليلة القادمة. دخله بصباحية: زفاف يعقبه صباحية وهو اليوم التالى للزفاف عندما يزور العروسين الأهل لتقديم الهدايا.

١٠٨- محلا: ما أحلى. نملا: نملأ. القدح: مكيال يكيل به الفلاحون الحبوب. مرشق فى قورتها: يحيط بجبهتها. تعا: تعال. حدتها: تحدث إليها.

١٠٩- ليحة الفجر: بداية ظهور الفجر. بيملى: يملأ الجرة من الترعة. قصب: نوع من القماش الغالى الثمن. ومكلفة جمله: معتنى بتزيينه. امبابى: هوه القمر فى السما.. إن القمر فى السماء عادة، فما الذى جعله ينزل ليملأ جرار الماء.

١١٠- باتفرج: اتفرج. على اللى فيه: على مافيه. مديت: مددت. نطرت: ابعدت. نقيه «بتشديد القاف»: اختر منه كما تشاء، أو انتق منه.

١١١- يحلف: يقسم. عليه: على. أبات: أمضى الليل.

١١٦-البخور خليط من مواد ذات رائحة عطرية، تحرق دون أن يكون لها لهب، ويتصاعد منها دخان ذو رائحة طيبة، ويستخدم البخور عادة لتعطير المنازل ودور العبادة، والمحلات التجارية، وقد تتلى معه بعض الأدعية التى يعتقد أنها تقى من العين الحاسدة، خاصة عند تبخير الدكاكين والرقى والتعاويذ عند تنجيم المحسود، وقد يضاف إلى البخور بعض «الشبه» وبعض حبات عين العفريت وهى حمراء اللون، ويزعمون أن الشبه تأخذ شكل عين الحاسد أو الحاسدة عندما تحترق، ومن ثم يفقئونها، وكأنهم بذلك قد فقأوا تلك العين. ويكثر استخدام البخور فى حفلات الزار وفى الأيام العشرة الأولى من محرم خاصة، ويذهب البعض إلى أن عادة استخدام البخور عادة مصرية قديمة، فقد عثر فى بعض مقابر قدماء المصريين على بعض المباخر.

١١٨- حجم خاص من سمك البورى الشهير بمصر يسمونه «طوبار»، يملح ويحفظ لكى يؤكل فى شم النسيم خاصة.

١١٩- فت: تركت. لازم: لابد. أروح: أذهب. دا الحبيب: إنه الحبيب.

١٢٠- ساكن الشرق: النبى. ليمك: ناحيتك. ابن رامه: النبى. معايا: معى. جوزين: زوجين. اللى: الذى.

١٢١- ماباقى: لم يبق. وأحمل بزادى: وأحمل متاعى وزادى. حداكم: عندكم.

١٢٢- حننى: أى غنى أغانى حنون - اطلقى جوز حنون: غنى أغنيتى حنون - مقعدى: حجرتى

١٢٣- بركوا له: أناخوا له الجمل. معاه: معه.

١٢٤-خدهم: خذهم. بابور: سفينة. شبابات: شباب. جولك: جاءوا إليك. فراحه: فرحين سعداء. عشان: لأجل.

١٢٥- عدد مامشيتو: قدر مامشيتم. وراكم: وراءكم. وجيتوا: وجئتم. دا: هذا.

١٢٦- ضل: ظل.

١٢٧- يابا: ياأبى. خليلك: صديقك. الحجيج: الحاج. بتقول: تقول. مين: من.

١٢٨- فى الوسط عمده: فى الوسط أعمدة، كناية عن اتساع الدار وكبر حجمها. وسعيه: واسعة. عمده جمع عمدة.

١٢٩- روح: عد، إرجع. بالسندس: بالخير. يبيض وينقش: يعيد دهان الدار وتزيينها.

١٣٠- ياللى: يامن. أرض الزين: أرض النبى أى الأراضى المقدسة. الحبيب: النبى. عقبالى: العقبى لى.

١٣١- جت: جاءت.

١٣٢- البيت: البيت الحرام.

١٣٣- أبطل الخديوى توفيق هذه العادة لما لها من خطر وضرر.

١٣٤- بامدح: إننى أمدح. يحلالى: يحلو لى.

١٣٥- ياالليك يامن. دوا: دواء. شفاء لى: شفاء لى. بايعتك: وهبة لك. رحما لى: رحمة لى.

المحتويــــــات

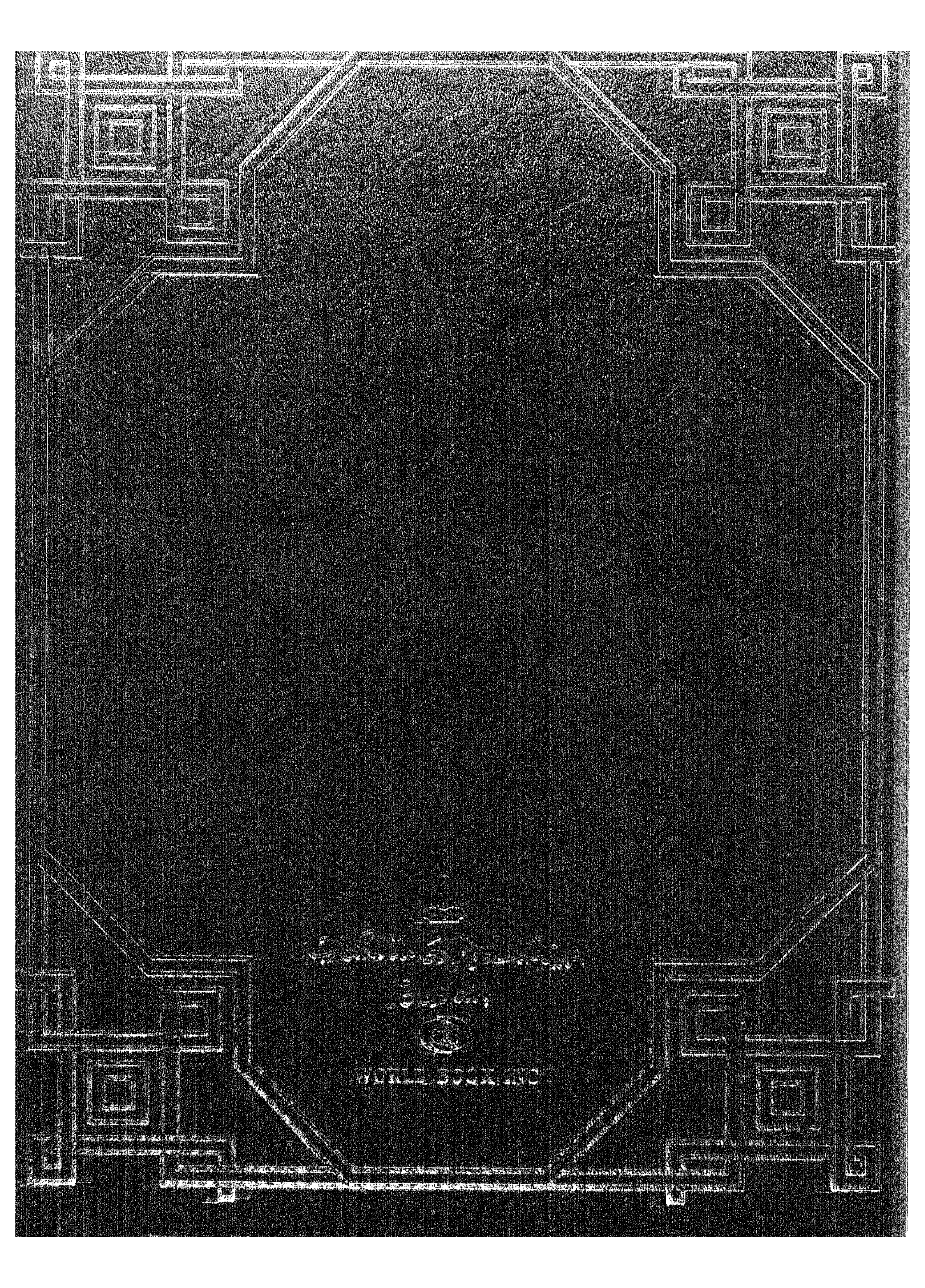
شكر وتقدير

لكل من شارك فى أعمال التحرير من السادة أعضاء هيئة التدريس بكليات الآداب وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة وكلية التجارة جامعة عين شمس.








WORLD BOOK, INC